al-Ālūsī, Jamāl al-Dīn
Usāmah ibn Munqidh baṭal al-ḥurūb al-Ṣalībīyah.

أسامة بن منقذ

بطل الحروب الصليبية

Front

تأليف

جمال الدين الآلوسي

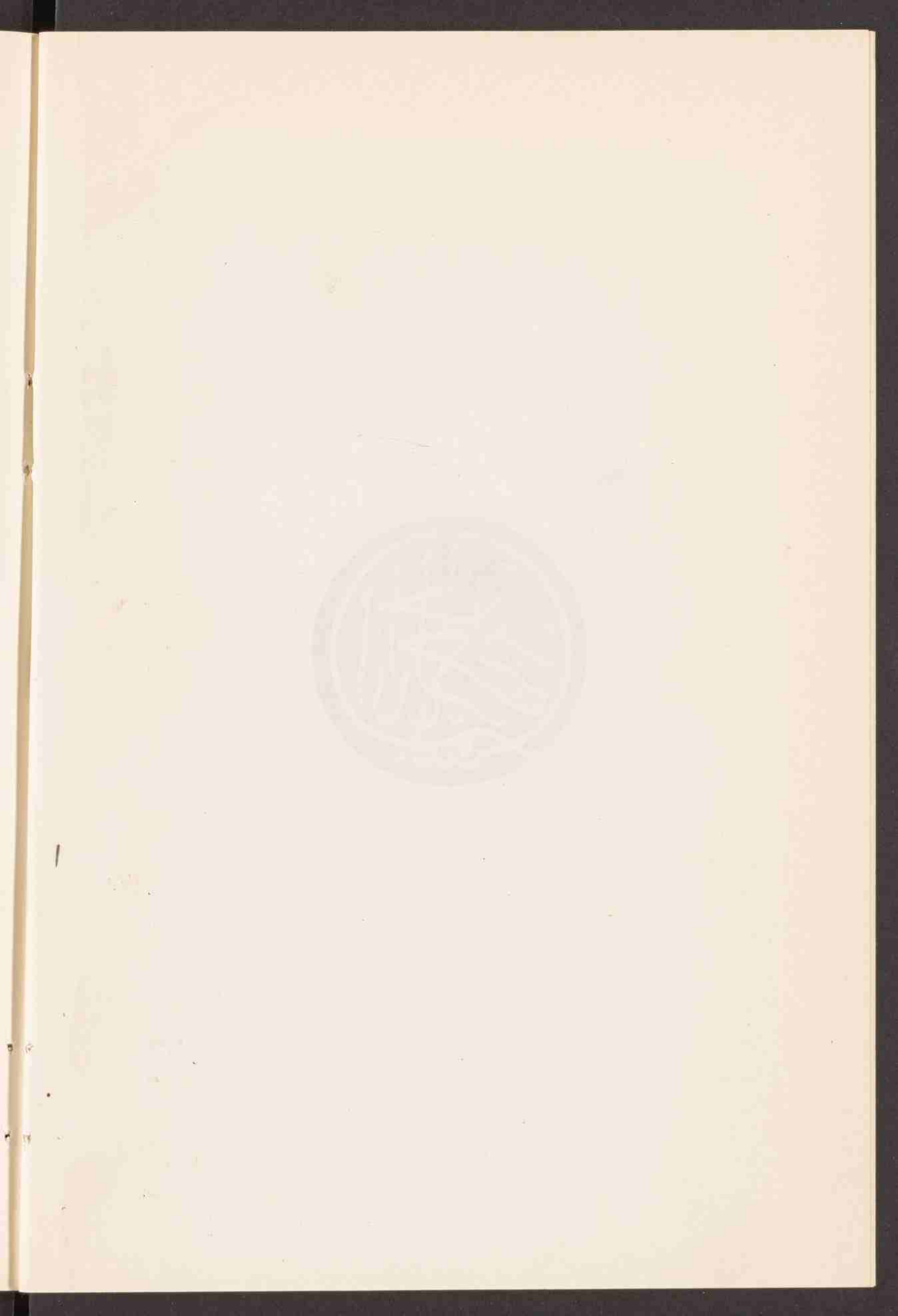
N. Y. U. LIBRARIES

مطبعة أسعد ـ بغداد في ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م

Near East

DS
97
.6
.U7
.A6
c-1


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الكتاب

ذكر السيد قاسم الرجب في مذكراته عن سوق السراي كتاب « الاعتبار » فراح الكثيرون يتساءلون عن الكتاب ومؤلفه بينهم قراء عرفوا بالاطلاع ولا أدري أكان الذي أثار تساؤلهم اعجاب ذلك « الباشا » الذي ذكره صاحب المذكرات وقال عنه أنه كان معجباً بكتاب (الاعتبار) اعجابا كان يدفعه ان يبتاع منه اعداداً يوزعها على أصدقائه! لا أدري؟ وقد تكون الاثارة التي أحدثها رجع الصدى لذلك الباشا في النفوس ، هي الباعث للتساؤل : أو طريقة العرض الدعائية للكتاب التي يحسنها قاسم الرجب وقد قام بطبعه مجدداً ، فأثارت فضول المتأدبين ان يعرفوا كنه الكتاب وسعى عدد منهم الى شرائه بينهم اثنان من رؤساء الوزارات ، وسمعت من بعضهم احكاما كانت نتيجة القراءة السطحية والنظرة الخاطفة لعناوين الكتب وسمعت من قارىء وصحفي يرمي الكتاب بالعامية وضمني مجلس حضره عدد من المتأدبين ذكر فيه الامير اسامة بن منقذ فاذا بالكثرة الكاثرة منهم لم يقرأ عنه شيئا ولم يعرف عن سيرته لا قليلا ولا كثيرا .

وغاب عن هؤلاء واولئك ان كتاب الاعتبار انما هو ذكريات حكاها صاحبها بلغة القصاص وبالكلام الطبيعي الدارج وما أراد ان يكون كتاب أدب وان جاء من امتع كتب الادب ، كان صدى الماضي الذي عاناه البطل يتردد في صدره فحكاها لنا ، « والذكريات صدى السنين الحاكي » كما يقول احمد شوقي رحمه الله دفعني ما سمعت وما خبرت من تطلع القراء والمتأدبين من أبنائنا الى المعرفة ان أبعث سيرة ذلك الامير العربي الذي سماه الذهبي « أحد أبطال الاسلام » وان اجلو حياته وبطولاته وثقافته وشعره واتخذ من ديوان شعره مفتاحاً لشخصيته ثم أتطرق الى مؤلفاته وما طبع منها حتى اليوم ، وما كان مطبوعاً منها في شرقنا العربي قبل ثلاثين سنة الى سنة ١٩٣٠ غير كتاب الاعتبار ، وان من كتب عنه من الكتاب فجل اعتمادهم على الاعتبار وعلى مقدمته للدكتور الفاضل فيليب حتي ،

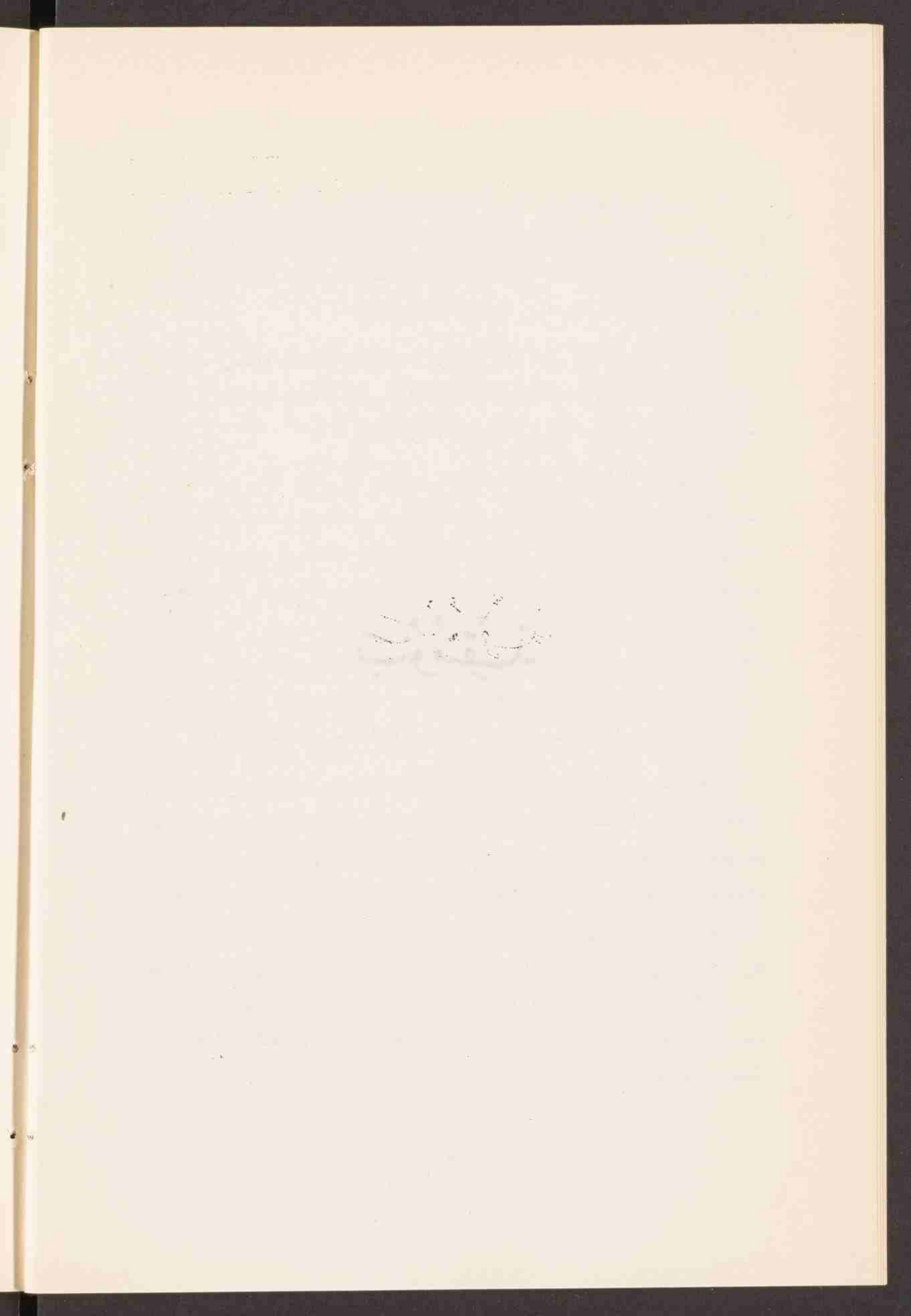
أما وقد تيسر طبع ديوانه وتم طبع كتاب المنازل والديار وكتاب اللباب ، والبديع وكتاب العصا ومراجع شتى أهمها الخريدة للعماد الكاتب والروضتين لأبي شامة ومفرج الكروب ومعجم الادباء فالبحث عن اسامة يختلف اليوم كل الاختلاف عما عهدنا من مقالات أو تراجم ليس فيها إلا بلة الصادي .

سيطلع القارىء على سيرة بطل محبوب ، نحب فيه الصدق والصراحة وخفة الروح والنجدة ، والفروسية بآدابها المتعارف عليها يومها ، نحب فيه شاعراً يجري شعره كجري النسيم في النفس وتشربه وكأنه الجلاب .

وسأعرض الواحاً من كتابه « الاعتبار » الذي هو بحق كتاب عبرة واقتداء سيقرأ قصصاً ممتعاً فيه وقائع تجلّي تلك المعارك التي خاضها اسامة فيها الفروسية وآدابها وفيه نظرات اجتماعية تحليلية لذلك المجتمع المصطرع وسيسمع اخباراً عن تلك الحروب التي أهاجها الطمع والتعصب وشهوة الاستعمار ، لم تفصل اخبارها كتب التأريخ التي سجلت احداث الحروب الصليبية ، سيقرأ القراء أحكاما بناها اسامة على تجربته وكانت وليدة تجاربه ومعاناته لها ، من سيرته سنعلم الصلات التي كانت تقوم بين المسلمين والافرنج ولا سيما – المتبلدين – على حدّ تعبير اسامة ممن صقلهم الاختلاط بالمسلمين وهذبتهم البيئة العربية الاسلامية .

وقد تطبع امراؤهم وفرسانهم بطباع المسلمين حتى جفوا حياة التوحش وأخذوا بأسباب الحضارة العربية التي قد بلغت أوج ازدهارها فراح بعضهم يتشبهون بالمسلمين ويحبون حياتهم وادخلوا الى مطبخهم المآكل الاسلامية واستخدموا الطباخين من أبناء المنطقة وأخذوا بوسائل الطب السائدة عند العرب واستعانوا بأطبائنا ، وفي سيرته نماذج للتربية الرياضية السليمة والتنشئة المبنية على الاعتماد على النفس وغرس روح الشجاعة والفروسية عمليا في نفوس ابنائهم ليشبوا أكفاء يقدرون على تحمل الحياة الصاخبة التي ابتلوا بها من غارات متلاحقة وحروب طاحنة وكرّ وفرّ ، التربية التي تعدهم للحرب والنضال والدفاع عن النفس والشرف والكرامة .

بَنُو مُنْقِذ



قال العماد الكاتب في الخريدة :

« كانوا من أهل بيت المجد والحسب ، والفضل والادب ، والسماحة والحصافة ، والفصاحة والفروسية ، والامارة والرئاسة ، اجتمعت فيهم أسباب السيادة ولاحت من اساريرهم امارات السعادة يُخلِفون المجد أولاً لآخر ، ويرثون الفضل كابراً عن كابر ، أما الادب فهم شموعه المشرقة ، ورياضه المونقة ، وحياضه المغدقة ، واما النظم فهم فرسان مَيْدانه وشجعان فرسانه ، وأرواح جثمانه ، قال مجد العرب العامري بأصفهان سنة نيف واربعين وخمس مئة وهو يثني عليهم ويثني عنان مجده اليهم : أقمت في جنابهم مدة واتخذتهم في الخطوب جُنَّة وللامور عدة ولم القَ في جوارهم جوراً ولا شدة وممدوحه منهم عماد الدولة أبو العساكر سلطان بن علي بن منقذ وما زالوا مالكي شيزر ومُعتصمين بحصانتها ممتنعين بمناعتها حتى جاءت الزلزلة في سنة نيف وخمسين (٥٥٢) ھ فخربت حصنها وأذهبت حسنها .

نسبهم :

بنو منقذ عرب من كنانة وهي قبيلة قحطانية كثيرة العدد كانت مساكنها قبل الاسلام حول مكة تمتد من تهامة في الجنوب الغربي من مكة يجاورون هذيل والى الشمال الشرقي منها حيث يحاددون بني أسد .

ودخلوا الاسلام وظهر منهم كثيرون عرفوا بالشعر والحرب فمنهم الشُداخ ابن عوف الذي كان على مُجنبة أبي عبيدة عامر بن الجراح يوم « اليرموك » ومنهم نصر بن سيار امير خراسان والذي نبه الامويين والعرب المتنازعين للخطر المحدق بهم من تجمع أصحاب الرايات السود ، أصحاب الدعوة العباسية ، ومنهم حفيده رافع بن الليث بن نصر بن سيار الذي ثار على الرشيد ومنهم أبو الاسود الدؤلي

الشاعر العالم ، ومنهم أبو ذر الغفاري الثائر على معاوية وقد خلفوا مفاخر ومناقب كان يتداولها أبناء العشيرة كابراً عن كابر ويرثها الأبناء عن الآباء .

وانساحت افخاذ من القبيلة فبعضها سكن العراق وبعضها سكن أعالي سوريا ومنهم بنو منقذ .

حصن شيزر :

اقطع صالح بن مرداس حاكم حلب رئيس آل منقذ مدينة شيزر وقلعتها ، وهو الذي خلف الحمدانيين على حلب والذي حاصر معرة النعمان حين انتقضت عليه وشدد الحصار على أهلها حتى اشرفوا على الهلاك فأرسلوا اليه أبا العلاء المعري متشفعاً ، فأحسن صالح وفادته ووهب المعرة وأهلها للشيخ المعري رهين المحبسين وفي ذلك يقول أبو العلاء في لزومياته :

تغيَّبْتُ في منزلي بُرهةً   ستيرَ العيوب فقيد الحسدْ
فلما مضى العمرُ الا الأقل   وحُمَّ لروحي فراق الجسد
بُعثْتُ شفيعاً الى صالح   وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع منيَ سجع الحمام   واسمع منه زئير الأسد

وقبل أن يملكوا شيزر «كانوا ملوكا في اطراف حلب بالغرب من قلعة شيزر عند جسر بني منقذ المنسوب اليهم وكانوا يترددون الى حماة وحلب وتلك النواحي ولهم بها الدور النفسية والاملاك المثمنة وذلك كله قبل أن يملكوا شيزر وكان ملوك الشام يكرمونهم ويجلون اقدارهم وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم وكان فيهم جماعة أعيان رؤساء كرماء أجلاء علماء » (١) .

وحصن شيزر قلعة قريبة من حماة على بعد خمسة عشر ميلاً منها ولم يزل قائماً الى اليوم معروف باسم « سيجر » تصحيف « شيزر » (٢) .

---

(١) ابن خلكان ٢ : ١٥٥ .
(٢) مقدمة الاعتبار لفليب حتي .

وكان الحصن « لآل منقذ الكنعانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس »[1] وصالح حكم حلب سنة ٤١٧ هـ .

وخرج الحصن والبلدة من ايديهم الى الروم واسترده سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد جد اسامة رجب ٢٧ منه سنة ٤٧٤هـ بأمان بذله للاسقف الذي كان قد استولوا عليه فيما استولوا من بلاد المسلمين وتحكموا به في المواقع التى حوله .

علي بنُ مقلَّد بن نصير :

كان علي بن مقلد بن نصير بن منقذ رأس آل منقذ رجلا مقداما قوي النفس كريم الصفات احبه قومه واطاعوه لما كان يتصف به من صفات الشجاعة والعدل والكرم والتجرد من الانانية ، فأعدَّ عدته وسلح قومه فأخذ الروم على غرة منهم فلما رأوا انهم لا طاقة لهم بالجيش العربي الزاحف عليهم طلبوا الامان وسلموا الحصن وخرجوا آمنين فأسترد ملك آبائه وراح يعمل جاهداً في تحصينه حتى صار امنع من عقاب الجو ومن حوله وادٍ عميق والنهر يحيط به من اطرافه الثلاثة ، ولقب بـ « سديد الملك » وعاش يرد عادية الحشاشين والاعراب وقصده الشعراء والادباء امثال ابن الخياط وابن سنان الخفاجي فكان يغمرهم بأمواله وكرمه والشعر متأصل بأبناء هذه الاسرة يحفظون عيونه ويجيدون نظمه ، وظهر من بني منقذ امراء أبطال ضموا الى شيزر قرى واسعة وحكموا اللاذقية وجزءاً من الجزيرة ، واشادوا فيها ذلك الحصن وكان له مركزه الحربي في الحروب الصليبية فكان مطمح الطامعين من الافرنج والحشاشين والاعراب لان من يملك هذه القلعة الحصينة يتحكم بالقسم الداخلي من سوريا وصد بنو منقذ غارات الصليبيين ووقفوا كالطود الشامخ يردون هجماتهم ويغيرون على قلاعهم ومدنهم فيقتلون ويأسرون ويغنمون ، وقاومت قلعتهم زحف الروم وصمدت لحصارهم ولم يكترثوا لتلك الوسائل المخربة التى نصبها ملك الروم لحصار القلعة وبقيت صامدة لا تترك له مجالا للنفوذ الى الداخل وكان عماد الدين زنكي يمدها

(١) عن ابن الاثير ج ١١ ، ٨٨ والروضتين ١ : ١١١ .

بمعونته ويدافع عنها بجيوشه حتى يئس ملك الروم فترك الحصار وترك المنجنيقات بمكانها ، وقفل الى انطاكية يجر أذيال الخيبة[١] .

مرشد بن علي :

وبعد وفاته تولى الحكم ابنه مرشد بن علي الملقب مجد الدين (٤٦١ - ٥٣١ هـ) وكان فارساً شجاعاً ثابت الجنان عند البأس لا يعرف الخوف نهاره للحرب وليله للعبادة ونسخ المصحف الشريف وتلاوة كتاب الله ، وحكي أنه نسخ للقرآن اكثر من ثلاثين نسخة وكان ذا خط جميل وزهد عن الحكم وتنازل لاخيه ابي العساكر سلطان بن علي وكان اصغر منه ، وعني بتربية اولاده ومنهم اسامة فكان يصحبه فى الحرب والغارات على الاعداء فاذا لم يكن قتال فيصحبه في القنص والصيد ومطاردة الوحش والاحراش ؛ والغابات كثيرة من حول شيزر ، وكان مغرما بالصيد لهجاً به له فيه ترتيب لا نظير له « وحضر وقائع كثيرة وفى بدنه جراح هائلة ومات على فراشه وأبو العساكر سلطان لم يرزق أولاداً فأصطفى لنفسه ابن أخيه اسامة بن مرشد واولاه عنايته وتربيته وكان يعهد اليه بالمهام من أمور الادارة والحرب والسياسة يعُدُّه لامرة القلعة ولرآسة الاسرة فلما رزق الاولاد داخله الحسد من ابن اخيه واختلفت نظرته اليه واظهر التجني على أولاد اخيه ابعاداً لهم عن منافسة أولاده وبعد وفاة أخيه مرشد جاهر اسامة البغضاء وطلب اليه ان يهجر الحصن ، وكان هذا من قدر الله وقضائه لينجو اسامة وأخوته من تلك الكارثة التى قضت على آل منقذ .

اسامة بن منقذ :

هو اسامة بن مرشد بن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سوار بن زياد بن رغيب بن مكحول بن عمرو بن

---

(١) أنظر الروضتين ١ - ١١٢ وفي أماكن مختلفة من الجزء الحادي عشر من الكامل .

الحارث بن عامر بن مالك بن ابي عوف بن كنانة بن عوف بن عُذْرة بن زيد اللات بن رُفَيْدَة بن ثور بن كلب بن وبرَة بن تغلب بن حُلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان « قال ياقوت هكذا ذكر هو نسبه وفيه اختلاف يسير عند ابن الكلبي » .

نشأته ومولده :

ولد اسامة يوم الاحد ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٤٨٨هـ تموز (١٠٩٥م) بقلعة شيزر كما حكاه فى الاعتبار وكما ذكره للعماد الكاتب وكنيته « أبو المظفر » وحكى ياقوت الحموي كنية اخرى له هى (أبو اسامة) ولم أر من خاطبه أو كناه بها ولكن له كنية هي (أبو الفوارس) والكنية الاولى اكثر شيوعاً واستعمالا ولقب بـ (بمؤيد الدولة ومجد الدين) .

نشأ اسامة في كنف أبويه وعمه وفي وسط اسرة من اشهر الأسر العربية محافظة على تقاليدها ومن تقاليدها الموروثة الفروسية والعلم والادب وبعد ولادته بسنتين بدأت الحروب الصليبية وبدأ الاعصار الغربي المدمر ، ومن يحيا في شيزر وحصنها المنيع وحوله الاعداء من كل جانب لابدَّ له ان يكون جندياً مدربا وينشأ على الفروسية لا مفرَّ له منها تلزمه عليها طبيعة وطنه وما يحفه من اخطار ، والضعيف لا عيش له ولا حياة بمثل هذا الحصن وفى وسط هذه الأسرة افرادها من الشاب الى الشيخ من البنت والزوج والام يمرنون على القتال والحرب والفرد على استعداد كل لحظات حياته يلقى اعداءه نهاره وليله وربما فزع من نومه على الصائح ، وقد يخرج احدهم من بيته فيلقاه افرنجي او يصادفه احد الحشاشين ليقتله ويسلبه سلاحه ولباسه وفي ضواحي الحصن احراش وغابات يعمرها الوحوش ومنها الاسود تهاجم الناس كل وقت تسمع الصايح كما يعبر اسامة ، فيهرع الفرسان يلبون النداء ليدفعوا عن أنفسهم واهليهم عادية المهاجمين والطامعين ولا حديث لهم في اسمارهم الا انباء الحرب والغزو وحكايات الابطال وقصص الفتاك وترديد الأشعار والقصائد الحماسية التى تثير فيهم النخوة والقوة والعزيمة

وتربي فى نفوسهم الشجاعة والاقدام ويقصون على ناشئتهم بطولات اجدادهم من آل منقذ ويروونهم اشعارهم ويلزمونهم حفظها ويذكرون لهم مشاهير الفرسان الذين عرفوا بالفتك ومقارعة الاقران ويختارون لهم القصائد الحماسية وكانت سيرة خالد بن الوليد ومقامه على مقربة منهم يذكرون لهم مواقفه الحربية وما فى جسمه من ندوب الطعن وجراح السيوف ومع ذلك يموت حتف أنفه على فراشه فلا نامت عين الجبان ، في مثل هذا الوسط ربي اسامة نشأه أبوه على الفروسية ومرنه على القتال ويدفع به بين لهوات الاسود فأخرج منه بطلا فارسا ، ورجلا ثابتاً قوى الجنان لا تزعزعه الاعاصير ولا تهيض جناحه الملمات .

ثقافتـــه :

وعني الاب بثقافته فأحضر له الشيوخ العلمـــاء ليعلموه هو واخوته وبني عمومته فسمع الحديث من الشيخ الصالح ابي الحسن علي بن سالم السنبسي سنة ٤٩٩ هـ وكان يؤدبه الشيخ العالم أبو عبدالله محمد بن يوسف بن المنيرة وقرأ النحو على الشيخ ابي عبـدالله الطليطـلي الذي كان يلقب بملك النحو وبسيبويه زمانه، والتوسع بالنحو يستدعي كثرة الاطلاع على الشـــعر القديم وعلى الغريب وعلى تفسير القرآن وعلى علوم البلاغة ، وكان الامراء من بني منقذ يقصدهم الشعراء والادباء يمدحونهم ويسترفدونهم فأقتبس اسامة من هذا المجتمع الادبي ادبا جما وعلماً واسعا وحفظ كثيراً من الشعر القديم فقد نقل الحافظ الذهبي عن أبي سعيد السمعاني قال : (قال لي أبو المظفر ـ يعنى اسامة ـ احفظ أكثر من عشرين الف بيت من شعر الجاهلية ، فلا عجب ان ينشأ شاعراً فحلا ويحيا رجلا فارســـا ثابتاً لا تزعزعه الاعاصير ولا تضعف عزماته الرزايا والاهوال ، يقول عن نفسه بعد ان جاوز التسعين (فهذه نكبات تزعزع الجبال وتُفني الاموال والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة الى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الاجال واجحفت بهلاك المال[1] .

فلا يظن ظان ان الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر

---

(١) الاعتبار ص ٣٥ .

ففى بقائي اوضح معتبر ، فكم لقيت من الاهوال ، وتقحمت المخاوف والاخطار ، ولاقيت الفرسان وقتلت الاسود وضربت بالسيوف و ُطعِنتُ بالرماح وجرحت بالسهام وانا من الاجل في حصن حصين الى ان بلغت تمام التسعين فأنا كما قلت :

مـــع الثمانين عاث الدهر فى جَلَدي

وســـاءني ضعف رجلي واضطراب يدي

اذا كتبت فخطي جـــد ُ مضــطرب

كخط مرتعش الكفـــين مُرْتَعِـــدِ

فاعجب لضعف يدى عن حملهـــا قلماً

من بعد حطم القنـا فى لبَّـة الأســد

وإن مشيت وفى كفي العصـــا ثقلَتْ

رجلي كأني أخوض الوحل في الجَلَد

فقـــل لمن يتمنى طـــول مدتـــه

هــذي عواقب طول العمر والمُدَدِ (١)

فى هذا الوسط المحموم عاش الامير اسامة ولم يمضِ على ولادته عامان وأشـهر حتى هبت اعاصير الحقـد والتعصب والاطماع هبت رياح هوج تحمل الدمار والخراب دبت زحوف من الكتل البشرية تدفقت كالاتي الزاخر ووجهتها بلاد الشام وشيزر في طريق تلك الجيوش الجرارة التي أولها حطً في انطاكية وآخرها فى أوربا ولا آخر لها .

---

(١) الاعتبار ١٦٣ ـ ١٦٤ .

الحروب الصليبية

لا مندوحة لمن يريد ان يؤرخ سيرة اسامة بن منقذ من ان يتفهم مدى هذه الحروب الطاحنة المجنونة التي هب اعصارها على الشرق العربي سنة ٤٩٠هـ أي بعد مولده بسنتين فصلي نارها منذ ان كان يافعا وخاض معامعها ولما يتجاوز الخمس عشرة سنة وبقي يجالد فرسانها حتى جاوز الثمانين ، وتناقل أحاديث بطولاته المسلمون والافرنج واعجب بشجاعته ومهارته اعداؤه قبل افراد اسرته ، وذاع صيته واشتهر أمره شرقا وغربا ، وتنافس الامراء والملوك على اصطفائه وتقريبه واحبه الفرسان من الداوية[1] الافرنج لشهامته ، هبت اعاصير هذه الحرب الضروس ودافعها عاملان ديني اثاره التعصب والحقد وعامل دنيوي هو الطمع وحب التملك والتنعم بخيرات الشرق العربي حين تناقل اليهم حجاجهم وصف البلاد الاسلامية وما كانت تزخر به من خير ونعمة كانوا بها فاكهين ، وما كانت عليه من خصب وغنى وعمران فكانت المطامع وحب السيادة تجيش في صدور أهل الغرب لغزو هذه البلاد التي يمتلكها الكفار على زعمهم ، فهبت زحوف مسعورة كأنما مسها الجنون فهي هائجة مائجة تركت اوطانها جماعات ووحدانا تجد فيها الطفل الرضيع تحمله أمه الشابة والشيخ الفاني يقوده ابنه الشاب المتحمس ترى المرأة العجوز والشابة الرعبوبة يحملون اثقالهم ويجرون كلابهم اندفعوا من كل صوب وانحدروا من كل جانب ، ترى الفارس والراجل والاعزل والغارق بالسلاح ترى اسراً بقضها وقضيضها وكأنهم في رحلة الى وطن جديد تسمع لهم دوياً يصك الاذان وجلبة تخنق الانفاس وتشم منهم روائح تزكم الاناف ، يرددون شعاراً (هذه ارادة الله) لقنهم هذه الكلمات رجال ملأ قلوبهم الحقد والكراهية للاسلام وما كان الله يريد ظلماً للعباد ، انه الجهل والهوى وانه الطمع دفع ابناء الغرب ليغزوا الارض الطيبة ارض السلام أرض الخير والبركة ليقتلوا ابناءها ويستعبدوا نساءها وينعموا بخيراتها ، وما لابناء هذه المنطقة المهاجمة من ذنب ، فتحوا بلادهم تستقبل حجاج أرضهم المقدسة لمن قصد

---

(١) الداوية هم من فرسان المعبد .

زيارتها من الافرنج ومنحوهم الحرية فى اداء طقوسهم ، وانزلوهم على الحب والكرامة فكان جزاء هذا التسامح من المسلمين ان غزوا فى عقر دارهم وشن الغرب عليهم حربا لا تبقي ولا تذر تحرق الاخضر واليابس بتحريض رجال الدين الذين راحوا ينشرون بين حشود أوربا أكاذيب ليس فيها اثارة من صدق فحواها ان المسلمين قد اهانوا قبر المسيح ومنعوا الحجاج من اداء طقوسهم وانزلوا بهم العذاب الاليم والحقوا بهم الاهانات وان المسيحيين يلاقون الاضطهاد ويمنعون من زيارة اماكنهم المقدسة ، وتعالت اصوات الرهبان تدعو اتباع المسيح الى انقاذ اخوانهم وتخليص قبر المسيح من يد الكفرة ، وصدق المتعصبون هذه الدعوى وأمنوا بما قاله الخطباء وروجه الواعظون ، فزحفت جموعهم لتصد تيار الاسلام الذي قال لهم البابا أنه يهدد أوطانهم ، ولم يكن لما أشاعوه وافتروه ظل من الحقيقة وانما العكس كان يحصل فقد كان حكام فلسطين وسكانها من عرب وغير عرب يعاملون الحجاج بكل رعاية ويمنحوهم الحرية والعون لما فى ذلك من مصلحة اقتصادية وتجارية فكانوا فى الواقع يشجعون حركة هذه الزيارات ، اقيمت لهم المنازل وبنيت الاسواق من أجلهم يديرها تجار من ابنائهم وتسامح المسلمون مع الحجاج وشاركوهم فى زياراتهم ، والبيت المقدس له حرمة قدسية فى قلوب المسلمين ولكن هو الحقد ملأ صدور المتعصبين والطمع الذى كان يعمر قلوب الامراء والتجار لامتلاك هذه البلاد العامرة الغنية ، فاندفعوا فى جموع لا عدَّ لها وارتال لا انقطاع لتدفقها لا يلوون على شىء تركوا اوطانهم وديارهم واندفعوا بأتجاه الشرق ، منهم من سلك البرَ وهم فى مسيرهم يسحقون كل ما يمرون به ينهبون القرى الرومية وغير الرومية ولا يتركون خلفهم غير الدمار والخراب ، ومنهم من سلك طريق البحر اتخذه سبيلا ومنطلقا وفى نفوسهم آمال تداعبهم واطماع تساورهم لعلهم بغزوهم هذا يتخلصون من الحياة المضنية والفقر الذى كان يعيشه اكثر سكان اوربا الوسطى والشمالية والجدب والقحط قد عم ربوعهم بسبب الحروب المتلاحقة بين امرائهم والجماهير الجاهلة هى وقودها ، فوجدت الدعوة الصليبية نفوساً متهيئة لتلبيتها فأستغلتها لعلهم يحققون لهم حياة أفضل مما كانوا يحيون ، واخبار الغنى قد ملأت اذانهم وخصب المنطقة قد

اسال لعابهم ، هذا السيل الجارف المتلاحق يتقدمهم والهدف يوحد كلمتهم ويقرب ما بينهم ويقضي على خلافاتهم ولو الى حين •

وشرقنا العربي الاسلامي تمزقه الخلافات والحروب بين امرائه وحكامه والحكم لملوك السلجوقيين سواء فى بغـداد أو فى سوريا أو آسيا الصـغرى أو ايران ، والخليفة العباسي مسلوب الارادة ليس لـــه من الامر شيء والخليفة الفاطمي وبلاطه فى شغل بأنفسهم الخليفة يدبر الدسائس لكيد الوزير والوزير يدبر المكايد لاسقاط الخليفة او قتله وهم فى غفلة عما سيحل بهم وفى بلادهم يسمعون بهذا الغزو وكأنه لا يعنيهم ولم يحنزهم لتهيئة وسـائل الدفاع على أقل تقدير وما يعنيهم وسوريا هى المهاجمة وأمر دفاعها مسؤول عنه غيرهم ، ونجد في سوريا التى هى الهدف الاول من هجوم تلك الجموع الزاحفة قد تقسمها حكام يتنازعون السلطة بأسهم بينهم شديد يغزو بعضهم البعض الآخر وقد حكم كل حاكم ولاية أو مقاطعة مستقلا عن المركز ولم يكتف بما يملك وانما راح يطمع ان يزيد املاكه بالاستيلاء على جيرانه هذا حال البلاد الشامية ، فى دمشق حاكم وفى حلب حاكم وفى حما حاكم وفى بعلبك حاكم وهكذا فى كل مدينة مثـــل هذا والكل عدو لبعضهم بعضا ، واهل البلاد لا سلطان لهم يتحكم فيهم حكام همهم التسلط والابهة وما يجبى من المـال ينفق فى هـذا الغزو المتلاحق وعلى ملاذهم واعوانهم ، وما حالنا اليوم عنهم ببعيد •

جاءتهم النذر وسرت اليهم انبـــاء الزحوف تقطع الارضين وتنهب القرى وتدمر مـا تمر به من عمران فلم تهزهم الانبـاء ولم يفزعهم الخطر ولم تروعهم كثرة هذه الجموع المهاجمة ولم تثر حتى مجرد الرغبة فى المصير الذى ينتظرهم وينتظر ابناءهم واوطانهم ، لم تثر فيهم هذه الانباء الرغبة فى وقف خلافاتهم والعمل لتضافر القوى لصد هذا الاعصار المدمر ، ولم يحركهم الخطر الداهم ليُعدوا للحرب عدتها ومن عدتها الاساسية ازالة انقساماتهم وتوحيد كلمتهم وتجميع قواهم وحشد جيوشهم متساندة لصد هذا العدوان والعدو ماضٍ يســـرع فى الزحف وينشر الرعب ويخلف الخراب حيث حل ونصيبُ الارض التى يمر بها القتـل والسلب والتخريب والتدمير فهام الناس على وجوههم وتعالت صيحات الاستنجاد

من بغداد والقاهرة والموصل والجزيرة ويرسل الخليفة العباسي الى الاخوين المتقاتلين من سلاطين السلاجقة ويعرفهما الخطر فلا يأبهان لرجاء الخليفة ويمضيان فى القتال على الحكم ، ولجأ العلماء والصلحاء الى الحكام والامراء يستنجدونهم فلم يحرك نداؤهم احداً وخطة احدهم ان يدفع عن نفسه وقلعته او مدينته ٠

ولكن هذا الحال لم يدم طويلا فقد هيأ الله للمسلمين اميراً قوياً فتياً هب من الموصل والجزيرة يجمع القوى ليقف فى وجه الغزاة ويهاجمهم فى قلاعهم ذلك هو البطل عماد الدين زنكي وراح يسترجع المدن والقلاع من ايدى الافرنج وساعده الايمن وفارسه المغوار اسامة بن مرشد القائد العربي الذى طارت شهرته فى حرب الافرنج فى شيزر وكفرطاب وانطاكية ، وكان لقيام عماد الدين فى تجميع القوى الممزقة وتوحيد الامراء أثره الفعال فى توقيف الزحف الصليبي عن داخل سوريا وقد نهج على خطته ولده نور الدين محمود الذى هاجم الافرنج فى مدنهم واستخلص منهم الكثير من المدن واسامة بن منقذ من ابطال هذه الحروب ، فلما تولى أمر المسلمين صلاح الدين واتم توحيد الشام ومصر وقضى على بقية الامراء الذين عادوا الى الظهور بعد وفاة نور الدين بذلك التوحيد قدر له ان ينتصر على الصليبيين فى حطين وعسقلان والكرك وتم له النصر المبين بأستخلاص القدس من يد الصليبيين بعد حكم لها دام زهاء تسعين سنة واقتفى خلفاؤه من بعده وسار على دربه من جاء من بعدهم من حكام مصر المماليك فأولوا حرب الصليبيين عنايتهم ووالوا هجماتهم حتى رموا بهم الى البحر وانهارت مقاومتهم على يد بيبرس الجندي المحنك والمسلم الغيور هذا وبطلنا اسامة بن منقذ قد كان له القدح المعلى والنصيب الاوفر فى هذه الحروب حروب الدفاع والهجوم خاض غمار القتال فى جبهات مختلفة بفرسانه تارة ومع اعمامه وأهله أخرى ومع الامراء عماد الدين ومعين الدين أُنُر ونور الدين وابن السلاّر وشهد النصر المبين وقرت عينه قبل وفاته بعام بفتح فلسطين على يد صديقه صلاح الدين الذى كان يمده بنصحه ومشورته وينتفع بتجاربه وآرائه السديدة ٠

اسامة الفارس :

ان حياة اسامة تمثل الفروسية ومن اجلى مظاهر الفروسية النجدة والكرم والشجاعة والشعر يمثله قول طرفه :

اذا القوم قالـــوا من فتىً خلت انني
عنيت فلم اكســـل ولـــم أتبلد

والفتى هو الفارس الذى يخف لنجدة قومه بسيفه يحمى ذمارهم وبرمحه يرد اعـداءهم وبماله يواسي عائلهم وهكذا كان الامير اسـامة يرد غارات الافرنج عن شيزر ويخف لفك الحصار عن القلاع الاسلامية ويتطوع فى جيوش الامراء الذين ندبوا انفسهم لحرب الصليبيين مرة مع عماد الدين واخرى مع معين الدين وتارة يقود الفرسان مع الملك العادل ابن السلار واخرى مـــع نور الدين ولا يتخلف عن زحف فيه قتال فى سبيل اعـلاء كلمة الاسـلام قاتل وهو ابن خمس عشـرة سنـــة وابلى فى الحرب بلاء أعجب الاعـــداء وفى ذلك يقـول مفتخرا وحق له الفخر :

لخمس عشـــرة نازلت الكماة الى
ان شبت فيها وخـــير الخيل ما قرحا
اخوضهـا كشـــهاب القذف مبتسماً
طلقَ المحيا ، ووجه الموت قـد كلحا
بصـــارم مَنْ رآه في قتـــام وغىً
أفري به الهام ظن البرق قـــد لمحا
اغدو لنار الوغى فى الحرب انخمدت
بالبيض فى البيض والهامات مقتـدحا
فسل كمـــاة الوغى عنى لتعلم كـــم
كرب كشفت وكم ضيق بي انفسحا

فى يوم الجمعة خامس جمادى الاولى سنة ٥١٣هـ كان قد خرج مع عمـه ورجال من عسكره وبني قومه فألتقوا بجيش كبير للافرنج ووقع بينهم قتال

يُشيبُ له الاطفال واستمر القتال وأخذ الموت يحصد رجال اسامة وقد هان عليه الموت وراح يقاتل وتحته فرس مثل الطير يهاجم يمنة ويسرة ويلاحق الابطال يطعن هذا ويضرب ذاك ويحمي اصحابه فاذا اصاب البهر فرسه ركب غيره حتى انتهت الموقعة ورجع اسامة ظافرا يتحدث عن بطولته كل من شهد الوقيعة ، وفي هدأة من الليل يأتيه من يناديه ان اجب عمك أبا الفوارس فاذا عند عمه فارس من عظماء قادة الافرنج فقال له عمه « هذا الفارس اعجبه اليوم قتالك فجاء يهنئك بموقفك ويبدى اعجابه من طعناتك وشجاعتك » هذه روح الفروسية تملي على صاحبها أن يعجب بالشجاعة والبطولة ولو صدرت من خصمه وكان هذا التقدير من الفارس له أثره وقيمته في نفس بطلنا ومما زاده ثقة بنفسه وايمانا بشجاعته واعتماداً على ربه فقال في ذلك :

سَلْ كماة الوغى في كل معترك
يضيق بالنفس فيه صدر ذي الباس
يُنبِّـؤك بأني في مضايقها
ثبتٌ اذا الخوف شَقَّ الشاهق الراسي
أخوضها كشهاب القذف يصحبني
عضبٌ كضوء سرى أو ضوء مقباس
اذا ضربت به قرناً أنازله
أوْجَأَهُ عن عائد يغشاه أوْ آسي (١)

هذا ديدنه وهكذا كان ينفق أيامه بين حرب وضرب وقنص وصيد يوم يغير على أعدائه ويوم يرد غاراتهم وينازل الافرنج في معاقلهم وتارة يقاتل فيقتل واخرى ينهزم ويجرح يطاردهم على خيله التي كان يتخيرها وله سياس ركابي يخدمها ويشد سرجها يفر يوماً على حصان قد طال قتاله عليه وقد جرح حتى تدلت أمعاؤه والحصان يجري به كالريح حتى اذا نجا صاحبه ووصل الى موطن أمانه وقع ميتاً ، فيعجب لشجاعة جواده ويخرج باعتبار ذلك هو : انالخيل

(١) أوجَاه ، دفعه ونحاه ، والآسى الطبيب الذي يأسو الجراح ٠

فيها الشجاع وفيها الجبان وفيها القوي وفيها الخوار ، فيها الوفي لصاحبه وفيها البليد ، هذا اسامة في شيزر غزو وقتال وصيد ومكاسرة للوحش ينفق ماله في اكتساب المكارم ويسعى الى الهيجاء في سبيل المحمدة لا يرهب الردى وفلسفته ان الموت سبيل الاحياء فاذا عاش عاش ماجدا محمدا واذا مات خلف ثناء مؤبدا ، ويعرب عن أحاسيسه هذه بشعر صادق جميل يقول :

سأنفق مالي في اكتساب مكارم
أعيش بها بعد الممات مخلدا
وأسعى الى الهيجاء لا أرهب الردى
ولا أتخشى عاملاً ومهندا
فان نلت ما أرجو فللمجد ثم لي
وإن مت خلَّفت الثناء المؤبدا

وخفق قلبه للحب ونعِمَ بالوصال وتصاعدت أنفاسه اقباساً من ألم الفراق وتسعرت بين ضلوعه لواعج الشوق الى المحبوب فقال :

شكا ألمَ الفراقِ الناس قبلي
ورُوِّع بالنوى حي وميت
وأما مثلُ ما ضَمَّتْ ضلوعي فاني ما سمعت ولا رأيت

أبو العساكر يمهد لاولاده :

كان اسامة أثيراً لدى عمه أمير الحصن (سلطان) وكان ينزله منزلة ولده ويعده بمثابة صديقه وأخيه وكان يرى فيه الاميرَ الذي سيخلفه على الحكم يوم لم يكن لابي العساكر « عمه » ولد أو عقب ، فكان يكل اليه المهام التي تتطلب الجرأة والاقدام ويشركه في الجليل من الاعمال التي تتطلبها امور الحكم وكان العم تعجبه شجاعة أسامة وترضيه رصانته وتعقله فيما يفعل وكلما أتى عملاً جليلا اهتز له فرحا وتوسم في مخايله الرجل الحامي للعشيرة والفارس الذائد عن حمى الحصن والحاكم الناجح الصالح لادارة المملكة ، خاض الحروب

بجنب عمه وكثيرا ما كان يقود الفرسان بمفرده وعمه يلاحظ تصرفه فكان ينمي في نفس اسامة روح القيادة ويعده ويتعهده ويمتحنه فى الملمات ليرى حضور ذهنه ساعة الروع ، كل هذا كان من عمه لابن أخيه يوم كان عمه لم ينجب ولدا اما وقد رزق محمدا وشبّ واصبح فى عداد الفرسان فقد فتر حب العم لاسامة واختلفت نظرته اليه وصار ما يعجبه من بطولاته يؤذيه ويرمض عينه ويملأ قلبه خوفاً على ولده وحسداً لمواهبه وكلما جاء اسامة بعمل باهر يحدث ثناء الناس كلما أحسّ العم بالنفرة والكراهية ويأتي اسامة يوماً برأس أسد كبير قتله بسيفه وحسب ان هذا مما يقربه من عمه فتقول له جدته التي كانت تلحظ تغير الامير على حفيدها فتوبخه وتحذره وتقول له « لا والله ما يقربك هذا من عمك وانما يزيدك منه بعداً ووحشة » فلما لمس هذا التغير من عمه حاول أن يرضيه بكل وسيلة وفعل من البطولات ليلفت اليه قلب عمه وليحصل على رضاه فما كانت هذه الفعلات تزيده الا نفورا فراح يفكر بارتحال الى ميدان آخر من ميادين الجهاد مع أمير يقدر له شجاعته ومفاداته .

رحلة اسامة الاولى :

رحل اسامة بحدود سنة ٥٢٥ هـ وكان الدافع له على رحلته هذه عن شيزر أول أرض مس جلده ترابها احتمل فراق أهله وأمه وزوجه وأصدقائه يوم لم ير بدأ من الرحلة لما رآه من كراهية عمه له وقد عملت عقارب الحسد في قلب المرأة زوج الامير التركية وكيد النساء عظيم خافت على ولدها أن يحرم من الحكم ان بقي اسامة على ما هو عليه من مركز مرموق ولما كان يتمتع به من حب ومكانة لدى الجند والأتباع وما يمتاز به من شجاعة واقدام وشهرة مما كان يزيد من نفرة العم الحاكم تخوفاً منه على ولده وحب الولد غريزة لا تقهر فراح يهيء نفسه للسفر والالتحاق بأحد الامراء الاقوياء الذين ندبوا أنفسهم للذود عن الثغور ومحاربة الافرنج ورد عاديتهم وكان أقواهم يومئذ عماد الدين زنكي حاكم الموصل والعمادية والذى كان من أعظم أبطال المسلمين فى الحروب الصليبية راح يعد العدة لهذه الرحلة ولسانه يردد :

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى
وفيهـــا لمن خاف القـلى ُمتَعَزَّلُ
واني كفاني فقـد من ليس جازيا
بحســـنى ولا في قربـه متعلل

ضاق ذرعاً بحياته المنغصة بالكيد والبغض وهو الذي ما تعود غير الحب والتقديم والثقـة فعول على الارتحـال ولو في ذلك فراق الاحبـة وفراق الوالد الشيخ الذي كان لا يرتضي مثل هذا السفر ويلح عليه بالبقاء لمعاونة عمه والدفاع عن أهله ، ولكن العيش من غير كرامة لا تطيقه نفس اسامة :

أأســام خســفاً ، ثم لا   آبي ، فلســتُ اذاً اسامه
هيهات ، لا ترض المعــا   لي صاحباً يرض اهتضــامه

فلما أعياه الحال مع عمه ولم يجد باباً لاعادة مركزه عنده كتب الى والده يكاشفه بدخيلة أمره ويستأذنه بالارتحال ويرجوه ألا يلزمه بالبقاء ففي البقاء مع عمه ضياع الكرامة واحتمال الهوان ولم يعد في قوس التصبر منزع :

أشكو الى عليـاك همـاً ضاق عن
كتمـــانه صـدري وما هو ضـيق
وطوارقاً للهمِّ أمْرِيها الكـــرى
وتلِظُ بي صـــبحاً فمـــا تتفرق
لو لم أمنِّ النفسَ أنك كاشـفٌ
كُرُباتِها عنهـــا لكادت تَزْهَقُ
أنا عائذ بك من عقوقٍ مُحْبِطٍ
عمـــلي فعصـــياني لأمرك مُوبق
لا تُلْزِمَنِّي بالهـــوان وحمـــله
إنَّ احتمال الهُونِ ثِقْلٌ مُرهِقُ

دعني وقطع الارضِ دونَ معاشرٍ
كـلٌّ عليَّ لغير جرمٍ مُحْنِقُ

تَغْلِي عليَّ صُدُورهم من غيظهم
فتكـاد من غيظٍ عليَّ تحـرّق

تعشـى اذا نظروا اليَّ عيونهـم
حتى كأن الشمسَ دوني تُشرِق

كسَدَتْ عليَّ بضائعي فيهـم فلا
أدبي ولا نسبي عليهـم يَنفِقُ

أعْيَا عليَّ رضـاهم فيئستُ من
ادراكـه ، ما النجم شيء يُلحق

إنْ أغشَهُمْ قالوا خَلوبٌ ، ماذق
أو أجْفُهُم قالوا : عـدو أزرق

قـد أفسدوا عيشي عليَّ وعيشَهم
فأنا الشقي بهم ، وبي أيضاً شَقُوا

فأسمح ببعـدي عنهم برضـاك لي
إن الذي ترضى عليـه مُوَفَّقُ

فلعلَّ بعضَ العمـرِ وهو أقلُّهُ
الا يُكدَّرَ بالهمـوم ويُمْذَقَ

وعسى قلوب أعْضَلَتْ أدواؤهـا
في قربنـا بعـد التفرق تفـرق

فضـل الاقارب : برُّهم وحنوهم
فاذا جفـوني فالاباعـد ارفـق

بيني وبينهم هنـــات في الحشـــا
منهـــا ندوب ما بقيت وما بَقُوا

لا تغترر برجائهم ان يُحسنوا
كـم قد رأينـــا من رجاء يخفق

خـــذ ما تراه ودع أحاديث المنى
ان الامـــاني فيهم لا تصـــدق

هذه أبيات تفصح عن الاسباب التي حدت بالامير اسامة الى الرحلة والنزوح عن أبيه وبني عشيرته وعن موطنه الذي قضى به شرخ شبابه وكان له فيه صبابات وبطولات قاد الكتائب وردّ عادية الافرنج وحارب الاعراب من بني كلب والحشاشين من الاسماعيليين ، وقضى في ربوعه زهرة حياته وله فيه ذكريات ظل يحن اليها ، هذه أبيات هي نفثة مصدور نفّس عن صدره المكروب بهذا الشعر الرقيق الحزين للشيخ الذي يلزمه طاعة عمه والبقاء في شيزر فودع أهله وأصحابه ورحل :

يذكر ابن الاثير : ج ١١ ص ٨٩ ، قال : « وسعى بينهم المفسدون فغيروا كلاً منهما على أخيه فكتب سلطان الى أخيه مرشد أبيات شعر يعاتبه على أشياء بلغته عنه فأجابه بشعر في معناه رأيت اثبات ما تمس الحاجة اليه وهي هذه الابيـات » :

ظلوم ابت فى الظـلم الا تماديا — وفي الصد والهجران الا تغاليـا
شكت هجرنا والذنب فى ذاك ذنبها — فياعجباً من ظـالم جاء شـاكيا
وطـاوعت الواشـين فيّ وطالما — عصيت عذولا فى هواها وواشـيا
ومال بها تيهُ الجمـال الى القلى — وهيهات ان أمسي لها الدهر قاليـا
ولا ناسياً مـا اودعت من عهودها — وإن هي ابدت جفـوةً وتناسيـا
ولمـا اتاني من قريضك جوهرٌ — جمعت المعالى فيـه لي والمعانيـا
وكنت هجرتُ الشعرَ حيناً لانه — تولى برغمى حـين ولّى شبابيا

واين من الستين لفظ مفرق اذا رمت أدني القولَ منه عصابيا
وقلت اخي يرعى بنيّ واسرتي ويحفظ عهدي فيهم وذماميا
ويجزيهم ما لم اكلفه فعله لنفسي فقد اعددته من ترائيا
فما لك لما ان حنى الدهر صعدتي وثلم مني صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة وقربك مني جفوة وتناسيا
وأصبحت صفر الكف مما رجوته ارى اليأس قد عفىّ سبيل رجائيا
على انني ما حلت عما عهدته ولا غيرت هذى السنون وداديا
فلا غرو عند الحادثات فانني اراك يميني والانام شماليا
تحلّ بها عذراء لو قرنت بها نجوم السماء لم تعدن دراريا
تحلّت بدُرّ من صفاتك زانها كما زان منظوم اللآلي الغوانيا
وعش بانياً للمجد ما كان واهيا مشيداً من الاحسان ما كان هاويا

وكان الامر بينهما فيه تماسك فلما توفي مرشد سنة احدى وثلاثين وخمس مئة قلب اخوه سلطان لاولاده ظهر المجن وباداهم بما يسؤوهم واخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد اكثرهم نور الدين» إنّ خروجهم كان بعد ٥٣٢هـ وبعد حصار الروم لشيزر ولم يكن نور الدين فى الشام وانما كان معين الدين الذى لقي اسامة بالترحاب والتكريم كما فصلت ذلك فى موضعه •

الى الموصل الى عماد الدين :

كانت الشام والجزيرة (جزيرة ابن عمر) يوم فارق اسامة اهله مبعثرة لا تؤلف بينهم وحدة ، فى كل بلد قام أمير سمى نفسه ملكا استقل بما تحت يده وقطع علاقته بالمركز الرئيس الخليفة العباسي أو السلطان السلجوقي وراح يجبى الاموال ويعد العدة لغزو جيرانه وضم املاكه اليه فى الموصل أمير وفى ديار بكر حاكم وفى حلب امير وفى الشام ملك وفى حمص وحما أمير وكانت العداوة بين هؤلاء الامراء شديدة يتخاصمون ويتقاتلون والافرنج من المان وفرنسين وانكليز وهنغار وسلاف توحد بينهم الكنيسة وتجمع كلمتهم غاية وينجحون بتنفيذ خطتهم

ينتزعون من هؤلاء الامراء المتخاصمين المدينة تلو المدينة ، وفى هذه الاونة التي رحل فيها اسامة ظهر نجم اخذ يضيء وبطل بدأ يجمع القوى ويقضي على الاختلافات هو عماد الدين زنكي حاكم الموصل والعمادية والجزيرة والذي اشتهر بحروبه وانتصاراته على الصليبيين ، فيمم اسامة شطره نحو الموصل والقى اسامة بنفسه فى المعارك تحت لواء المجاهد عماد الدين وخاض معه معارك كثيرة فى الجزيرة وارمينيا وحلب ولم يزعجه فى هذه الفترة من حياته ويوغر صدره سوى ما كانت تصل اليه من انباء غضب والده الشيخ عليه فأرسل الى ابيه ابياتا يطلب فيها رضاه وان لا يصدق قول الوشاة الذين اوغروا صدره منها :

يا ويحَ قلبي من شوق يُقلْقلهُ
الى لقائكَ ماذا من نواك لقي

وناظرٍ قرَّحَتْ اجفانه اسفاً
عليك في لجةٍ من دمعه غرقِ

وبعد ما بي فأشفاقي يهددني
يشوب رأيك بالتكدير والرنق

وإنَّ قلبك قدَ رانَتْ عليه من الوا
شين بي جفوةٌ يهماء كالغَسَقِ

أما كفاهم نَوىَ داري وبعدك عن
عيني وفرقة اخوان الصِّبا الصُدُقِ

وانني كل يوم قطبُ معركةٍ
دُرية السمر والهندية الذلق

اغشى الوغى مفرداً من اسرتي وهم
همُ اذا الخيل خاضت لُجّةَ العلق

وموضعي منك لا تسمو الوشاة له
ولا يُغيرِّهُ كيسي ولا حمقي

فاذا رجع عماد الدين من معركة عاد معه اسامة يقضي وقته في القراءة والنظم وعاش بالموصل يزور نقيبها وعلماءها ويزوره اعيانها وادباؤها طوف في هذه الفترة بالرها وميافارقين وديار بكر وكيفا ونصيبين وارمينيا تارة مع عماد الدين واخرى بمفرده ودام حاله يحارب بجنب عماد الدين نحوا من سبع سنين حتى اذا قصد ملك الروم حصن شيزر خف الى نجدة عشيرته يدافع الروم مع فرسان بني منقذ وذلك سنة ٥٣٢هـ وكان والده الشيخ قد التحق بالرفيق الأعلى وعمه ابو العساكر سلطان ما زال الحاكم فبدل من الشجاعة والبسالة ما كان يظن انه سيرضي العم الحاقد والروم قد نصبوا نحو الحصن ستة عشر منجنيقا وحاصروها ووالوا قصفها بالاحجار الضخمة وقد حكى اسامة فعلها في كتابه (الاعتبار) قال « ومن عجيب الآجال لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل وتبلغ حجرها ما لا تبلغه النشابة وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا» واظهر اسامة من البطولة ما جعل الألسن تلهج بذكره من جديد وسارع عماد الدين يلاحم الروم ويلاحقهم وينال منهم ويقف بجيشه قبالة الروم واهل القلعة في دفاعهم يصمدون حتى انكشف عنهم الروم ورجعوا خائبين فلاحق مؤخرتهم بنو منقذ واهل شيزر فنالوا منهم غنائم واسرى واسامة كل يوم يأتي بعظمة تعلي من قدره وترفع اسمه عاليا ، وفي انتصارات عماد الدين على الروم يقول ابن قسيم الحموي :

الم ترَ ان كلب الروم لما
تبين انك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات جيشاً
كأن الجحفل الليلُ البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه
وكان لخطبه الخطبُ العظيم
فحين رميته بك في خميس
تيقن ان ذلك لا يدوم

اراد بقـــاء مهجتـــه فولى

وليس ســـوى الحمام له حميم

وقفل عماد الدين فأستأذنه اسامة فى البقاء بجانب عمه واهله ولا سيما بعد ان حرموا رعاية الشيخ الجليل والده ، فأذن له ، فهل نعم اسامة ببقائه الى جانب عمه وهل ذلك الدفاع المجيد والتضحية قد استلت سخيمة صدر العم ، هذا ما سنعرفه فى الفصل الآتي :

اسامة يرحل الى الشام :

أبلى اسامة فى الدفاع عن شيزر وعن اسرته بلاء حسناً ودافع دفاعاً مشهوداً سار بحديثه الركبان يأمل ان يرضي عمه وينال عطفه الذي عوده من قبـل فيخلد الى الاستقرار بين أبناء عشيرته ولا سيما بعد وفاة أبيه سنة **٥٣١** الا ان عمه أبا العساكر تنكر له وجاهره بضرورة الارتحال لأنه كان يرى في بقـائه خطراً على أولاده واعتقد ان ليس لهم سلامة اذا بقي اسامة في شيزر لما كان يراه فيه من المزايا التي تؤهله للرياسة والحكم وخاصـة على أولاده ان يتعرضوا للتشريد والحرمان واذن فمن الخير له ولاسامة أن يزمع الرحيل من جديد ، فرضي أن يفارق موطنه فراقاً لا عودة له اليه ولم يشأ أن يرجع الى الموصـل وهو الذي اختار فراق عماد الدين الذي كان به حفيا يفارقه مختاراً برغم ان الأمير كان راغباً بصحبته وعرض عليه أن يعود معه فآثر أن يتوجه الى دمشق وله فيها صديقان يحبانه فيها الأمير شهاب الدين محمود بن بوري بن طغدكين وفيها وزيره معين الدين أُنَر وكلاهما يحب اسامة وخاصة الوزير ويرحبـان بمقدمه ويفرحان باقامته والانضمام الى معسكرهما لفروسيته وغنائه في الحروب فكان ان نال حظوة وقاتل الاعداء وهاجم الصليبين وأصبح بطل دمشق كما كان بطل شيزر ، ونظر اليه نظر الاجلال ورفع الوزير منزلته وعده أثمن درة في تاج الأمير وعهد اليه في تصريف الشؤون الحربية والادارية فطارت شهرته وتضوع ذكره بين الخاص والعام ونجح في تصريف شؤون الدولة نجاحاً زاد

من تعلق الناس به وعاش عيشة مرفهة ودرت عليه اخلاف الرزق ومع ذلك يعاوده الحنين الى موطنه ويألم لما لقيه من عمه ومن نكران لأياديه وهل يحسب أعداؤه والشامتون برحيله ان ارتحاله ضائره أو ان فيه غضاضة لقدره أو حطاً لمنزلته فما زاده الا نباهة ذكر وعلو همة وهل ارتحاله عن بلاد تنكرت له ولأمثالِه هل لساكنيها فخر ؟

أَظن العِدا أنَّ ارتحاليَ ضائري
ضلالا لما ظنوا وهل يكسدُ التبْرُ

وما زادني بعدي سوى بعد همةٍ
كما زاد نوراً في تباعده البدرُ

ولو كان في طول الثِواء فضيلةٌ
لما انتقلت في افقها الأنجم الزهر

ولو لَزِمتْ أغمادَها البيض ما انجلت
بها غمراتُ الحرب واتضَحَ النصر

وهل في ارتحالي عن بلاد تنكرت
لمثلي أو للساكنين بها فخر

وان بلاداً ضاق عني فضاؤها
لأرحب من أكنافها للعُلا فِتر

وأرضاً نَبَتْ بي وهي آهلة الربى
هي القفر بل من دون وحشتها القبر

وهل ينكر الأعداء فضلي وإنه
لأسيرُ ذكراً أن يواريه الكفر

الستُ الذي ما زال كهلاً ويافعاً
له المكرمات الغرُ والنائل الغمرُ

وخائض وقعـــاتٍ بوارقها الظُبَــا
وو ابلُ هاتيـك البروق دم همرُ

يهول الردى منــي تقحمي الردى
ويقتاده من جأشيَ الرابط الذعر

ولو حكمت بيني وبينهم الظُبَـــا
رضيت بما تقضي المهنـدة البُتْرُ

اسامة في دمشق :

عاش في دمشق معززاً مكرماً ثماني سنين كان فيها بطل الحروب والقنص ورجل السياسة والادارة ونال من الجاه والغنى ما فيه السعة والرفاهية وزيادة فدب الحسد في قلب الخاصة والحاشية وراحوا يأتمرون به عند الأمير وتألَّب عليه خصومه ودسوا عليه انه يأتمر بالسلطان ودافع عنه الوزير فما زاد حساده إلا خصومة وكيداً واضطر الوزير أن يتخلى عنه قال في « الاعتبار » فأقمت فيها « يريد دمشق » ثماني سنين وشهدت فيها عدة حروب وأجزل لي صاحبها - رحمه الله - العطية والاقطاع وميزني بالتقريب والاكرام يضاف الى اشتمال الأمير معين الدين - رحمه الله - علي وملازمتي له ورعايته لاسبابي ثم جرت أسباب أوجبت مسيري فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله وفرطت في أملاكي ما كان نكبة اخرى ، كل ذلك والأمير معين الدين محسن مجمل كثير التأسف على مفارقتي مُقرّ بالعجز عن امري حتى انه انفـذ الي كاتبه الحاجب محمود المسترشدي - رحمه اللّه - قال : « واللّه لو ان معي نصف الناس لضربت بهم النصف الآخر ، ولو ان معي ثلثهم لضربت الثلثين وما فارقتك لكن الناس كلهم قد تمالؤا علي ومالي بهم طـاقة وحيث كنت فالذي بيننا من المودة أحسن حال » .

من هذا الذي رواه اسامة نعلم ان المقام لم يصف لاسامة بعد تلك المدة الطويلة فنبا به المكان واستوحش قلبــه وهو الرجل الذي ما عرف المكايدات

والمؤامرات وقصيدته بعد فراق دمشق التي أرسلها الى معين الدين أُنر بعد رحيله تفصح بأن الوشايات التي حاكها الحاسدون كانت السبب في رحلته ولاشك

صراحة اسامة :

ان الأمير اسامة كان يعاون هؤلاء الحاسدين بتصرفاته فهو امرؤ ما عرف غير الصراحة والشجاعة لا يحسن الدسائس والمكايد ولا تعجبه المخاتلة فهو مكشوف في ما يأخذ أو يذر وتعاليه على خصومه وترفعه ان ينزل الى مستواهم في الخضوع والتزلف كل ذلك مكن للجفوة ان تحصل فكتب الى معين الدين قصيدة نقتبس منها ما يجلي هذه الصلة بين الأمير والوزير قال :

بلغ أميري معينَ الدين مألُكَةً
من نازح الدار ودُّه أمم

هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم

تضييع واجب حقي بعدما شهدت
به النصيحة والأخلاق والخدم

وما ظننتك تنسى حقَ معرفتي
« ان المعارف في أهل النهى ذمم »

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من
وُدٍّ وإن جلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم
« حتى استوت عندك الأنوار والظلم »

والله ما نصحوا لمَّا استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي مُتهم

كم حرّفوا من مقال في سفارتهم
وكم سعوْا بفساد ضلّ سعيهم

أين الحميةُ والنفس الابية
ساموك خطة خسفٍ عارها يَصِمُ

أسلمتنا وسيوف الهند مُغْمَدَةٌ
ولم يُروِّ سِنانَ السمهري دَمُ

وكنتُ أحسبُ من والاك في حرمٍ
لا يَعْتَرِيه به شيبٌ ولا هرمُ

وأنّ جارَكَ جارٌ للسموءل لا
يخشى الأعادي ولا تغتاله النِقَمُ

هبنا جنينا ذنوباً لا يكفرها
عذرٌ فماذا جنى الأطفال والخدمُ

القيتَهم في يد الافرنج مُتَّبِعاً
رضى عدىً يُسْخِطُ الرحمنَ فِعلهمُ

هم الأعادي وقاك الله شرهم
وهم بزعمهم الأعوان والخدم

وإذا نهضت الى مجدٍ تُؤثِلُه
تقاعدوا فاذا شيدتَه هدموا

وإن عرتك من الأيام نائبة
فكلهم للذي يبكيك مبتسمُ

حتى اذا ما انجلت عنهم غياهبها
بحدّ عزمك وهو الصارم الخذِمُ

رَشَفْتَ آجِنَ عيشٍ كله كدر
وورْدُهم من نداك السَلْسَلُ الشبم
وإن أتاهم بقولٍ عنك مُخْتَلِقٌ
واشٍ فذاك الذي يحيا ويحترم
وكل مَنْ مِلْتَ عنه قرّبوه ومن
والاك فهو الذي يُقْصى ويُهْتَضَمُ
بغياً وكُفْراً لما أولَيْتَ مِن مِنَنٍ
ومَرْتَعُ البغي لولا جهلهم - وَخِمُ
جَرِّبهُم مثلَ تجريبي لتخبُرَهم
فللرجال اذا ما جربوا قيم
هل فيهم رجلٌ يُغْنى غَنَاي إذا
جَلا الحوادثَ حدُّ السيف والقلم
أم فيهم من له في الخطب ضاق به
« فليتَ أنا بقدر الحبِّ نقتسم »
وما سخطتُ بعادي إذ رضيت به
« وما لجرحٍ اذا ارضاكم ألم »
ولستُ آسى على الترحال عن بلدٍ
« شهب البزاة سواء فيه والرخم »
لكنْ فراقُكَ آساني وآسفني
ففي الجوانح نارٌ منه تضطرم
فأسلمْ فما عشت لى فالدهر طوع يدي
وكل ما نالني من بؤسه نِعَمُ

رحلة اسامة الى مصرَ :

بارح اسامة الشام وفي قلبه فيض من الحب لمعين الدين أُنَر والقصيدة تعرب عن ذلك الحب وان مازجه عتب بريء من الحقد وإن شابه اسىً وأسف لمن فارق وحزن لما لقي بعد ذلك الاخلاص فى الخدمة والبلاء فى الحرب والنصح في السلم ، تذكرنا قصيدته بأخت لها للمتنبي الشاعر من نفس امروي والمعنى وقد تأثر بها اسامة حتى ضمنَّ عدداً من ابياتها ولانها تعبر عن عاطفته ومحبته لمن فارق كما كشفت عن نفس قائلها لمفارقة سيف الدولة الامير الذي أخلص له واحبه بل ربما ان المتنبي لم يحب ممدوحاً كما احبَّ سيف الدولة لتوافق ميولهما في الشعر والحرب والادب .

ختم الامير اسامة قصيدته القوية المعبرة عن أحاسيسه ولواعج نفسه بعتاب ودعاء ووفاء لا يصدران الا عن نفس نبيلة لا يتسرب اليها الحقد والضعف .

فأسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكل ما نالني من بؤسه نِعَمُ

ترك اسامة دمشق وسافر الى القاهرة فوصل اليها في جمادى الثانية سنة ٥٣٩هـ (تشرين الثاني ١١٤٤م) لا كما وهم الاستاذ الكبير احمد أمين رحمه الله فجعل دخوله مصر ٥٤٩ هـ وهذه السنة هي سنة خروجه من مصر ، أيام الخليفة « الحافظ لدين الله » تصحبه والدته وزوجه واخوه محمد وكانت شهرته قد سبقته الى القصر الفاطمي والى رجال الدولة وقدروا نضاله فأكرمه الخليفة اكراما يليق بمقامه وجهاده وثمَّن نضاله في الذود عن حمى الاسلام ووصلت اليهم انباء شجاعته ومواقفه البطولية فى قتال الافرنج لقد أراد الحافظ لدين الله الخليفة الفاطمي ان يجعل من اسامة حاميا يستعين به فى ازماته وفارسا يدافع عنه اعداءه وهم كثيرون يحيطون القصر ويحكمون المدن المصرية الكبرى ، فراح يغدق عليه الاموال والهدايا والتحف ويشركه فى لذاته وسمره وصيده يدخل الى القصر متى شاء ويخب خلفه الفرسان والخدم ويركب سرجا من ذهب عليه اسمه وليس لاحد من القادة او الفرسان سرج من ذهب غير اسامة وعلى اسطبله خمسة

وثلاثون جواداً من الخيل العربية المجربة بسبقها ، ولنسمعه يقص علينا خبر وصوله قال : كان وصولي الى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مئة ، فأقرني الحافظ لدين الله الفاطمي ساعة وصولي فخلع علي بين يدي ودفع لي تخت ثياب ومائة دينار وخولني دخول الحمام وانزلني في دار من دور الافضل بن أمير الجيوش في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس كل ذلك لا يستفاد منه شيء واقمت بها مدة اقامتي في اكرام واحترام وانعام متواصل واقطاع زاج » وكان يرافق الحافظ في صيده وللحافظ جوارح من البزاة والصقور والشواهين وكان لها خدم يخرجون بها للصيد فيصيدون طيور الماء وطيور البر ويصطادون نوعاً من البقر الوحشي يسمونه بقر بني اسرائيل .

وجد اسامة متنفساً له ومزاولة لفروسيته في هذه الحفلات الرياضية والصيد هواية يحن اليها زاولها في شيزر مع والده وعمه أيام السلم وزاولها مع معين الدين في أحراش الشام ، ولكنه برغم هذا المظهر الانيق والعيش الرغيد والرياش والفراش الوثير والخيرات التي تغدق عليه اذا أصبح واذا أمسى فقد ملّ اسامة هذا الرخاء والتنعم وهو انما يألف الخشونة والحركة والكر والفر والغزو والضرب ولم يألف المكث والثواء الذي أصابه العفن من طول ما لازمه وانما هو خلق ليكون مسعر حرب كلما خمدت نارها بالبيض والسمر والغارات المتوالية وكيف لا يمل حياته حتى أصبح يشبه نفسه بالغادة المكسال مضجعها وراء السجف والكلل .

نستمع اليه يشكو ملله :

انظر الى صرف دهري كيف عودني
بعد المشيب سوى عاداتي الاوَل

قد كنت مِسْعَرَ حرب كلما خمدت
اذكيتُها باقتداح البيض في القلل

همي منـــازلة الأقران أحسبهم
فرائسي ، فهــمُ مني على وجل

أمضى على الهول من ليلٍ ، وأهجَمُ من
سَيْلٍ ، وأقدمُ في الهيجاء من أجل

فصرتُ كالغادة المكسال مَضْجعُها
على الحَشَايا وراءَ السجف والكلل

أروح بعد دروع الحرب في حُلَلٍ
من الدبيقي ، فبؤساً لي وللحُلَل

وما الرفاهة من رامي ولا أرَبي
ولا التَنعم من شاني ولا شــغل

ولست أرضى بلوغ المجد في رَفهٍ
ولا العُلى دون حَطْمِ البيض والأسَل

هذا حال اسامة أيام « الحافظ » وليت الأمر دام له وكل ما يشكوه هو الثواء وانه قد عفن من المكث من غير عمل اعتاده من منازلة للأقران يروح ويغدو في دروع الحرب والبيض والسمر في لبة الأسد أو صدر فارس عنيد ، ولكن الفتن قد توالت والدسائس قد تسعرت وهو وإن كان في معزل عنها ولم يكن من جناتها ولكنه بحرها اليوم صالٍ واتهم انه من مدبريها أو له يد في تدبيرها وعلى كل فقد لقي منها شراً كثيراً واوذي في جسمه وماله وأتباعه .

مات الخيفة الفاطمي (الحافظ) وبويع لولي عهده (الظافر) وهو أصغر اخوته وعمره سبع عشرة سنة جرى ذلك بتدبير من ابن مصـال الوزير المغربي لينفرد بالحكم ويحتجز لنفسه السلطة المطلقة والخليفة الجديد غرٌّ ربي على الميوعة واللهو ومعاشرة الجواري وما كان يعنيه من أمر البـلاد وادارتها شيء وابن مَصَال يصرف أمر الدولة وفق ما يشتهي ، وحكام الولايات يطمعون

بالوزارة ولكل منهم نفوذ واتباع في اقليمه وكان أقواهم والي الاسكندرية ابن السَّلار فجمع جنده وسار الى القاهرة وقتل ابن مصال فخف الخليفة لاستقباله ووسد اليه الوزارة ولقبه بالملك العادل وإن كان يضمر له السوء والكراهية ، وكان في جنده ومن بين أتباعه رجل عربي من تميم مغربي من صنهاجة اسمه عباس له صلة بابن السلار فهو زوج امه وكان طموحاً وله ولد اسمه « نصر » جميل الطلعة أصبح من خلان الخليفة الظافر وندمائه لا يفارقه الا قليلاً فأخذ الخليفة يوغر صدر صديقه على الوزير الذي اظهر كفاية وجدارة وحزماً وحبب اليه قتل الوزير ليكون والده عباس مكانه ويغتال عباس وابنه الوزير في داره وحل مكانه ومن جديد بدأ الخليفة الظافر يوسوس لنصر بن عباس ليغتال أباه ويوسد اليه الوزارة فيأتمر الوالد والولد فينفذان خطتهما بقتل الخليفة ويدخل عباس وخلفه الجند فيسأل عن ولي نعمته وحين يخبر بغيابه يحضر ابنه وهو ابن سبع سنين فيبايعه ويتهم بقتل الخليفة اخويه فيقتلهما وهما بريئان من كل ما كان يجري في القصر من المؤامرات والدسائس ، حياة كلها جرائم الخليفة يكيد لوزيره والوزير يكيد لولي نعمته ونساء يشتركن في المؤامرات بمثل هذا الجو المحموم وجد اسامة نفسه فضاق صدره وسئم حياته ، وامتلأ صدره بالهم والنقمة على نفسه نستمع اليه وهو يشكو الأقدار التي دفعت به الى مصرَ :

يا مصرُ ما درتِ في وهمي ولا خلدي
ولا اجالتك خلواتي بأفكاري

ما أنتِ أول أرض مسَّ تُربَتَها
جسمي ولا فيك اوطاني واوطاري

لكن اذا حمت الأقدار كان لها
قوى تؤلف بين الماء والنار

ويصف حياته المملة القلقة بسبب تنقل السلطان من طامع لآخر من مغامر لثان وهو في وسط هـذا الآتون يُصلَى بنيران هـذه الفتن فينعى على حظه ويلوم نفسه :

خمسون من عمري مضت لم أتعظ
فيهـا كأنـي كنتُ عنهـا غائبـا

وأتتْ عليَّ بمصرٍ عشرٌ بعـدها
كانت عظـاة كلهـا وتجـاربا

شاهدت من لعب الزمـان بأهله
وتقلب الدنيـا الرَّقوب عجائبـا

اسامة يجد ما يصبو اليه :

وجد بعض ما يصبو اليه حين ولي ابن السلار الذي وثق به واعتمده ليلقى الملك العادل نور الدين محمود والذي كان بطل الاسلام بعد أبيه فقد نهد لحرب الافرنج وغزاهم في عقر قلاعهم واسترد منهم أماكن كثيرة فعهد ابن السلار الى الأمير اسامة ان يسعى للقاء نور الدين ويوحد الخطة معه لحرب الصليبيين قال اسامة « وتقدم الى الملك العادل ـ رحمه الله ـ بالتجهيز للمسير الى الملك العادل نور الدين وتأخذ معك مالاً وتمضي اليه لينازل طبرية ويشغل عنـا الافرنج لنخرج من هاهنا نخرب غزة وكان الافرنج خذلهم الله قـد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان ، قلت فان اعتذر أو كان له من الاشغال ما يعوقه ؟ أي شيء تأمرني قال إن نزل على طبرية اعطه المال الذي معك وإن كان له مانع فدَيْون من قدرت عليه من الجند واطلع على عسقلان أقم في قتـال الافرنج واكتب الي بوصولك » (١) .

ولقي اسامة نور الدين وانفذ معـه من جنده ودون مائة وستين فارساً

(١) الاعتبار ، ص : ١٠ .

وأخذهم قال (وسرت في وسـط بلاد الافرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق) وحارب قرب عسقلان وبيت جبريل وكان أخوه عز الدولة أبو الحسن في جملة من كان يقاتل معه (١) ، أقام في حرب الافرنج أربعة أشهر حتى استدعاه ابن السلار فعاد الى مصر وشهد اغتيال الملك العادل الوزير الحازم ، ومقتل الظافر ولم يلوث يده في هذه الأحداث ولا كان له رأي فيها ولكن الفتنة أصابته وإن لم يكن ممن ظلموا أو اشتركوا وهذا شأن الفتن مصداقاً لقوله تعالى (واتقوا فتنة لا تُصِيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصـة) انما شرها يعم ، نهب الثائرون من الجند المغاربة والسودانيين والأعراب داره وفي ذلك يقول :

« فأخذوا من قاعة داري أربعين غرارة جمالية مخاطة فيهـا من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير وأخذوا من اصطبلي ستة وثلاثين حصاناً وبغلة سروجية والكسوات وسروجها وعدتها كاملة وخمسة وعشرين جملاً ، وأخذوا من اقطاعي مائتي رأس بقر والف شية واهراء غلة » .

شهد اغتيال الوزير ابن باديس المغربي للخليفة الظافر واجهازه على أخيه يقول : (ونحن في الرواق جلوس وفي القصر أكثر من الف رجل من المصريين « فما راعنا الا فوج قد خرج من المجلس الى القاعة وصوت السيوف على انسان فقلت لغلام لي أرمني ، أبصر من هذا المقتول فمضى ثم عاد وقال « ما هم مسلمون» هذا مولاي أبو الأمانة يعني (الأمير جبريل) قد قتلوه ثم خرج عباس وقد أخذ رأس الامير يوسف تحت أبطه ورأسه مكشوف وقد ضربه بالسيف والـدم يفور منه الخ ... »

وختم قوله (وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق) ويقول : في القصر الف

---

(١) بعد رجوع اسامة استشهد اخوه عز الدين .

سيف ما حمت أسيادها ولا حركهم ذلك البغي الذي يدل على رخص قيمة الانسان واسامة ذلك الفارس الشهم بقي مكتوف اليد لا يحرك ساكناً من هنا جاءته اتهامات المؤرخين وحامت حوله الشبهات والحاضر يرى ما لا يرى الغائب أكبر الظن انه لو كان يملك قوة لما سكت على هذا الظلم الصارخ ، وأعجب من هذا انه يضطر لمصاحبة عباس وابنه نصر يوم فرا الى الشام ليستعينا على طلائع ابن رُزِّيك [1] .

طلائع بن رُزِّيك :

كان أحد أمراء الولايات من العراق ومن أصل أرمني حاد الذكاء يتشيع للفاطميين توصل عن طريق خدمته لهم الى الامارة والحكم فلما قتل الظافر وبويع للفايز كاتبه نساء القصر وكان والياً على المنبة ، فسار بجنده الى القاهرة وتولى الوزارة ولقب بالملك الصالح ، اما عباس وابنه فقد فرا واصطحبا معهما اسامة الذي كان يود لو اتيح له النجاة منهما استغل عباس أخلاق اسامة وفروسيته وطلب اليه أن يناصره وهو في محنته ووعده بالمرافقة فلم يكتف بذلك فأخذ عليه مواثيق مغلظة اضطر ان يلتزمها وما من أخلاق الفارس اسامة أن يخيس بايمانه وفي الطريق خرج عليهم الافرنج فقتل عباس واسر ابنه نصر وجيء به الى مصر فقتل وعلقت جثته على باب زويلة ، واسروا نجم الدولة أبا عبدالله محمداً شقيق اسامة وكانت بين ابن رزيك واسامة مودة وصحبة فكتب الى اسامة كتاباً أنفذه مع رسول يقول فيه : « عباس ما يقدر على المقام بمصر بل هو لا محالة سيخرج منها الى الشام وأنا ملك البلاد وأنت تعرف ما بيني وبينك فلا تخرج معه ، فهو بحاجة اليك في الشام يرغبك ويخرجك معه فالله الله لا تصحبه فأنت شريكي في كل خير أناله » وكان ابن باديس عباس يعلم ما كان بين اسامة وطلائع من الاخاء والصداقة ويحسب لبقائه في مصر الف حساب فان في تعاونه مع ابن رُزِّيك تقوية لأمره وافساداً لخططه التي كان يأمل الحصول عليها من نور الدين زنكي ولهذا أصر على ابن منقذ ان يصحبه وكان ما وقع له في طريقه وخروج الافرنج على قافلتهم وقد اسلفت خبر مقتل عباس واسر ابنه وقتله ثم

---

(١) انظر قصة رحيله الى الشام مع عباس في كتاب الاعتبار .

صلبه اما اسامة فقد جرح في رأسه ونجا من الموت باعجوبة ووصل الى الشام بعد مصاعب ومتاعب فصل خبرها كتب الاعتبار من صفحة **١٣ - ٣٣** ، فليرجع اليها من يريد المزيد •

اسر الافرنج لاخيه وانتهاب امواله :

عاد اسامة الى دمشق سنة **٥٤٩** بعد ان قضى في القاهرة عشر سنين لاقى فيها خيراً كثيراً وشراً أكثر خرج من امواله وأملاكه التي انتهبها الجند السوداني والمغاربة ، وصل الى دمشق وهو في اسوأ حال والتحق بجيش نورالدين محمود فأعاد اليه مركزه وأكرمه وقدمه ، وكاتبه طلائع ان يرجع الى مصر ويوليه أسوان هذا قبل مجيء عشيرته فأستشار الملك العادل نور الدين فقال له « أما كفاك ما لقيت من مصر وفتنها » •

فاعتذر لطلائع وحصل له الملك العادل نور الدين أماناً من « بلدوين الثالث » ملك الصليبيين خطياً أرسله مع أحد أتباعه الى الملك الصالح ابن رُزِّيك ليسفر أمه وزوجه وأتباعه وكانوا زهاء خمسين بين رجال ونساء وحملوا معهم أموالهم وجواهرهم وذهبهم وسلاح اسامة وقيمتها ثلاثون الف دينار ومن ضمنها مكتبته التي انتخب كتبها بنفسه وجلدها تجليداً متقناً وتعدادها أربعة آلاف مجلد تحتوي على دواوين كثيرة •

سارت بهم سفينة (دمياط) حتى اذا وصلت عكا أرسل بلدوين رجاله فحطموا السفينة وأخذوا ما فيها وانتهبوا كتبه وآلمه ضياع أربعة آلاف من الكتب الفاخرة يقول : « فان ذهابها حِزازة في نفسي ما عشت » الاعتبار •

ترك بلدوين لعشيرته خمس مئة دينار توصلهم الى دمشق فوصولها بعد عناء كبير ، ولم يأس على شيء قدر حزنه على أمر أخيه وضياع كتبه ولم يشأ أن يكلف نور الدين من أمره ما يمكن حله عن طريق غيره •

ذكر أبو شامة في كتابه الروضتين ان اسامة كان في « العسكر النوري بحلب فأخبر ان المراكب انكسرت بأهله في ساحل عكا ونهب الافرنج كل ما فيه

ولم يصلوا الى دمشق الا بأنفسهم وان متملك الافرنج أعطاهم خمس مئة دينار أصلحوا منها حالهم واكتروا ظهراً الى دمشق فقال اسامة :

الى الله أشكو فرقةً دَميتْ بها
جفوني وأذكت بالهموم ضميري

تمادتْ الى أن لاذت النفس بالمنى
وطارت بها الأشواق كل مَطير

فلما قضى الله اللقاء تعرضتْ
مساءةُ دهري في طريق سروري

استنجاد اسامة بناصرالدين :

كتابه الى ابن عمه :ـ

كتب الى الأمير ناصر تاج الدولة محمد بن أبي العساكر رسالة في صدرها قصيدة يستنجده بها فكاك ابن عمه نجم الدولة محمد بن مرشد من أساره وهو القدير على ذلك اما مبادلة مع بعض الاسرى من الفرسان أو يفديه بالمال ويملك الكثير منه ، قال [١] :

يا ناصر الدين ياابن الأكرمين ومن
يُغني ندا كفه عن وابل الديم

ومن حَوى السبق في فضل وفي ورعٍ
وفي عفاف وفي دين وفي كرم

أنتَ العييُّ ، على ما فيك من لَسَنٍ
عن (لا) وأفصح خلق الله في نعم

(١) ديوان اسامة ص : ١٤٩ ٠

تولي الجميل بلا مَنٍّ تُكدِّرُه
لا كدَّر اللهُ ما أولاك من نِعَمِ

هذا ابن عمك في أسر الفرنج ، له
حولٌ تجرَّمَ في الأغلال والظلم

يدعوك ، لا بل أنا الداعي نداك له
يا خيرَ مَنْ علِقته كفُّ معتصِم

وأنت أكرم من تثنيه عاطفة الـ
قُربى ويرجوه للجُلَّى ذوو الرحم

ومَنْ تكن أنت مولاهُ وناصره
فكيفَ تسطو عليه كفُّ مُهْتَضِم

لاتحوجني الى مَنِّ الرجال ، فما
حملُ الأيدي وإن اعسرتُ من شيمي

ولا تظنَّني أدعو سواك ، ولا
يفوه مجتديا الا اليك فمي

علامَ ارتشف الرَّنْق الاجاج وقد
روَّيْتَ كلَّ صدٍ من بحرك الشبم

أنا ابن عمك ، فاجعلني بفك أخي
من اسره لك عبداً ما مشت قدمي

فمِلك مثلي لا يغلُو بما بذَل المبتاع
فيه ولا يستام بالقيم

فلم يحركه الشعر ولا سعى في خلاص ابن عمه وادخر الله أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين فوهب اسامة فارساً من مقدمي

الداوية [1] يقال له : « المشطوب » قد بذل الافرنج فيه عشرة آلاف دينار فاستخلص به أخاه .

شكوى وذكرى :

في هذه الفترة وجد اسامة نفسه يتذكر أيامه في مصر والمحن التي مرت وكأنها شريط سينمائي وجد في مصر كل ما كان يصبو اليه من جاه وغنى ورفعة فاذا الأيام تسترد ما أعطته فاذا هو شريد في مهامه محفوفة بالمخاوف والمهالك واذا هو يفقد كل ما جمع من مال وكتب ومركز فيقول :

نلت في مصر ما يرتجي
الآمل : من رفعةٍ ومالٍ وجاه
فأستردتْ ما خولتني وما
أسرع نقص الامور عند التناهي
كنت فيها كأنني في منام
زال منه ما سرَّ عند انتباهي

كان شديد الحنين الى مصر بعد فراقها وكان يتمنى لو انيح له أن يلبي دعوة صديقه الملك الصالح التي كان يوجهها اليه المرة بعد المرة ، وكان يُطمنه وينفي عنه تهمة الاشتراك في قتل الظافر ولكن لا ينفي عنه مغبة التقصير وجريرة الدنو من الاجرب وهو السليم صحبة عباس وابنه نصر .

وحاشاكم ما خنتم العهد مثله
ولا لكم فيما جرى منه من ذنب
ومن مثل ما قد نالكم من دنوه
يحاذر ان تدنو الصحاح من الجرب

---

(١) الداوية طائفة من الفرسان الصليبيين .

وكان لتبدد ثروته ونهب بعضها في مصر بعد مقتل الظافر ومصادرة ما بقي مع أهله من قبل الافرنج الذين لا امان لهم ولا عهد ، أسىً وحزن ملأ نفسه غماً وصدره هماً ، وهو الآن على أبواب الستين وقد مضى زمن القوة والكسب وإن كان الملك العادل قد أنزله دارا واقطعه أرضا وأعلى منزلته فكتب الى صديقه طلائع المعروف بالملك الصالح :

أنا أشكو اليك دهراً لحىُ عو
دي واعراهُ فهـو يبسٌ سليبُ

وخطوباً رمى بهـا حادث الـد
هـر سـوادي وكلهن مصـيبُ

أذهبتْ تالدي وطـارفيَ الطـا
ري فضـاع الموروث والمكسـوب

فهو شـطران بين مصرٍ وبحـرٍ
ذا غـريق فيئٌ وذا منهـوب

وابائي أراه حمـلـه المـنَّ
ضـعيفاً وهو القـويُ الركـوب

ويرى كـل منـة لسـوى الصا
لحِ غُـلّاً في حمـلـه تعذيب

طلائع واسامة :

وطلائع يوالي هداياه وقصائده التي كانت تنضح عن ودٍّ مكين واعجاب متبادل كل منهما بالآخر وفي أكثرها كان يكرر دعوته للمجيء الى مصرَ وراح أخيراً ينشده ان يعمل نفوذه في اقناع نور الدين لاجتماع كلمة مصر والشـام وتوحيد الخطة لضرب الافرنج متساندين :

أنت فيهـــا الشجاع مالك في الـ   طعـن ولا في الضراب ضريبُ
واذا ما حرضـت فالشاعر المفلـ   ـق فيمـــا تقــوله والخطيب
لك رأي مذقط إن ضـعف الر   أي على حاملي الصـليب صليب
فانهض الآن مسـرعاً فبـــأ   مثالك ما زال يدرك المطـلوب
والقِ عنـــا رسالة عنـد نور   الـدين ما في القائهـــا ما يريب
قصـدنا ان يكون منـا ومنــكم   أجـل في مسـيرنا مضروب

ويلح على اسامة ان يسعى جاهداً لتحقيق هذه الخطة وتوحيد الحرب وان يحرض نور الدين على اجتماعهما ويرى ان اجتماعهما معاً على حرب العـدو كفيل بأن يلقى بهم في البحر يقول لاسامة في صدر رسالة :

فلو ان نور الدين يجعل   فعلنـا فيهم مثـــالا
ويسير الأجنـاد جهـراً   كـي ننازلهـم نزالا
ويفي لنـا ولأهل دولتـه بما قـد كان قالا
لرأيت الافـنج طـراً في معاقلهـــا اعتقـــالا
وتجهزوا للسير نحو الغرب أو قصدوا الشمالا

ويقول له :

قد كتبنا اليـــك فأوضح لنا الآن
بمــــاذا عن الكتـــاب تجيب
فلدينا من العســاكر ما ضـــا   ق بأدناهم الفضـاء الرحيب
فكتب اليه اسامة :

بالغ العبـــد في النيابة والتحر   يض وهو المُفَوَّهُ المقبــول
فرأى من عزيمـة الغزو مـــا   كادت له الأرض والجبال تميل
وأجابتــه بالصليل سـيوف   ظامئـاتٌ وبالصـهيل خيول

ورأى النقع راكـداً دون مجرى الشمس والأرض بالجيوش تسيل
كل أرض فيها من الاسد جيش   سائر فوقه من السـمر غيـل
فأبق للمسلمين كهفـاً وللافر   نج حتفاً ما أعقب الجيلَ جيل

فترة ركود في كنف الملك العادل :

في هذه الفترة التي عاشها اسامة في كنف الملك العادل نور الدين زنكي شارك في القتال وعادت اليه حياة الفروسية زمناً وخلد للراحة أيام الهدنة والسلم وان كانت الفتوة والفروسية ما زالت تتسعر في جسده يحن الى الحرب والى حياة الطعن والضرب والكر والفر أخذ يتشوق الى تلك الأيام التي اذا ثوب فيها داعي الوغى لباه وخف سريعاً لاجابته ينازل الأقران فيرديهم وينزل اسمه فيهم الرعب من قبل ضرب هامهم وها هو اليوم تخذله رجله على الركوب ولم تدع الليالي غير قوة احتماله على الشدائد يلقى الرزايا رابط القلب صابراً مجتمع اللب ما خانه عزمه ولا عزب عنه صبره ولا ارتاع للأحداث .

وكنت إن ثوَّب داعي الوغى
لبيتـه بالطعـن والضـرب

أشـق بالسيف دجى نقعهـا
شقَّ الدياجي مرسل الشهب

انازل الأقـران يُرديهـم
من قبـل ضربي هامهم رعبي

فلم تدع مني الليالي سوى
صـبري على اللأواء والخطب

القى الرزايا رابط الجـأش في
أحداثهـا مجتمـع اللـب

ما خانني عـزمي ولا غـيرني
صبري ولا ارتاع لهـا قلبي

يتجلد وينفي عن نفسه الوهن والاستسلام لليأس كي لا يراه الشامتون ضرعاً لنكبة عرقت اللحم وهل ابتزت منه الأيام سوى مال كان نهباً للندى مباحا للنوال ، إن رأى غيره المال ذخراً باقياً فإنه يرى ذخر الفتى ان يبقيَ حمداً وذكراً .

متـى رآني الشـامتون ضَرِعاً
لنكبـة تعرقني عَرْق المدى

هم يعلمـون انني اصلبُ من
صُمِّ الصفا ، فما عدا مما بدا

هل بزني الخطبُ سوى وفري الذي
كان مباحاً للنـوال والنـدا

إن جمعوا المال فأوعوْا أتلفت
يدي طريف ما حوت والتـلدا

همُمُ يرون المال ذخراً باقيـاً
وانمـا ذكرُ الفتى أن يحمـدا

ويخاطب الذين يحسدون منزلته وينفسون عليه دنوه من الحاكمين ورفعهم لمقامه ويتنافسون لاكتساب وداده ورفقته وقربه فيقول لهؤلاء :

إن يحسدوا في السلم منز لتي من العـزّ المنيف
فبمـا أُهـينُ النفس في يوم الوغى بين الصـفوف
فلطالمـا أقدمت إقـدا م الحتـوف على الحتـوف
بعزيمـة امضـى على حدّ السيوف من السيوف

في هذه الفترة من حياته لازم الملك العادل نور الدين محمود يشاركه في الغزو ويشير اليه بما فيه مصلحة المسلمين وهو السليم دواعي الصدر من هوى الطائفية صحيح العقيدة لا يبطن كراهيــة لمذهب ولا ورط نفسه بمثل هــذه الانحرافات التي أوهنت قوى المسلمين ورنقت وجه الاسلام الذي يهدي للتي هي أقوم ديدنه خدمة الاسلام والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين فكان دأبه في هــذه الفترة يحرض نور الدين على انجاد الملك الصالح ابن رزيك الذي كان يوالي ارسال قصائده يستعين به لحمل نور الدين على حشد قواته لحرب الصليبيين وتوحيد خطة الهجوم فان الحرب ينفرد بها كل أمير على انفراد لا تجدي نفعاً ولا فائدة من ورائها ما دامت متوزعة كــل أمير يدفع عن حمى أرضه وامارته فالمصلحة تقضي بتوحيد القوى وتنفيذ الخطة المشتركة بين الملك الصالح والملك العادل وكلاهما يملك أقوى الجيوش ولديهما من الامكانيــات في المال والرجال ما يمكنهما من القضاء على امارات الافرنج بذلك توالت في هذه الآونة من حيــاة اسامة قصائد طلائع واسامة بدوره يحرض نور الدين لعقد هذا الاتفاق واستجابة ملك مصر الفعلي ، يكتب اليه طلائع :

هــلا بذلتَ لنــا مقــا لاً حين لم تبذل فِعالا

فيجيبه مؤيد الدولة اسامة ، وهو لا يملك الا القول كما يقول طلائع له :

يا أشرف الوزراء اخــلا قاً وأكرمهــم فعــالا
وأعزهــم جــاراً وأمــ ـنعَهم حمىً واجلّ آلا
وأعمهــم جــوداً اذا جادوا وأكثــرهم نوالا
وحمى البــلاد بسيفه عن ان تــذال وان تــدالا
وآجــلَ بالافرنج في برٍ وفي بحر نكــالا
حتى لقــد سئموا لقــا ء جيوش مصر والقتالا
نبهت عبــداً طالمــا نبهتــه قــدراً وحــالا
وعتبتــه فأنلتــــــه شرفاً ومجداً لن ينالا

لكن ذاك العَتْبَ يُشعل في جوانحه اشتعالا
أسفاً لمجد مال عنه الى مساءته ومالا
فلو استطاع السعي وهو الفرض لم يرضَ المقالا
ومنها : واسلم لنا حتى نرى لك في بني الدنيا مثالا
واشدد يديك بود نور الدين والقَ به الرجالا
فبقيتما للمسلمين حمىً وللدنيا جمالا ،

مطولته على لسان نور الدين :

وكتب اليه الملك الصالح [1] قصيدة طويلة يفتخر فيها بوقائعه ومواقفه مع الافرنج ويسمى سراياه وأسماء مقدميها ويصف نجدته وتنكيله بالعدو مطلعها :

أبى الله الا ان يدين لنا الدهر
ويخدُمَنا في ملكنا العِزُّ والنصرُ

فلما قرأها نور الدين طلب من اسامة أن يجيب عليها بمعان واشارات أشار بها اليه ، وقد صادفت رغبة الملك العادل هوى في نفس اسامة اهتبلها ليجزي نور الدين بعض ما له عليه من أيادي وخاصة سعيه في فكاك أخيه من الأسر بعد ان خيَّبَ رجاءه ابن عمه فأنشأ مطولته التي هي ملحمة لحروب الملك العادل ، وفيها الكثير من المحتوى والوصف لفعاله قال : [2]

أبى الله الا أن يكون لنا الأمر
لتحيا بنا الدنيا ويَفتخر العصر

وتخدمنا الأيام فيما نرومه
وينقاد طوعاً في أزمَّتنا الدهر

---

(١) ترجم له العماد الكاتب في الخريدة قسم مصر ١٧٣ ـ ١٨٦

(٢) انظر القصيدة كاملة في ديوان اسامة ص : ٢٠١ ـ ٢٠٧

وتخضع أعناق الملوك لعزنا
ويرهبها منا على بعدنا الذكر
بحيث حللنا الأمن من كل حادث
وفي سائر الآفاق من بأسنا ذُعر
فأيْمَانُنَا في السلم سُحْبٌ مَواهب
وفي الحرب سُحب وبْلُهنَّ دمٌ همر
قضَت في بني الدنيا قضاء زمانها
فسرَّ بها شطرٌ وسيء بها شطر
وما في ملوك المسلمين مجاهد
سوانا فما يثنيه حَرٌ ولا قُرُّ

ومنها :

وثير حشايانا السروج وقُمْصُنَا الد
روعُ ومنصوب الخيام لنا قصر
ترى الأرض مثل الأفق ، وهي نجومه
وإن حسدتها عِزَّها الأنجم الزهر
وهمُ الملوكِ البيض والسمر كالدُمى
وهمتنا البيض الصوارم والسمر
صوارمنا حمرُ المضارب من دمٍ
قوائمها من جودنا نضرة خضر
نسير الى الأعداء والطير فوقنا
لها القوتُ من أعدائنا ولنا النصر

فبأس يذوب الصخر من حرّ ناره
ولطف له بالماء ينبجس الصخرُ

وجيش اذا لاقى العدو ظننتَهم
اسودَ الشرى عنَّت لها الأدْمْ والصقر

ترى كل شهم في الوغى مثل سهمه
نفوذا فما يثنيه خوفٌ ولا كثر

هم الأسدُ من بيض الصوارم والقنا
لهم في الوغى الناب الحديدة والظفر

يظنون ان الكفر عِصيان أمرنا فما عندهم يوماً لانعامنا كفر

لنا منهم اقدامُهُم وولاؤهم
ومنّا لهم اكرامهم والندى الغمرُ

بنا أُبّدَ الاسلام وازداد عزه
وذل لنا من بعد عزته الكفر

وتمضي المطولة على هذا النحو من السلامة وتساوق المعاني وتميز الالفاظ وجودة الفخر وصدقه وعمق الوصف للاحداث التي خاضها نور الدين محمود وتعداد المعارك وأسماء قادة الافرنج وهزائمهم ومن تركوا أسرى من فرسانهم وامرائهم ، وما غنم المسلمون من الغنائم والمكاسب وما أحدثته هذه الوقائع المتلاحقة من الرعب في صدور الصليبيين •

ومنها :

وما كل ملك قادر ذو مهابة
ولا كل ساعٍ يَستَتِبُ له الأمر

رددنا على أهل الشآم رباعهم
وأملاكهم فأنزاح عنهم بها الفقر

فنالهم من عَوْدِها الخيرُ والغنى
كما نالنا من ردها الأجر والشكر

وأصبحت الآفاق من عدلنا حمًى
فكُدْرُ قطاها لا يروعها صقر

فكيف تسامينا الملوك الى العلا
وعزمهمُ سرٌ ووقعاتنا جهرُ

ويختمها :

فقل لملوك الأرض : ما الفخرُ في الذي
تعدونه من فعلكم بل كذا الفخر

الزلزلة العظمى :

اجتاحت بلاد الشام زلازل بدأت تغدو وتروح على المدن الشامية صباحاً أو مساءً ضحوة أو بعد هدأة من الليل من رجب وانتهت في المحرم سنة ٥٥٢ واسامة يومئذٍ في دمشق وقد سلخ من عمره أربعة وستين عاماً ابتدأت تروع الناس وتدمر مدنهم من العريش مارة بالساحل والداخل فدمرت عدداً كبيراً من مدن سوريا خربت جزءاً غير قليل من دمشق وكان التخريب والتدمير في حلب أكثر فلما وصلت حماة وحمص والمعرة كان تدميرها شاملاً وكان أشدها عنفاً ما حل في شيزر وقلعتها فقضت على أغلب سكانها ولم ينج من آل منقذ أحد الأسرة العربية المسلمة التي لعبت دوراً مشرفاً في الحفاظ على اعالي سوريا وَقَفَتْ صامدةً في وجه الاعصار الصليبي ترده عن نفسها وعن البلاد الداخلية كان ذلك في ضحوة يوم من سنة ٥٥٢ من الشهر الحرام وقد ازين الحصن لحفل (اعذار) ابن الأمير ناصر الدين حاكم شيزر واجتمع آل منقذ كلهم وقد ازين القصر وبينما الافراح تقام والقوم في رقص وزمر والطبول تقرع والمزاهر تجلجل والنساء يزغردن والسرور بالغ بهم غايته واذا القارعة تحل بناديهم واذا

الصاخة تصك مسامعهم فيتسابقون الى باب الحصن فترمح فرس الامير أحدهم فينسد الباب وما هي الا ثوان معدودات او كلمح البصر أو اسرع فاذا بهم قد غدوا اثراً بعد عين واذا قصورهم تمسَى قبورهم فيهلك أهل اسامة ولم ينج منهم غير عجوز بقيت لتحدث الناس خبر الفجيعة أو بقيت للشفاء من بعد أهلها .

هول الزلزلة :

ذكر أبو شامة في كتابه الروضتين وهو يتحدث عن هول هذه الزلزال ومدى تخريبه قال : « بلغني من كثرة الهلكى ان معلما بحماة ذكر له انه فارق مكتبه لشأن من شؤونه فجاءت الزلزلة فأخربت الدار وسقطت على الصبيان فقضت على جميعهم وانقضى النهار ولم يأت أحد من أهليهم يسأل عن ولده ، فتأمل .

وروى أبو شامة [1] قال : « قرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ في الزلازل التي اهلكت كثيراً من أهل الشام » قال : وهذه الأبيات قبل أن تحل بأهله وعشيرته الكارثة .

نمنا عن الموت والمعاد وأصبحـ ــنا نظن اليقين أحلاما
فحركتا هذي الزلازل أن تيقظوا لمْ ينم من ناما

وقال :

أيها الغافلون عن سكرة الموت
واذ لا يسوغ في الحلق ريق

كم الى كم هذا التشاغل والـ
غفلة ، حار الساري وضل الطريق

انما هزت الزلازل هذي الا
رض بالغافلين كي يستفيقوا

---

(١) الروضتين حـ ٢ : ٢٦٥ .

فلما وصلت الأنباء المفجعة بهلاك أهله صعق لها اسامة وانهدت قواه وبكى أهله أحرَّ بكاء وتفجع على مصابهم أشدّ ما يتفجع منكوب فرثاهم بل بكاهم بشعر كثير مثبت في ديوانه من ذلك الشعر القصيدة النونية التي وصف بها أثر الكارثة في نفسه قال : (١)

حمائمَ الأيك هيَجْتُنَّ أشجانا
فليبك أصدقنا بثاً وأشجانا

ومنها :

ما وجدُ صادحة في كل شارقة
تُرَجّعُ النوحَ في الأفنان ألحانا
كما وجدتُ على قومي تَخوّنَهمْ
ريب المنون ودهرٌ طال ماخانا
اذا نهى الصبرُ دمعي عندَ ذكرهم
قال الأسى : فِضْ وجُدْ سَحاً وتَهْتانا
قالوا تأسّى ، وما قالوا بمن ، واذا
أفردت بالرزء ما انفكّ أسوانا
ما حدثتني بالسلوان بعدَهمُ
نفسي ولا حان سلواني ولا آنا
ما استدرجَ الموت قومي في هلاكهمُ
ولا تخرمهم مثنىً ووحدانا

(١) هدمت الزلازل القلاع والاسوار فانكشفت البلاد أمام الافرنج فقام نور الدين زنكي يعيد الاسوار ويقيم القلاع ووضع يده على حصن شيزر .

فكنت أصبرُ عنهم صبرَ محتسبٍ
وأحملُ الخطب فيهم عزّ أوهانا

واقتدي بالورى قلبي فكم فقدوا
أخاً وكم فارقوا أهلاً وجيرانا

لكن سغبَ (١) المنايا وسط جمعهمُ
رَغَا ، فخروا على الأذقان اذعانا

وفَاجَأتْهُمْ من الأيام قارعة
سقتهم بكؤوس الموت ذَيْفانا (٢)

ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا
هل ما ترى تارك للعين انسانا

أعزز عليّ بهم من معشر صُبُرٍ
« عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا (٣) »

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم
قلباً اجشمه صبراً وسلوانا

فلو رأوني لقالوا : مات أسعدنا
وعاش للهمّ والأحزان أشقانا

لم يترك الموت منهم من يُخبرني
عنهم فيُوضح ما لاقوهُ تبيانا

بادوا جميعاً وما شادوا فوا عجباً
للخطب أهلك عُمّاراً وعُمرانا

---

(١) السغب : ولد الناقة ورغا أعول .
(٢) ذيفانا : سماً قاتلا .
(٣) اللوثة : الضعف .

هذي قُصُورهُم أمســت قبورهم
كذاك كانوا بها من قبـل سكانا

ويحَ الزلازل أفنتْ معشري فاذا
ذكرتهـم خلتني في القوم سكرانا

بني ابي إن تُبيدوا أنْ عدا زمنٌ
عليكم دون هـذا الخلق عُدوانا

فلن يُبيدَ جَوى قلبي ولا كمدي
عليكم أو يُبيـد الدهر ثَهْــلانا

أفسدتمُ عمريَ الباقي عليَّ فمـا
أنفكُ فيـه كئيب القلب ولهـانا

أُخرِّتُ منكم ، وما يصفو لمنفردٍ
عيش ولو نال من رضوان رضوانا

فليتني معهـــم ، أو ليت انهـم
بقَوْا وما بيننـــا باقٍ كما كانا

لقيتُ منهـم تباريح العقوق كمـا
لقيت من بعـــدهم هما وأحزانا

لولا شماتُ الأعادي عند ذكرهم
لغـــادرت أدمعي في الأرض غدرانا

أرُدُ فيض دموعي في مســالكها
فتســتحيل ميـــاه الدمع نيرانا

لا التقي الدهر من بعــد الزلازل ما
بقيت الا كســير القلب حــيرانا

أخنت على معشري الأدنين فأصطلمت [1]
منهم كهـــولاً وشباناً وولـدانا

كم رام ما أدركتـــه منهم ملكٌ
فعـــاد باليأس ممـا رام لهفـانا

لم يحمهم حصنهم منها ، ولا رَهَبَتْ
بأســـاً تنـاذره الأقران أزمـانا

أتاهم قـدرٌ لم ينجهـم حـذرٌ
منـه ، وهل حَذَرٌ مُنْجٍ لمن حانا

إن اقفرت شيزر منهم فهم جعلوا
مَنِيعَ أســوارها بيضاً وخرصـانا

همْ حموها فـلا شاهدتهـا وهم
بهـا لشاهدت أسـاداً وخفانا [2]

كانوا لمن خاف ظلماً أو سُطا ملك
كهفـــاً وللجاني المطـلوب جيرانا

عَلَوْا بمجدهمُ سيف بن ذي يزنٍ
كما علت شيزرٌ في العزِّ غُمدَانا

كانوا مـلاذاً لأيتـــام وأرمـلة
وبائس فاقـــدٍ أهلاً وأوطـــانا

اذا أتيتهـم الْفَلَيْتَ شـطرهم
مُســـترفدين وزواراً وضـــيفانا

---

(١) اصطلمت : استأصلت ٠

(٢) خفان : مأسدة غرب الكوفة ٠

تراهم في الوغى أُسْداً ، ويوم ندى
غيثاً هتوناً ، وفي الظلمـاء ، رهبانا [1]

حاولت كتمان بثي بعد فقدهم
فلم يطق قلبي المحزون كتمانا

لعلَّ من يعرف الأمر الذي بَعُدت
بعد التصاقب من جَراه دارانا

يقول بالظن اذ لم يدرِ ما خلفي
ولا محافظتي من حان أو بانا

اسامةٌ لم يَسُؤه فقد معشره
كم أوغروا صدره غيظاً وأضغانا

وما درى ان في قلبي لفقدهم
ناراً تلظى وفي الأجفان طوفانا

بنو أبي وبنو عمي ، دمي دمهم
وإن أروني مناواة وشنَآنا

كانوا جناحي فحصته [2] الخطوب
واخواني فلم تبقِ لي الأيام اخوانا

كانوا سيوفي اذا نازلت حادثةً
وجُنَّتي حين ألقى الخطب عُرْيانا

بهم أصول على الأمرِ المهول اذا
عرا والقى عَبُوس الدهر جذلانا

---

(١) كناية عن التعبد والصلاة وقراءة القرآن وقد عرف آل منقذ بتدينهم وسلامة عقيدتهم واسامة برغم خدمته للفاطميين عشر سنين لم يتأثر بالعقيدة الفاطمية ٠

(٢) الحص : حلق الشعر ٠

فكيفَ بالصَبْرِ لي عنهم وقد نظموا
دمعي على فقدهم دُرّاً ومَرْجانا

يُطيّبُ النفسَ عنهم أنهم رحلوا
وخلفــوني على الآثـار عجــلانا

سقى ثرىً أودعوه رحمــةً ملأت
مثــوى قبورهم رَوحـا وريحــانا

وألبس الله هاتيــك العظام وإن
بلين تحت الثــرى عفواً وغفرانا

اسامة يحاول ارضاء بني عمه :

قد يتساءل سائل عما اذا كان اسامة قــد حاول اصلاح ما بينه وبين بني عمه ؟ وهل بذل جهداً في سبيل مرضاتهم ولا سيما الحاكم الجديد ناصر الدين ؟ التأريخ يسكت على جواب هذا السؤال وكتاب سيرته لم يتعرضوا للموضـوع لا بقليل ولا بكثير ، ولكن شعر اسامة يجيبنا ، وفيه دلالة واضحة على انه فعل وبذل ما استطاع بذله فلم تثمر مساعيه واستمرت الجفوة على تلك الحال التي فارق بها شيزر ، يدلنا على ذلك قوله وفيه صراحة انه ملَّ عتابهم ويئس من رضاهم فما أجدى عتابه لهم ولا قدر أن يكسب رضاهم :

مللت عتــابهم ويئســت منهـم
فمــا أرجوهــم فيمن رجــوت

اذا أدمــتْ قوارصــهم فؤادي
كظمــتُ على اذاهـم وانطـويت

ورحت عليهـم طلـق المحيــا
كــأني ما سـمعت ولا رأيـت

تجنوْا لي ذنوباً ما جنتهـــا
يـداي ولا أمـــرت ولا نهيت
ولا والله مـا اضـــمرت غـدراً
كمـــا قـد اظهـروه ولا نويت

وبرغم ذلك الجفاء الذي لاقوا به اسامة حين عاد الى قلعة آبائه يدفع عنها زحف الروم وبرغم بلائه وحسن جهـاده فانه لم يلق الا الجفـاء والرغبة في رحيله ومع ذلك ما نوى لهم شراً ولا أضمر غـدراً وحين وقع أخوه بالأسر انتهزها فرصة لتكون واسطة للصلح فكتب الى ابن عمه ذلك الكتاب الرقيق الذي يهتز له الغريب قبل القريب :

يدعوك ، لا بل أنا الداعي بذاك لـــه
يا خير من علقته كف معتصـم

ما أجمل موقع هذا النفي والاضراب (لا بل أنا الداعي) اسامة الداعي ذلك الفارس الذي مضى له تأريخ حافل بالمكرمات وخدمة لا تجحد هو الذي يدعوك لفك أسيره ومن أسيره ابن عمك وفارس من فرسان بني منقذ :

أنا ابن عمـــك فأجعلني بفك أخي
من أسره لك عبداً ما مشت قدمي ،
لا تحوجني الى منّ الرجال فمـــا
حمل الأيادي وإن أعسرت من شيمي

فملك مثلي لا يغلو بما بذل المبتاع ، بعد كل هذه الدعوة الضارعة من اسامة وهو في محنتـــه ما حركت دعوته قلب ابن العم وكان نداء الرحم وصرخة الدم حقيقين أن تثيرا حمية ناصر الدين لتلبية نداء ابن عمه ومن المنادي ؟ اسامة

كبير بني منقذ وفارسهم وهو لو استنجد بفرسان الافرنج لخفوا لنجدته ها هو نور الدين يفديه بأسير دفع به الافرنج عشرة آلاف دينار اكراماً لاسامة الذي لم يشأ أن يحتمل احسانا لغير ابن عمه فحمل الأيادي لغيرهم وإن أعسر ليس من شيمته ، ومع كل ما قوبل به من الجفوة والنكران لم نجد اسامة قد حقد على بني عمومته :

بنو أبي ، وبنو عمي ، دمي دمهم
وإن أروني مناواة وشنآنا
كانوا سيوفي اذا نازلت حادثة
وجُنَّتي حين ألقى الخطب عريانا

حزن عليهم حزناً فارق معه لذائذ العيش ورثاهم بشعر دل على حبه لهم وظل عمره يندبهم ويبكي شقوته بعدهم :

ذهبوا ذهاب الأمس ما من مُخْبِرٍ
عنهم وزالوا كالظلال الزائل
وبقيتُ بعدهم حليف كآبة
مستورةٍ بتجمل وتحامل
سعدوا براحتهم وها أنا بعدهم
في شقوة تُضني وهَمٍّ داخل

ومات له ولده أبو بكر وهو في عشر الثمانين فراح يندب عشيرته ويتوجع لمصيرهم ويأسى على حاله بعد فراقهم ويألم لحياته الشقية بعدهم :

رمتنيَ في عشر الثمانين نكبة
من الثكل يؤدي حملها مَنْ له عشر

على حين أفنى الدهر قومي ولم تزل
لهم ذروة العلياء والعدد الدثر

فلم يبق الا ذكرهم وتأسفي
عليهم ولن يبقي التأسف والذكر

وأصبحت لا آل يلبون دعوتي
ولا وطن آوي اليه ولا وفر

اسامة مؤمن بالقدر :

تربية اسامة تربية اسلامية سليمة صريحة لا يتاقي ولا ينافق ربي على الصراحة والفارس بطبيعة تربيته مؤمن بالله وأي شيء يدعو الى الايمان أكثر من الحرب والقتال ، فالأحداث تزيد الفارس ايماناً بالقدر ومن يقرأ كتابه الاعتبار يجد هذه الصفة أو هذه التربية جلية في كتابه يسرد أحداثاً يراها بعينه ويرى أثر القدر بارزاً على نتائجها رجل يقتل أسداً عظيماً يفزع منه فتقتله عقرب بقدر انملة من أنامل يده ورجل يطير نصف وجهه فيجبر ويطيب وهذا آخر كل الدلائل تدل على موته فيطيب ويقاتل وهذا آخر تدل ملامحه انه قد جرح جرحاً لم ينفذ السهم الا قليلاً في جسمه فيموت وآخر تنظمه قناة فتنفذ من فخذ فيأخذ السنان بيده ويستمر على القتال ، وعتّاب البطل تدخل في يده ابرة فيموت من أثرها وهذا معلم القرية يخرج لشأن من شؤونه فتأتي الزلزلة تقتل أطفال المكتب جميعهم ويسلم هو ، انه القدر يقول بعد التجربة الطويلة والاحداث التي مرت به وعاناها بنفسه « ان ركوب الأخطار لا تنقص مدة الأجل المكتوب ولا يظن ظان ان الموت يقدمه ركوب الخطر ولا يؤخره شدة الحذر ففي بقائي أوضح معتبر ، فكم لقيت الأهوال وتقحمت المخاوف والأخطار ولاقيت الفرسان وقتلت الاسود وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام وأنا من الأجل في حصن حصين » :

انظر الى الأيام كيف تسوقنا
قسراً الى الاقرار بالاقدار
ما أوقد ابنُ طليبٍ قطُّ بداره
ناراً وكان خرابها بالنار (١)

ويقول :

فوّضَ الأمر راضياً جفَّ بالكائن القلم
ليس في الرزق حِيْلَةٌ انما الرزق بالقِسَم
دل رزق الضعيف وهو كلحم على وضم
وافتقار القوي تر هبه الاسد في الاجم
ان للخلق خالقاً لا مردَّ لما حكم

ويقول :

يا ربِّ : حسنُ رجائي فيك حسنَّ لي
تضييع وقتي في لهوٍ وفي لعب
وأنت قلت لمن أضحى على ثقةٍ
بحسن عفوك اني عند ظنك بي ،

وقال :

أما رأوا تقلب الدنيا بنا
وفتكها بمن اليها أخلدا
كم نسفت أيدي الخطوب جبلاً
وصَيَّرتْ لجة بحر ثمَدا

---

(١) كتابه عن بخله .

وكـم أعادت ذا ثراء معـــدماً
وذا قليـــــل وعـديد مفـــردا

عَلِمْتُ ما لم يعلمـوا ونظرت
عينـــاي دهري مصـــدراً وموردا

فمـــا رأيت غير ظـــل زائل
كلٌ يَمـدُّ نحوه جهـلاً يدا ،

وقال :

تبارك اسمُك كم من آية شَهِدَت
بانك الواحـــد المستعليُ الصمدُ
ما يَصبغ الأسودَ الغربيبَ غيرُك مُبْيَضاً ولا يتعاطَى صبغَه أحدُ

ويرى اسامة ان لكل أمر نهاية وان دوام الحال من المحال لا سرور يدوم ولا حزن يبقى والحياة تجري وفق ما قدر لها ويتعب نفسه من أراد مغالبة القدر

خفض عليـــك فللأمور نهـــايةٌ
والى النهـــاية كلٌ شيء صـائر

ويقول :

ان للخلق خالقـاً لا مفرَّ لمـا حكم

ويقول :

لمـا رأيت صروف هذا الدهر تلعب بالبرايا
يعلو بها هذا ويهبط ذا وقصرهم المنايا
ورأيتـه مســترجعاً نزر المواهب والعطـايا

لا نعمـــة فيـه تدوم ولا تدوم به البلايا
لم اغتبط فيــه بفائدة ولم أخشَ الرزايا

اسامة يتخطى السبعين :

تثقل رجله وتفتر همته وتنكسر شرته وتهمد قوته وتختلف نظرته للحياة ما كان يبهجه ما عاد يغتبط به وما كان يلـذه أصبح لا يلذه ، نزع الى الزهد من معاشرة الحكام ورغب الى التخفف من اعباء عشرة الملوك فالقرب منهم غير مأمون هكذا صار يرى عواقب عشرتهم وبالاً على صاحبها فراح ينادي بعـد تجارب قاسية بالبعد عن أبوابهم وايثار الراحة والهدوء بالنأي من سلطانهم فالقرب منهم وإن ملأت هباتهم يدك فهي غير مأمونة العواقب وان أبواب السلطان كالبحر راكبه هو في خوف وحذر :

لا تقربنْ باب سـلطان وإن ملأت
هبـاته غير مأمون بهـا الطرقا
فان أبوابـه كالبحـر راكبـه
مروع القلب يخشى دهره الفرقا

ويقول :

أرضَ الخمـول تعش في نجـوة
مما تخاف ومن معاندة العـدى

ويقول :

« وهجرت مغشى أبوابهم وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ورددت عليهم ما خولوني من نعمتهم لعلمي ان ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم ، وإن سـوق الشيخ الكبـير لا ينفق على الأمير ولزمت داري وجعلت الخمول شعاري » حين أصبح في السبعين قال :

لم تتـرك السبـعينَ في اقبالهـا
مني سـوى ما لا عليـه مُعوَّل

حتى اذا ما عامهـــا عني انقضى
ووطئت في العـــام الذي يُستقبل

حطمت قواي وأوهنتْ من نهضتي
وكـذا بمن طلب السـلامة تفعـل

كم قد شـهدت من الحروب فليتني
في بعضها من قبـل نكسي أقتلُ

والقتـل أحسن بالفتى من قبل أنْ
يبلى ، ويفنيـه الزمان وأجمـــل

وأبيك ما أحجمت عن خوض الردى
في الحرب يشهد لي بذاك المُنْصُلُ

اسامة في « حصن كيفا » :

اختار هذا الحصن وبجنبه مدينة كيفا لموقعـه الحصين ومناظره الجميـلة يقع على دجلة بالقسم الشمالي من ماردين وعلى مسافة من نصيبين حكمه زمناً بنو منقذ وضم الى أملاك نور الدين محمود عرفه في صـدر شبابه يوم كان يقود الكتائب مع عماد الدين زنكي فيه مكتبات وكتب قيمة ، في عزلة عن ذلك الصخب والمجتمع المضطرب فيمم شطره اليـه وأخلد الى الراحة فيـه والعبادة والتأليف ينهل من كتبها :

ناء عن الأهلين والأوطا ن والاتــراب مـــاتوا
ولبئس عيش المــرء فا رقه الأحبـــة واللدات
فالام أشــقى بالبقـــا ء وكم تعذبني الحيـاة

في حصن كيفا دب اليه الضعف وارتعشت منه اليـــد ومشت به السنون هاهي خمس وسبعون والثمانون ولم يضعف نظره ولا خبا ذهنه ولا خانته ذاكرته

نعم ثقلت رجله وثقل القلم في يده فخطه كخط مرتعش الكفين وراح يعجب من عجزها من حملها القلم وكانت لا تعجز من حمل القنا يحطمها في لبة الاسد :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

اذا كتبتُ فخطي جـد مضطرب
كخط مرتعش الكفـين مرتعـــد

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلماً
من بعـد حطم القنا في لبة الأسد

وإن مشيت وفي كفي العصا تفلت
رجلي كأني اخوض الوحل في الجلد

فقـــل لمن يتمنىٰ طـولَ مدتـه
هـذي عواقب طول العمر والمُـدد

فعكف في « كيفا » على البحث والدرس والتأليف وفي مدى احدى عشر سنة من ٥٦٠ هـ ـ ٥٧١ كتب كتباً قيمة منها أتمها في كيفا ومنها أتمها أو بدأها في دمشق عند عودته اليها برغبة من صلاح الدين الذي كان به حفيا .

الف سبعة عشر كتاباً وجمع شعره في جزئين رتبه بنفسه حسب الموضوعات ولم يلتزم به الوحدة الفنية للقصيدة وانما وزع أجزاءها وفق خطته على أبواب الموضوعات وكل موضوع رتبه على الحروف الهجائية ، خلف مجموعة مفيدة من المؤلفات القيمة خدم فيها الثقافة العامة في العربية والأدب والتاريخ والاجتماع وسجل أحداث زمانه وحروبه وتجاربه في كتابه (الاعتبار) آخر أيامه ، وصل الينا من كتبه بعضها وضاع أكثرها وربما كانت في خزانات الشرق أو الغرب والأيام قد تكشف عنها كما كشفت عن أخوات لها ما كانت معروفة قبل سنين خلت فعرف ديوانه وطبع وعرف اللباب والمنازل والديار ، وكتاب البديع والاعتبار

وكتاب العصا - وسعي المعنيين بالمخطوطات كفيل باخراج المخزون في المكتبات الخاصة أو العامة في الشرق والغرب .

عودة اسامة الى دمشق :

هذه العزلة التي اختارها الامير اسامة لم تدم له قطعها عليه صلاح الدين الايوبي الذي يرى فيه بطل الاسلام والقائد المنقذ فاستقبله استقبالاً حسناً وأنزله منزلاً رحباً واقطعه اقطاعا يدر عليه المال واعاد اليه أرضا كانت له في المعرة ، ولنستمع اليه يحدثنا عن هذه العودة قال :

(أعجزني وهن السنين عن خدمة السلاطين فهجرت مغشى أبوابهم وقطعت أسبابي من أسبابهم واستقلت من خدمتهم ورددت عليهم ما خولوني من نعمهم لعلمي ان ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم ، وان سوق الشيخ الكبير لا ينفق لدى الأمير ، ولزمت داري وجعلت الخمول شعاري ، ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة ومفارقة الاوطان والتربة الى أن تسكن نفارتها عن مرارتها وصبرت صبر الاسد على قيده والظمآن ذي الغلة عن ورده ، فناداني اليه مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين جامع كلمة الاسلام ، قامع عبدة الصلبان رافع علم العدل والاحسان محيي دولة امير المؤمنين أبي المظفر يوسف بن أيوب - جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه وأيدهم بماضي سيوفه وآرائه وأضفى عليهم وارف ظله كما أصفى لهم من الاكدار موارد فضله وانفذ في البسيطة عالي أوامره ونواهيه وحكّم صوارمه في أعناق أعاديه ، برحمة نقبت عني في البلاد ، ودوني الحزن والسهل ، بمضيعةٍ من الارض لا مال لدي ولا أهل ، فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه الجميل وحملني الى بابه العالي بأنعامه العامر الجزيل ، وجبرَ ما هاضه الزمان مني ونفق على كرمه ما كسد عليَّ من سواه من علوّ ٍسني ، فغمرني بغرائب الغرائب وانهبني من أنعامه أهنى المواهب حتى رعى لي بفائض الكرم ما أسلفت سواه من الخدم ، فهو يعتدُّ لي ويرعاه رعاية من كأنه شاهدَهُ ، فعطاياه تطرقني وأنا راقد وتسري

الي وأنا محتسب قاعد ، فأنا من انعامه كل يوم في مزيد واكرام كتكرمة الأهل وأنا أقل العبيد ، امنني جميل رأيه حادث الحادثات وأخلف لي أنعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المجحفات وأفاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته ما يعجز الاعناق حمل أيسر مِنَّته ، ولم يُبق لي وجودُه أملاً أرجو نيله ، أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله والرحمة التي تدارك بها العباد ، واحيا ببركتها البلاد ، والسلطان الذي أحيا سنة الخلفاء الراشدين ، وأقام عمود الدولة والدين ، والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين ماؤه والجواد الذي لا ينقطع مع تتابع الوافدين عطاؤه ، فلا زالت الامة من سيوفه في حمى منيع ، ومن أنعامه في ربيع مريع ومن عدله في أنوار تكشف عنهم ظلم الظلم وتكف بسطة يد المعتدي الغاشم ، ومن دولته القاهرة في ظل وارفٍ وفي سعود متتابع آنفٌ في أثر سالف » أدنى السلطان مجلسه وآنسه وجالسه وذاكره واستمع له واستشاره في أمور الحرب والسلم فاذا مضى الى الغزو كاتبه وأخبره بوقائعه وكان صلاح الدين مشغوفاً بقراءة ديوانه وتأمل أفكاره واستحسان قصائده وديوانه لا يفارقه في حله وترحاله ، لما يرى في شعره من الوضوح وفي معانيه من السمو وفي نسجه من البلاغة ، وكان الامير مرهف بن اسامة من فرسان صلاح الدين وأصحابه يلازمه أيام السلم والحرب .

يلازمه أيام السلم والحرب :

يقول العماد الكاتب : « حتى أعاده الله الى دمشق « يعني اسامة » أيام الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب سنة سبعين (٥٧٠) ولم يزل مشغوفاً بذكره مستهتراً باشاعة نظمه ونثره والامير العضد مرهف ولد الامير مؤيد الدولة جليسه ونديمه وأنيسه فاستدعاه الى دمشق وهو شيخ قد جاوز الثمانين » عاش في ظل السلطان مكرماً يملي كتبه وينظم ويؤلف ولكن التسعين - وبُلِّغتَها - قد أثقلت حياته فسئم طول العمر وغدا يضجر من الدعاء له :

واذا دعوت بطول عمر لامرئ
فأعلم بأنك قد دعوت عليه

هذه أيام الهرم تمضى والسنون تتوالى واسامة يملي مذكراته أو قل ذكرياته ، ويؤلف كتاب اللباب واعتقد انه بدأ به أيام سكناه « كيفا » لأن الكتاب يحتاج الى جمع وتقليب للدواوين ونقل يعجز عنه من كان في عمر اسامة .

عاش أيامه الأخيرة قليا للحياة كارها لعمره الطويل والهرم مرض والموت رحمة الله العظمى كما عبر عنه شاعرنا الرصافي حتى اذا كان الثالث والعشرون من رمضان سنة ٥٨٤ (تشرين الاول سنة ١١٨٨) توفي اسامة بعد ان عمر ستة وتسعين عاما ودفن في سفح جبل قاسيون بدمشق في العام الثاني للفتح الاعظم والانتصار الاعم انتصار صلاح الدين ودخوله بيت المقدس منتصراً واسترجاعه فلسطين من يد الصليبيين وما كان يتم لصلاح الدين التغلب على الافرنج لو لم يوحد المنطقة كلها ويقضي على اولئك الامراء المتناحرين ، لو لم يوحد قوى مصر وسوريا ويسخر غنى مصر في سبيل تنفيذ خططه الرامية الى طرد الغزاة من بلاد المسلمين ، بدأ أولاً بتأديب الامراء والقضاء عليهم الواحد بعد الآخر وضم جيوشهم الى جيشه وبعث فيهم روح التضحية والتطوع في سبيل اعلاء كلمة الاسلام بذلك انتصر في حروبه حتى تكلل جهاده بفتح المقدس ، كان الامراء الحاكمون في الشام والجزيرة والموصل وديار بكر يكيد بعضهم للبعض الآخر وربما استعان أحدهم بالافرنج على جيرانه من أجل أطماع دنيئة هي شهوة الحكم من جهة واختفاء صوت الضمير في أنفسهم من جهة ثانية يرضى أحدهم أن يدفع الجزية للامير الصليبي لقاء معاونته على غزو جاره هذا حال اولئك الأمراء بعد موت نور الدين فبدأ صلاح الدين بهم والى أن جمع شملهم ووحد البلاد تحت قيادته الحكيمة عاد الى منازلة الصليبيين والجيوش تتدفق عليه من أربيل الى أسوان شأن امراء الأمس شأن عملاء الاستعمار اليوم وهل أضعنا اولى القبلتين وخسرنا معركة فلسطين الا بعامل انقسامنا الى دويلات وامارات متناحرة وحكام عملاء لا يؤمنون بحقهم ولا يخلصون لامتهم ، ما لم يتخلص الوطن العربي من خياناتهم وما لم يتوحدوا قولاً وفعلا فلن نستطيع التغلب على الاستعمار وربيبته اسرائيل .

يحمد اسامة ربه على عمره الطويل لانه رأى صلاح الدين :

حمدت على طول عمري المشيبا
وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا

لأني حُيِّيتُ الى ان لقيت
بعد العدو صديقاً حبيبا

أقوال العلماء :

أثنى العلماء وكتاب السير القدماء والمحدثون على اسامة وأجمعت كلمتهم على انه فارس ، كريم ، شاعر واسع الاطلاع ذو أدب جم وخلق سمح وترفع عن الخلافات المذهبية والتحزبات الطائفية ، لا يرضى لنفسه أن تنزل الى مستوى خصومات العامة ، ترفع عن الهجاء فلم تجد في ديوانه هجاء أحد أو غمز انسان حفاظا على قدره أن يسف الى درك الخصومات ، بعيداً عن التيه والتعالي على غيره ، حلو المعشر يحبه من يخالطه ويشتاقه من يسمع أخباره ويعجب به من يقرأ ديوانه .

قال العماد الكاتب :

اسامة كأسمه في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه امارة الامارة ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، ونشر له علم العلم ، ورقي سلمَ السلم ، ولزم طريقه السلامة ، وتنكب سبل الملامة نَدي َ الندِّي بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف ، كنت أتمنى أبداً لقياه واشيم على البعد حياه حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين (١) وسألته عن مولده فقال يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وقال الذهبي في تأريخ الاسلام : اسامة « أحد أبطال الاسلام ورئيس الشعراء الأعلام » .

---

(١) ٥٧١ يوم قفل من حصن كيفا الى دمشق وعاش فيها أيامه الاخيرة بكنف الناصر صلاح الدين .

وقال ياقوت الحموي في معجم الأدباء « وفي بني منقذ امراء شعراء لكن اسامة أشعرهم » .

وقال العماد الاصفهاني : هـذا مؤيد الدولة من الامراء الفضلاء والكرماء الكبراء والسادة القادة العظماء وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الاسلام .

وقال الحافظ ابن عساكر :

« اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شعره ، وقال لي أبو عبدالله محمد بن الحسن الملحي : ان الامير مؤيد الدولة اسامة شاعر أهل الدهر مالك عنان النظم والنثر متصرف في معانيـه لاحق بطبقة أبيـه ليس يستقصى وصفه بمعان ، ولا يعبر عنهـا بلسان فقصائده الطوال لا يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد ، ولا ينكر على منشدها نسبتها الى لبيد ، وهي على طرف لسانه ، يحسن بيانه ، غير محتفل بطولها ولا يتعثر لفظه في شيء من فضولها ، واما المقطعات فأحلى من الشهد وألذ من النوم بعد طول السهد في كل معنى غريب وشرح عجيب ، وقد سمع منه الكبراء والاجلاء منهم الحافظ أبو سعيد السمعاني ٥٦٦ ـ ٥٧١ والحافظ ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن « ٤٩٩ الى ٥٧١ صاحب تأريخ دمشق . والعماد[1] الكاتب الاصبهاني القرشي كاتب الانشاء لدى الناصر صلاح الدين .

والحافظ المقدسي (٥١١ ـ ٦٠٠) .

والأمير مرهف بن اسامة وله شعر وأدب قال عنه ياقوت انه رآه في مصر وباعه من كتبه ورأى أوسع مكتبة في بيته .

ومنهم الناصر صلاح الدين الذي كان مشغوفاً بذكره مشتهراً باشاعة نظمه ونثره فاستدعاه الى دمشق وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

---

(١) محمد بن حامد الاصفهاني القرشي (٥١٩ ـ ٥٩٧) .

وقال العماد الاصفهاني :

ولم تزل بنو منقذ ملاك شيزر ، وقد جمعوا السيادة والمفخر ، وكلهم من الاجواد الامجاد ، وما فيهم الا ذو فضل وبذل ، واحسان وعدل ، وما منهم الا من له نظم مطبوع ، وشعر مصنوع ، و مَنْ له قصيدة وله مقطوع وهذا مؤيد الدولة اعرقهم في الحسب ، واعرفهم بالادب .

الحافظ ابو سعد السمعاني عبدالكريم بن محمد (٥٠٦ - ٥٦٢) وهو صاحب كتاب الانساب .

والحافظ بن عساكر وهو ابو القاسم علي بن الحسن (٤٩٩ - ٥٧١هـ) صاحب تأريخ دمشق .

والعماد الكاتب واسمه محمد بن محمد بن حامد (٥١٩ - ٥٩٧) . صاحب الخريدة

والحافظ عبدالغني بن عبدالواحد ، المقدسي (٥١١ - ٦٠٠) وغيرهم كثيرون .

قال العماد الكاتب :

« فلما جاء مؤيد الدولة أنزله أرحب منزل وأورده أعذب منهل وملكه من أعمال المعرة ضيعة كانت قديماً تجري في أملاكه وأعطاه بدمشق داراً وادراراً واذا كان (ريد السلطان) بدمشق جالسه وآنسه وذاكره في الأدب ودارسه ، وكان ذا رأي وتجربة وحنكة مهذبة ، فهو يستشيره في نوائبه ويستنير برأيه في غيابه ، واذا غاب عنه في غزواته ، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته ، واستخرج رأيه في كشف مهماته وحلّ مشكلاته » هذه شهادة تعدل الف شهادة لانها من معاصر بريء من الغرض وسلم صدره من الحسد ، وهي بالوقت الذي تنزل اسامة منزلته وتشيد بمكانته وعلمه فانها تعطينا صورة لعبقرية صلاح الدين التي عرفت لذوي الفضل اقدارهم وقدرت مواهبهم وجمعت منهم كل ذي زكانة وعلم وبيان ، فجمع من حوله عدداً من عظماء الرجال وشدّ اليهم القيادة والادارة والتخطيط فكان يصدر عن مشورتهم ويعمل بالصالح من آرائهم وهذا سر

نجاحه وشهرته اضافة الى ما وهبه الله من قابليات فذة ، وأنت تستطيع ان تعرف الرجل من أعوانه وأقرانه فالعظيم يجمع من حوله العظماء والتافه يركن الى أمثاله من التافهين ، ويا ويل أمة يصرف أمرها التافهون ، فان أبعد الصالحون من أهل الرأي فبالأشرار تنقاد الى الهاوية طبعاً .

أقوال المحدثين :

وقال فليب حتي :

عاش اسامة شهما فارساً ، وزها مجاهداً مقاتلا ، ولمع أديبا وشاعرا ، تلهى صياداً وقضى الكثير من سنيه جوابا .

مقدمة الاعتبار

وقال احمد محمد شاكر :

بنو منقذ اسرة مجيدة نشأ فيها رجال كبار ، كلهم فرس شجاع ، وكلهم شاعر أديب وكانوا ملوكا في أطراف حلب ، ونشأ اسامة في كنف أبويه وعمه وجدته وفي وسط اسرة من أعظم الاسر العربية اكثر رجالها فرسان محاربون ، رباه أبوه على الشجاعة والفتوة والرجولة ومرنه على الفروسية والقتال ، فأخرج منه فارساً كاملا وسياسياً ماهراً ورجلا ثابتا كالرواسي لا تزعزعه الاعاصير ، ولا تهوله النكبات والرزايا .

مقدمة لباب الألباب

وقال أحمد أمين :

حتى اذا مرن « اسامة » نازل الاسود والضباع ، وعرف طبائع الاسود ومنازلتها ، وكما تعلم اسامة القتال في الصيد تعلمه في الانسان .

أجاد في حياته حرب الخصوم ، وشهد في شبابه حرب العواطف فأُحب وتيمه الحب ونعم بالوصال كما غنى به لحربه .

كل يوم غارة منه بغيرها ، وغارة على قومه يردها يخرج يوما يقاتل الاعراب ويوما ينازل الافرنج ، ويوما يقاتل فيَقتُل ويوما ينهزم ويجرح .

فيض الخاطر ج ٤/٦٢٢

اسامة المؤلف :

رأى اسامة رجله لا تحمله على ركوب المخاطر ويده ضعفت عن حمل الرمح والسيف وهو الذي تعود الاضواء والاطراء فاذا فاته ميدان الفروسية فليركن الى ميدان آخر تقوى رجله على المشي اليه وتهوى نفسه التزود منه ويده قادرة على حمله ذلك هو ميدان الكتاب وقد تزود منه بقسط وافر منذ حداثته وتعلم اصوله وفروعه وحفظ عيون الأدب والشعر ، والشهرة من طريق هذا الميدان لا تقل عن الشهرة عن ميدان الكر والفر والغزو والقتال ، وهذا ما أقبل عليه اسامة بنهم وصبر ودأب يقرأ ويستوعب ويكتب ويستكتب ويملي يوم ارتعشت أصابعه وعجزت يده عن حمل القلم بعد ان كانت لا تعجز عن حمل السيف والترس ، وهو القائل :

لم يبق العمر مني مُنّة
القى بها صرف الزمان اذا اعتدا

ضعفتْ قواي وخانني الثقتا
ن من بصري وسمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضت حسبت اني حاملٌ
جبلاً وأمشي إن مشيت مقيدا

وأدب في كفي العصا وعهدتها
في الحرب تحمل آسراً ومهندا

عكف على الدرس والقراءة والكتابة في مكتبات « كيفا » وهو على أبواب الثمانين ولم يفارق الكتاب يده الى ما بعد التسعين وأملى كتابه الاعتبار في هذا السن الفاني فخلف من بعده قائمة بثمانية عشر كتاباً وصل الينا منها عدد ضئيل الا ان فيه الغَنَاء للحكم على ثقافة اسامة وغزارة شعره واطلاعه الواسع على معارف عصره .

١ ـ كتاب الاعتبار :

نشره الاستاذ « درنبرغ » بليدن سنة ١٨٩٣ ثم نشره الدكتور فليب حتي نشرة أصح ضبطاً وأوفى تحقيقاً طبعه بمطبعة جامعة « برنستون » بأمريكا سنة ١٩٣٠ (١) سجل فيه ذكرياته ومشاهداته وتجاربه وما لقي من حروب ومعارك في صدق وأمانة يروي ما له وما عليه ويشيد بالبطولة والشجاعة ويعترف لأصحابه ولو كانوا من أعدائه ، ويسجل الوقائع الجماعية والفردية ويقص علينا الأحداث التي مرت به أو عاناها بنفسه أو وقعت لأصدقائه وأعدائه ويحدثنا فيه عن طبائع الافرنج وعاداتهم وانعدام غيرتهم في امور لا يتسامح فيها المسلمون .

قيمة الكتاب انه يعد من أهم مصادر التأريخ لتلك الحقبة كتبه وقد نيف على التسعين والأصح انه أملاه من ذاكرته بعد ان أصبحت يده لا تقوى على حمل القلم وكانت لا ينوؤها حملُ الرمح والحسام .

فأعجب لضعف يدي من حملها قلماً
من بعد حطم القنا في لبة الأسد

٢ ـ كتاب لباب الالباب :

وهذا الكتاب من مؤلفاته المتأخرة جمع مادته وهو في كيفا ورتبه وأخرجه بعد ان عاد الى دمشق وقسمه الى ابواب ذكر في كل باب ما ورد فيه من القرآن الكريم ثم الحديث الشريف ثم ما ورد من الاثار الادبية فيه نثراً وشعرا ، منها ما ورد في كتب الادب ومنها ما لم نجد نصوصه الا في كتاب اللباب ومنها أحداث حدثت له عاناها بنفسه أو سمعها أو شاهدها وضعه على سبعة أبواب : في الوصايا ، في السياسة في الكرم ، في الشجاعة في الادب والاخلاق ، وفي البلاغة وفي الحكمة وأورد نماذج من كلام الرسول ومنتخبات من كلام البلغاء ، وذكر كثيراً من

---

(١) نشرت ترجمته الروسية بقلم م. سباليه في بتروغراد سنة ١٩٢٢ . وظهرت للاعتبار ترجمة المانية بقلم شومان اعتمد فيها الكاتب على الترجمة الافرنسية .

عيون الشعر وشواهد من بليغ القول ، والكتاب فيه دلالة واضحة على سعة ثقافة المؤلف وحضور ذهنه وكثرة محفوظه كما يدل على ذوق رفيع في منتخباته .

حققه ونشره الاستاذ احمد محمد شاكر وتم طبعه فى القاهرة سنة ١٩٣٥ نشرته مكتبة لويس سركيس بمطبعة الرحمانية .

٣ ـ كتاب البديع(١) :

نشره وحققه الدكتوران احمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد ، من كتب التراث التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي ، جمع فيه اسامة ما تفرق فى كتب المتقدمين فى نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه وذكر للبديع خمسة وتسعين فصلا أو نوعا ، وأورد نماذج للبديع وأنواعه وللاسلوب طبع سنة ١٩٦١

٤ ـ كتاب المنازل والديار :

تقول عنه دائرة المعارف الاسلامية أنه ترجمة كتبها عن نفسه بعد ان اجتاحت الزلزلة منازل أهله وديارهم ، الفه عام ٥٦٨ ويتضمن شواهد شعرية كثيرة في المنازل والديار والاطلال والربع والدمن والرسم وقد حققت النسخة لجنة فى المكتب الاسلامي للطباعة والنشر .

٥ ـ (مختصر مناقب امير المؤمنين عمر بن الخطاب) وينسب لحُمَيْد ابن مالك بن منقذ(٢) .

٦ ـ (مختصر مناقب امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز) وينسب لحُمَيْد ابن مالك بن منقذ لاعجابه بسيرة الخليفتين الصالحين العادلين وما قاما به من اعمال باهرة وخدمة للاسلام والمسلمين ، ولم يتهيأ لهما من يقوم بتحقيقهما ونشرهما .

---

(١) منه نسخة خطية ببرلين ٧٢٧٧ ومنه نسخة بمكتبة بلدية الاسكندرية ١٧ أدب (بعنوان : فى نقد الشعر) وله مختصر بعنوان مختصر مقدمة الشعر منه مخطوطة بليدن ٢٩٣ .

(٢) بروكلمن الذيل ١ : ٥٥٢ .

٧ ـ كتاب العصا سماه ناشر ومحقق اللباب كتاب القضاء وخطأ ياقوت الحموي ويظهر لي ان الاستاذ احمد محمد شاكر لم يطلع على الكتاب وقد نشره المستشرق (درنبرغ) في باريس سنة ١٨٩٣ ونشره محققا الاستاذ عبدالسلام هارون على نسخة خطية فى نوادر المخطوطات بعنوانه القديم (كتاب العصا) .

٨ ـ « التأسي والتسلي » اشار اليه في لباب الآداب ص ٢٩٤ ،٤٦٠ .

٩ ـ الشيب والشباب :ـ اشار اليه في اللباب من (٣٧٧) وذكر ياقوت انه الفه لابيه .

١٠ ـ النوم والاحلام :ـ اشار اليه في الاعتبار ص ١٨٦ .

١١ ـ ازهار الانهار :ـ ذكره صاحب كشف الظنون .

١٢ ـ التأريخ البدري جمع فيه اسماء من شهد بدراً من الفريقين وقد سماه فليب حتي (ا لتاريخ البلدي) .

١٣ ـ التجائر المربحة والمساعي المنجحة ذكره فليب حتي واحمد محمد شاكر .

١٤ ـ تأريخ القلاع والحصون ذكره الدكتور فليب حتي .

١٥ ـ نصيحة الرعاة ذكره الدكتور فليب حتي .

١٦ ـ أخبار النساء ذكره الدكتور فليب حتي .

١٧ ـ أخبار البلدان ـ ذكره الذهبي .

١٨ ـ أخبار بني منقذ ـ ذكر ياقوت انه رآه .

١٩ ـ الديوان : قام بتحقيقه وقدم له الدكتوران احمد بدوي وحامد عبدالمجيد ، وتم طبعه بالمطبعة الاميرية سنة ١٩٥٣ .

٢٠ ـ كتاب فضائل الخلفاء الراشدين ذكره اسامة فى كتاب لباب الآداب ص ١٧٣ .

الكتاب يعتمدون الاعتبار :

هذه المجموعة من كتبه المطبوعة الى عهد قريب ما كان معروفاً منها غير كتاب (الاعتبار) ولذلك وجدت جميع الذين كتبوا عنه ونشروا مقالات عن سيرته انما

كانوا يعتمدون « الاعتبار » والخريدة أو ياقوت تتبعت مقالاتهم في الرسالة والكتاب والمقتطف والثقافة وغيرها فكانوا يسيرون في درب واحد باختلاف في الاسلوب يرددون جملاً قالها العماد ونقلها ياقوت وابن خلكان ، والى عهد قريب يحسبون العصا هو كتاب القضاء والكتاب طبع في فرنسا منذ ١٨٩٣ وآخر من الكاتبين يظن كتاب « المنازل والديار » انه ترجمة كتبها عن نفسه والواقع الكتاب لا يمت من قريب أو بعيد الى الترجمة أو السيرة بسبب وربما وردت له بعض أخبار يرويها اسامة عن مشاهداته •

اريد ان اقول ان هذه المجموعة من الكتب التي عثرت عليها والتي توفرت من عهد قريب يسرت لي أن اقف على معلومات جد قيمة لا غنى لمن يريد أن يكتب سيرة لاسامة ان يلم بأطراف اخباره وأحواله ان يرجع اليها وعندي ان شعره المجموع في ديوانه أو المنشور في الخريدة هو مفتاح شخصيته والموضح لملامح سيرته منه نعرف مركزه الاجتماعي بين بني قومه ومن مراسلاته ومن مدحه أو مدحهم له نطلع على احداث عصره وكتاب اللباب والبديع والمنازل والديار نخرج منها بحكم على ثقافة المؤلف وسعة معارفه ، وانفراده بمنتخبات ومقتطفات لم تجدها في كتاب آخر من كتب الأدب ، ومن يدري لعل السنين القادمة تكشف عن بقية مؤلفاته ، ويومئذ يجد الباحث فيها ما لم يتوفق الى معرفته والاحاطة به «وفوق كل ذي علم عليم» لكني اجزم ان كتاب الاعتبار والديوان يبقيان الاساس أو حجر الزاوية لمفتاح سيرته وتأريخه •

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الإعتبار

في اخريات أيامه كانت تتردد الذكريات في ذاكرته ويقص بعض احداثها في أسماره لسماره ، يعجب لحاله خاض أعنف المعارك ورمى بنفسه على الموت غير هياب ولا وجل وما دخل واقعة وحسب انه سينجو فيها من الموت ، كم تقحم المخاوف وكم لقي الاهوال والاخطار وكم قارع الفرسان وقتل الاقران وضرب بالسيوف وطاعن بالمرهفات وطعن بالسنان وجرح بالسهام وهو كما قال : « وأنا من الأجل في حصن حصين الى ان بلغت تمام التسعين فرأيت الصحة والبقاء كما قال عليه الصلاة والسلام « كفى [1] بالصحة داء » فأعقبت النجاة من الاهوال ما هو اصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك في كنه الجيش اسهل من تكاليف العيش ، استرجعتْ الحياة بطول الحياة سائر محبوب اللذات وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد » فأمسى كما قال :

اذا كتبت فخطي جدُّ مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد

فلم يشأ الأمير أن تذهب ذكرياته وتجاربه مع الريح ، وحرص ان يسجلها ولا يترك الايام تُعفيّ عليها ، فراح يسترجع صورها ويتذكر أحداثها سواء ما كان منها في الاشتباكات الحربية مع الافرنج أو الحشاشين أو المغامرات في صيد الوحوش وعلى رأسها السبع في غابات وأحراش شيزر حَرِص قبل ان تنطفيء جذوة حياته ان يقص للأجيال من بعده تلك الذكريات الحافلة بجلائل الاعمال ويستخلص منها العبر والاعتبار حفل ان يسجلها بأحداثها كما هي متوخيا في روايتها الصدق والأمانة يرويها كما وقعت بلغة عصره من غير تزويق أو اصباغ صورها ساذجة كما هي وكما عاناها فجاءت بارعة حية مجسدة حتى جعلنا نتمثل شخوصها وكأننا نشاهد تحركاتهم وكأننا نعيش بينهم ونتحرك معهم ، هي قدرة الفنان البارع والقصاص القدير ، وما كان يدور بخلده ان يكتب سيرة لحياته

(١) لم أجده في الصحاح .

وما كان يعنيه ذلك بقدر ما كان يعنيه تسجيل الاحداث التي عاشها واستخلاص الإعتبار منها .

صور لنا في كتاب الاعتبار صورة دقيقة لنظرة المسلمين الى الافرنج في زمانه يتخذ منهم أصدقاء لشجاعتهم وفروسيتهم وفي أوقات السلم والهدنة يتزاورون ويختلطون وينتفعون مما يجدونه عند المسلمين من مدنية وحضارة وصناعة .

يعجب لشجاعتهم ويقول ليس لهم من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ينتقد أخلاق ملكهم (تنكرد) لاخلاله بالأمان الذي أعطاه ويهاجم بلدوين ملك أورشليم لأسره أخيه وسلبه لاموال اسرته وقد أعطاهم الأمان .

حفل الكتاب بتفصيلات تأريخية واجتماعية وتربوية وحضارية لم يلتفت اليها كتاب الوفيات وأغفلها المؤرخون للتاريخ العام ، في كتاب الاعتبار تجارب اسامة وقد امتدت حتى جاوزت التسعين من الاعوام وتشعبت وتعددت نواحيها فقد جاب أكثر الاقطار الاسلامية حركة واضطراباً في فترة كثرت فيها الفتن وتسعرت فيها الحروب وقامت دول واختفت دول ولعب على مسرحها ملوك وامراء مغامرون ومجاهدون صادقون يخافون الله محتسبين فيما يقدمون من مال ودم رضى الله واليوم الآخر واعلاء شأن المسلمين .

تشابكت مصالح وتقسمت المنطقة اطماع ونزوات وشهوات وقامت له مع أكثرهم وشائج صداقة ومشاركات في حروبهم وحتى في منازعاتهم ، صحب عماد الدين في حروبه ورافق معين الدين أنسر في جهاده مع الافرنج وعايش الاتراك والسلاجقة وانضم الى الخليفة الفاطمي وشاهد الفتن التي دبرها ابن السلار ضد ابن مصال . وقاد العساكر في عسقلان وبيت جزيل واكتوى بنيران الفتن التي دبرها عباس وآسى لمقتل الخليفة الظافر شهد ثورة الجند على الوزير الصنهاجي وابنه وصاحب نور الدين وحارب فى صفه ، وحج الى القدس وخالط فرسان الافرنج وحج الى بيت الله وزار بطريقه بغداد وأقبل على التأليف في حصن كيفا ، وتوج أيامه الاخيرة بصحبة بطل الاسلام الناصر صلاح الدين وقرت عينه قبل انطفاء جذوته بالفتح الأعظم بالانتصار على الصليبين في البيت المقدس ذاق على يد الناصر

الدعة والهناءة وخلو البال ، فحفزته هذه الدعة أن يملي كتابه « الاعتبار » وصف فيه تجاربه وقص علينا حياته في اسلوب قصصي مثير .

حقق الكتاب المؤرخ الدكتور فليب حتي على النسخة المحفوظة في مكتبة الاسكوريال [١] بأسبانيا وطبعه في مطبعة جامعة برنستون في الولايات المتحدة ١٩٣٠ واعاد طبعه بالاوفست السيد قاسم الرجب صاحب مكتبة المثنى في عداد الكتب النادرة القيمة التي أعاد طبعها ويسر قراءتها للناس بعد ان فقدت من الاسواق وتعالت أثمانها بحيث لا يتسنى للاغنياء شراؤها بله أمثالنا من اصحاب الدخل المحدود ، فيسرها مشكوراً فغنم وغنمنا ، وقدمه الدكتور حتي بمقدمة مفصلة ودراسة مستوعبة كانت خير تعريف للكتاب ووضع للكتاب فهارس للاعلام والمواقع والحق به خريطة للمنطقة التي دارت على مسرحها الاحداث ووضع عناوين للموضوعات أفادت القارىء ويسرت مراجعة الكتاب[٢] .

من فصول الكتاب :

تربية اسامة البيتية :

عقد اسامة فصلاً في كتابه تحدث فيه عن الطريقة التي ربي عليها منذ حداثته قال في ص **١٠٣** وما بعدها :

« ما رأيت الوالد رحمه الله نهاني عن قتال ولا ركوب خطر ، مع ما كان يرى في وأرى من اشفاقه وايثاره لي ، ولقد رأيته يوماً وكان عندنا رهائن عن بغدوين (بلدوين) ملك الصليبيين في أورشليم ـ على قطعة قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين كانوا فرسان افرنج وأرمن و َفوْا ما عليهم وأرادوا الرجوع الى بلادهم نفذ صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم في ظاهر شيزر

---

(١) أنظر كتابنا محمد كرد علي عن مكتبة الاسكويال .

(٢) أنظر الاعتبار المقدمة ص : س س ونشر فليب حتي الكتاب مترجما للانكليزية عن المخطوطة التي حققها .

فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم ، أخذوهم ، ووقع الصائح فركب عمي وأبي رحمهما الله ووقفا وكل من يصل اليهما سيَّراه من خلفهم ، وجئت أنا فقال لي أبي اتبعهم بمن معك ، وارموا انفسكم عليهم واستخلصوا رهائنكم ، وعجبت من قوله : ارموا نفوسكم عليهم » وعجب اسامة ناشيء من شجاعة الاب وحسن تربيته لم يحذر ولده ولا نهاه عن ركوب الاخطار شأن الكثيرين من الآباء اشفاقا على أولادهم من التعرض للمهالك فيشبون جبناء لا يعتمدون على أنفسهم •

ويقول : « مرة كنت معه رحمه الله وهو واقف في قاعة الدار ، واذا حيّة عظيمة قد أخرجت رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار ، فوقف يبصرها، فحملت سلماً كان في جانب الدار اسندته تحت الحية وصعدت اليها وهو يراني فلا ينهاني ، وأخرجت سكينا صغيرة من وسطي وطرحتها على رقبة الحية ، وبين وجهي وبينها دون الذراع وجعلت أحزُّ رأسها وخرجت التفّت على يدي الى أن قطعت رأسها والقيتها الى الدار وهي ميتة •

« بل ورأيته رحمه الله وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر ثم وقف وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ رحمه الله بين الاسد وبين موكب ابي وعمي رحمهما الله ، ومعهما الجند ، والاسد قد ربض على جرف النهر يتضرب بصدره على الارض ويهدر ، فحملت عليه فصاح عليَّ أبي رحمه الله لا تستقبله يا مجنون فيأخذك فطعنته فلا والله ما تحرك من مكانه ومات موضعه فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم » •

عمُّ اسامة يتفقد حضور ذهنه :

وقال : « كان عمي عز الدين رحمه الله يتفقد مني حضور فكري في القتال ويمتحنني بالمسألة ، فنحن في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة ، وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب فجرد عمي من العسكر نحواً من ستين أو سبعين فارساً وقال لي خذهم وسر اليهم فمضينا نتراكض ، والتقينا بوادر خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي

كانوا عليه ، ونفذت فارساً من اصحابي الى عمي وابي رحمهما الله وهمـا واقفان ومعهما العسكر وراجل كثير ، أقول لهما سيرا بالرجالة فقد كسرتهم فسارا الي فلما قربا حملنـا عليهم كسرناهم ورموا خيلهم في « الشاروون » (من روافـد العاص) وعبروه سباحة وهو زائد ومضوا ، وعدنا بالنصر ، فقال لي عمي أي شيء نفذت تقول لي ؟ . قلت نفذت اقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم ، فقال مع من نفذت اليَّ ؟ قلت مع رجب العبـد ، قال صدقت ، ما أراك الا حاضر القلب » .

وفي قتال آخر طعن اسامة فارساً اسمه علوان العراقي وكان من الفرسان المعدودين فسأله عمه ليختبر حضور ذهنه « فلما انفصل القتال قال لي عمي اين طعنت علوان العراقي ؟ قلت أردت ظهره فمـال الهـواء بالبيرق فوقع الرمـح في جانبه ، قال صدقت ما كنت الا حاضر القلب » .

حضور الذهن : أمثلة

ضرب مثلاً لحضور الذهن وقوة القلب كيف ينجي صاحبه من الفزع والمهالك قال : « ركبنا ، بعض الايام من شيزر الى الصيد وعمي رحمه الله معنا وجماعة من العسكر فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدراج فحمل عليه رجل جندي كردي يقال له « زهر الدولة بختيار القبرصي » سمي بذلك للطف خلقته وكان رحمه الله من فرسان المسلمين فاستقبله السبع فحاص بـه الحصان فرماه وجاء السـبع وهو ملقى فرفع رجله فتلقمها السـبع ، وبادرناه ، فقتلناه واستخلصناه وهو سالم ، فقلنا له : يا زهر الدولة لمَ رفعت رجلك الى فم السبع ؟ قال جسمي كما ترونه ضعيف نحيف وعليَّ ثوب وغلالة وما فيَّ أكسى من رجلي فيها الرانات والخف والساق فقلت اشغله بها عن اضلاعي الى أن يفرج الله تعالى » فهذا حضره العقل في موضع تزول فيـه العقول فالانسان أحوج الى العقل من كل ما سواه في مثل هذه المهالك .

الرعب يقتل صاحبه :

قال « خلق الله عزّ وجل خلقه اطواراً مختلفي الخلق والطبائع منهم ، الابيض والاسود والجميل والقبيح والطويل والقصير والقوي والضعيف ، والشجاع والجبان بمقتضى حكمته وعموم قدرته ، رأيت بعض اولاد الامراء التركمان الذين كانوا فى خدمة ملك الامراء اتابك زنكي (عماد الدين) رحمه الله ، وقد اصابته نشابة ما دخلت فى جلده مقدار شعيرة فأسترخى وانحلت اعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه وهو رجل مثل الاسد ، واجسم ما يكون من الرجال فأحضروا له الطبيب والجرائحي فقال الطبيب ما به بأس ، بل متى ما خرج ثانية مات ، فهدأ وركب وتصرف كما كان ثم اصابته نشابة اخرى بعد مدة أحقر من الاولى واقل نكاية فمات » قتله الذعر قبل ان يقتله السهم وكم قد قتل الخوف والرعب ضعاف الانفس .

اسامة على استعداد للقتال :

قال : « ان ملك الامراء زيكي رحمه الله نزل على دمشق فى سنة ثنتين وثلاثين وخمس مئة بأرض داريا وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن بوري فى الوصول اليه ، وقد خرج من بعلبك متوجها الى خدمة اتابك فبلغه ان عسكر دمشق خرج يريد اخذه ، فأمر صلاح الدين الفسياني ان نركب لقائه ودفع الدمشقيين عنه فجاءني رسوله فى الليل يقول اركب وخيمتي الى جانب خيمته فركبت فى الوقت فقال : (أكنت علمت بركوبى ؟ قلت لا والله ، قال الساعة نفذت اليك (اى ارسلت) فركبت فى الوقت ؟ قلت يا مولاي حصاني يأكل شعيره ويلجمه الركابي ويقعد وهو فى يده على باب خيمتي ، وانا البس عدتي واتقلد سيفي وانام ، فلما جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقني » .

كلب يخلص صاحبه من الاسد :

« من عجيب امور السباع ان اسداً ظهر عندنا فى شيزر فخرجنا اليه ،

ومعنا رجالة من أهل شيزر فيهم غلام ومع ذلك الغلام كلب له فخرج الاسد على الخيل فجلت قدامه جافلة فأخذ ذلك الغلام وبرك عليـــه فوثب الكلب على ظهر الاسد فنفر عن الرجل وعاد الى الاجمة وخرج الغـــلام بين يدى والدي يضحك وقال يا مولاي وحياتك ما جرحني ولا آذاني » وقتلنا الاسد ودخـــل الرجل فمات فى تلك الليلة من غير جرح اصابه الا انقطع قلبه » قتله الرعب •

الافرنج لا مزية لهم الا الشجاعة :

« الافرنج ـ خذلهم الله ـ ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة واذا خبر الانسان أمور الافرنج سبح الله تعالى وقدسه ورأى بهـــا ثم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما فى البهائم فضيلة القوة والحمل » هـــذا بالمقارنة الى ما كان عليه شرقنا العربي من حضـارة مزدهرة وعمران باذخ وغيرة على الاحساب والانساب ، قال :

« ومن الافرنج تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم اصلح من القريبى العهـــد ببلادهم ، نفذت صاحباً لي الى انطاكية فى شغل وكان بها الرئيس «تادروس» بيني وبينه صداقة وهو نافد الحكم فى انطاكية فقال لصـــاحبي يوماً ، دعاني صديق من الافرنج تجيء معي حتى ترى زيهم ، قال فمضيتُ معه فجئنا الى دار فارس من الفرسان العُتق الذين خرجوا فى أول خروج الافرنج وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاما فى غاية النظافة والجودة ، ورأني متوقفاً عن الاكل فقال كل طيب النفس فأنا ما آكل من طعام الافرنج ولى طبـاخات مصـريات ما أكل الا من طهيهن ولا يدخل داري لحم الخنزير » •

ويقول : « فكل قريب العهد بالبلاد الافرنجية اجفى اخلاقاً من الذين تبلدوا وعاشـروا المسـلمين فمن جفـاء اخلاقهم ـ قبحهم الله ـ انني كنت ازور البيت المقدس ، دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة فكنت اذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداوية (الفرسان) وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد اصلي فيـــه فدخلته يوما فكبرت ووقفت فى

الصلاة فهجم علي واحد من الافرنج ، مَسكَني وردَّ وجهي الى الشرق وقال كذا صل ، فتبادراليه قوم من الداوية اخذوه اخرجوه عني وعدت الى الصلاة فأغتفلهم وعاد هجم عليَّ ورد وجهي الى الشرق فعاد الداوية اليه واخرجوه واعتذروا اليَّ وقالوا هذا غريب وصل من بلاد الافرنج حديثاً فى هذه الايام، وما رأى مَنْ يصلى الى غير الشرق فقلت حسبي من الصلاة » هذه نظرات اجتماعية تعطينا صورة فيها دلالة واضحة الى ما كانت عليه حالة الافرنج من التخلف وتكشف لنا عن اعتزاز اسلافنا بأنفسهم وبرقي مجتمعهم وثقافاتهم ، وتفصح عن صلات اسلافنا بالافرنج ايام هذه الحروب القاسية فعلى مدى الايام خفَّ التعصب فراح الطرفان المتخاصمان يتزاوران وينتفع كل طرف بما عند الاخر من أمور نافعة .

مثل على جهلهم :

قال اسامة : ان اخي عزالدولة ابا الحسن عليا اخرج حصانا فى ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من الافرنج يعيش فى كفرطاب ، فبقى عنده سنة ثم مات ، فأرسل الينا يطلب ثمنه .

قلنا : اشتريته وركبته ومات عندك كيف تطلب ثمنه ؟

قال : انتم سقيتموه شيئا يموت منه بعد سنة ، فعجبنا من جهله وسخافة عقله » .

اما عن تفسخ اخلاقهم وقلة غيرتهم وعدم مبالاتهم بالشرف وقلة نخوتهم فالحديث عنه يطول راجع الاعتبار

من عجيب طبهم :

« من عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة(١) كتب الى عمي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرض اصحابه فارسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت فما غاب

(١) المنيطرة تقع بالقرب من منبع نهر ابراهيم فى شمال لبنان .

عشرة أيام حتى عاد فقلنا له ما اسرع ما داويت المرضى ؟ قال احضروا عندي فارساً قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف « بله » فعملت للفارس لبخـــة ففتحت الدملة وصـــلحت المرأة ورطبت مزاجهـــا فجـــاءهم طبيب افرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شيء يداويهم وقال للفارس ، أيما احبُ اليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين قال اعيش برجل واحدة قال احضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعا فحضر الفارس والفأس فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله ضربة واحدة اقطعها فضربه وانا اراه ضربه واحدة ما انقطعت ضربه ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته ، وابصر المرأة فقال هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من اكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف فقال الشيطان قد دخل فى رأسها فأخذ الموسى وشق رأسها صليبيا وسلخ وسطه حتى ظهر العظم وحكه بالملح فماتت فى وقتها، فقلت لهم بقي لكم الي حاجة قالوا لا فجئت وتعلمت من طبهم ما لم اكن اعرف .

ويحكى اسامة ما يدل على براعة بعض اطبائهم قال :

« وشاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان عندنا بشيزر صائغ يقال له ابو الفتح له ولد قد طلع فى رقبته خنازير وكلما ختم موضع فتح موضـــع فدخل انطاكية فى شغل له وابنه معه فرآه رجـل افرنجي فسأله عنه فقال هو ولدى قال : تحلف بدينك ان وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من احد تداويه به اجرة فحلف ، فقال له تأخذ اشنانا غير مطحون تحرقه وتربّه بالزيت والخل الحاذق وتداريه حتى يأكل الموضع ثم خذ الرصاص المحرق وربه بالسمن ثم داوه به فهو يبرئه ، فداواه بذلك فبريء وختمت تلك الجراح وعـاد الى ما كان عليـــه من الصحة ، وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وازاله ما كان يشكوه » هذه صفة بارزة فى اسامة هى الانصاف لا يبخس الناس اشياءهم ولو كانوا اعداءه ايام الحرب .

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام ربور (وليم ربور) صـاحب طبرية وكان مقدما فيهم واتفق انه رافق الامير معين الدين أُنر رحمـه الله من عكا الى

طبرية وانا معه فحدثنا فى الطريق قال كان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ، قال نعم ، ومشى معنا ونحن نتحقق أنه اذا حطَّ يده اليه عوفي فلما رأه قال اعطوني شمعا فأحضرنا له قليلا منه فليَّنه وعمله مثل عقد الاصبع وعمل كل واحدة فى جانب انفه فمات الفارس فقلنا له قد مات ؟ قال نعم ، كان يتعذب سددت انفه حتى يموت ويستريح » فتأمل .

منزلة الفارس عند الافرنج :

كان اسامة يعجب لشجاعتهم ويكرر قوله « ليس لهم من فضائل سوى الشجاعة » ويعجب بنظرهم واحترامهم الى الفارس والفروسية واجلال أهلها « فليس عندهم منزلة عالية الا للفرسان ولا عندهم ناس الا الفرسان فهم أصحاب الرأى وأصحاب القضاء » حكى أنه مرة تعدى قوم منهم على قطعان غنم للمسلمين وكان بينهم وبين الافرنج صلح وهدنة فرفع امرهم الى ملكهم «فلك» الخامس ملك القدس « فأختار الملك ستة من فرسانهم ليحكموا فى هذه القضية فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك فقالوا : قد حكمنا بغرامة ما اتلف من غنمهم وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان ما يقدر أحد ـ ولو كان من مقدمي الافرنج ـ ان يغيره ولا ينقضه فالفارس أمر عظيم عندهم » .

ويصف افراحهم واعيادهم ومراهناتهم وتعصبهم لجنسهم ودينهم ورخص الانفس عندهم ، ويصف غريب طباعهم ولا تعجبه اخلاقهم وغلظتهم ولكن يشيد بشجاعتهم .

اختباراته وملاحظاته :

فى الفصل الذى عقده للكلام عن اختباراته وملاحظاته دليل على ما متَّع الله سبحانه اسامة من ذكاء وفهم وبراعة ويستخلص من هذه الاختبارات مواضع

الاعتبار فترى احكامه فى غاية الصواب والعدل ، يقص علينا أمثلة لاختلاف الناس في مشاربهم وطباعهم وميولهم وضعفهم وقوتهم ، رجل يخاف من الفصد وآخر ينشر ساقه بمنشار كيلا تتلف فداواها وبرئت ، ورجل يخشى فأرة وغيره ينازل السباع ، وثالث لا يقوى ان يرى حيّة ويُغمى عليه اذا رأها وآخر يمسكها من رقبتها ويحز رأسها أو يطوح بها ويقتلها وآخر تنخسه ابرة فيموت ورجل يشق بطنه بموسى فيشفى من مرض السقاء ، واورد على هذا التباين والاختلاف أمثلة رآها بنفسه أو سمعها ممن يثق به .

قال : «ان رجلا من كنانة حدثني بحصن الجسر ان رجلا في الحصن استقى[1] فشق بطنه فبرىء وعاد صحيحا كما كان فقلت له اريد ابصره واستخبره[2] عن حاله وكيف فعل بنفسه فأحضره ذلك الرجل عندى ، فقال : انا رجل صعلوك وحيد استقى جوفي وكبرت حاله حتى عجزت عن التصرف وتبرمت بالحياة فأخذت موسى وضربت به فوق سرتى في عرض جوفي شققته فخرج منه قدر طباختين ماء (يعنى قدرين)وما زال الماء ينز منه حتىضمر جوفي فخيطته وداويتالجرح فبريء فزال ما كان بي ، واراني موضع الشق في جوفه اطول من شبر ، ولا شبهة ان هذا الرجل له في الارض رزق يستوفيه فقد رأيت من استقى وفصد الطبيب جوفه فخرج منه الماء كما خرج من الذى يزل نفسه الا أنه مات من ذلك الفصد لكن الاجل حصن حصين » .

ومن عجائب الاقدار :

قاتل اسد تقتله عقربة :

قال : « كان عندنا اخوان من اصحابنا يقال لهما بنو الرُعام رجالة يترددان من شيزر الى اللاذقية لعمي عز الدولة ابي المرهف نصر ، وفيها أخوه عز الدين

---

(١) اصابه داء الاستسقاء .

(٢) هذا الخبر وأشباه له يدلنا على ان اسامة كان يجمع مادة كتابه (الاعتبار) منذ عهد بعيد .

ابو العساكر سلطان (في شيزر) يترددان بينهما بالكتب قالا خرجنا من اللاذقيـــة فأشرفنا من عقبة « المنده » وهي عقبة عالية تستشرف على ما تحتها من الوطا فرأينا السبع وهو رابض على نهر تلك العقبة ، فوقفنا مكاننا ما نجسر على النزول من خوف الاسد ، فرأينا رجلا قد أقبل فصحنا اليه ولوحنا بثيابنا اليه نحذره من الاسد فما سمعنا واوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى اليه فرآه الاسد فوثب اليه فضربه ما اخطأ قلبه فقتله ومشى اليه فتمم قتله ، وأخذ نشابته وجاء الى ذلك النهر فنزع زربوله[1] وخلع ثيابه ونزل اغتسل في الماء ثم طلع لبس ثيابه وجعل ينفض شعره لينشفه من الماء ثم لبس فردة زربوله واتكى على جنبه وطول فى الاتكاء فقلنا والله ما قصـــر ولكن على من يتيـــه ؟ ونزلنـــا البر وهو على حاله فوجدناه ميتا مـــا ندري ما اصابه فنزعنا فردة الزربول من رجله فاذا فيه عقربة صغيرة قد لسعته في ابهامه فمات لوقته ، فعجبنا من ذلك الجبار الذى قتل الاسد وقتلته عقرب مثـــل الاصبع فسبحان الله القادر النافذ المشيئة فى الخلق » .

ومن غريب الآجال :

قال : « لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة ، نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل وتبلغ حجرها ما لم تبلغه النشابة ولقد رموا مرة دار صاحب لي يقال له يوسف بن ابي الغريب رحمه الله فهدمت علوها وسفلها واحد بحجر وكان على برج دار الامير قنطارية[2] فيها راية منصوبة وطريق الناس في الحصن من تحتها فضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرها من نصفها وانقلب كسرها الذى فيه السنان تنكس ووقع الى الطريق ورجل من اصحابنا عابر فوقع السنان من ذلك العلو وفيه نصف القنطارية في ترقوته الى الارض وقتله، وضربت حجر المنجنيق رجلا من اصحابنا كسرت رجله فحملوه الى بين يدى عمي وهو جالس فيدهليز الحصن فقال : هاتوا المجبر ، وكان بشيزر صانع يقال له يحيى

---

(١) الزربول كلمة يونانية معناها الحذاء .

(٢) القنطارية الرمح .

صانع في التجبير مخضر وجلس يجبر رجله وهو فى سترة خارج باب الحصن فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته ، فدخل المجبر الى الدهليز فقال عمي ما أسرع ما جبرته قاله يامولاي جاءته حجر « ثانية اغنته عن التجبير » .

النصر من الله :

يقول : النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى ، لا بترتيب ولا بتدبير ولا بكثرة ولا نصير وكنت اذا بعثني عمي رحمه الله لقتال اتراك او افرنج اقول لـه يامولاي أمرني بما اتدبر به اذا لقيت العدو فيقول يابني الحرب تدبر نفسها وصدق » وضرب مثلا حكاية الصليبيين الذين امتلكوا قرية الجسر برغم ما كان بينهم وبين آل منقذ من صلح ، وصادف رجوع عمه وابيه ولم يكن معهما الا مماليك عشرة صبيان وهم في جمع كبير قال :

« فلما اشرف ابي وعمي رحمهما الله على الجسر كبر اهل الحصن وصاحوا فالقى الله سبحانه على الافرنج الرعب والخذلان وذهلوا عن الموضع الذى عبروا منه ورموا خيلهم وهم بدروعهم وسلاحهم عليها فى غير مخاض فغرق منهم جماعة كثيرة » .

لا ينبغي للمرء إن يغتر بشجاعته :

يقول : « لقد سرت مع عمي رحمه الله اغرنا على « افامية » فقتلنا منهم قدر عشرين رجلا ورأيت جمعة النميرى وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح الى فخذه ونفذ الى خلفه فأنكسرت القنطارية فيه ، فهالني فقال : لا بأس انا سالم ومسك سنان القنطارية وجذبه منه ، فقلت يا ابا محمود اشتهي اقرب من الحصن ابصره قال سر : فرحت انا وهو نخب فرسينا فلما اشرفنا على الحصن اذا من الافرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق فقال لي جمعة قف اريك ما اصنع بهم قلت ما هذا انصاف نحمل عليهم انا وانت ، قال سر فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى انا قد فعلنا شيئاً ما يقدر يفعله غيرنا فوقفنا على ذلك الشرف (أي المرتفع) ننظر الحصن فما راعنا الا رويجل[1] قد طلع علينا من ذلك

---

(١) تصغير رجل .

السند معه قوس ونشاب فرمانا ولا سبيل اليه فهزمنا والله ما صدقنا نتخلص منـــه وخيلنا سالمين •

مروءة اسامة في افتداء الاسرى :

قال رحمه الله : « كنت اتردد الى ملك الافرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك ••• فكان الافرنج يسوقون اساراهم الي لاشتريهم فكنت اشتري منهم من سهل الله تعالى خلاصه ، فخرج شيطان منهم يقال له كليام جيبا ـ وليام ـ في موكب له يغزى فأخذ مركبا فيه حجاج من المغاربة نحو أربعمئة نفس رجال ونساء فكان يجيء اقوام مع مالكهم فأشـــتري منهم من قدرت على شرائه وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لا يتكلم ، فسألت عنه فقيل لي هو رجل زاهد صاحبه دباغ فقلت له بكم تبيعني هذا ؟ قال وحق ديني ما ابيعه الا هو وهذا الشيخ جملة كما اشتريتهما بثلاثة واربعين دينارا فأشتريتهما واشتريت لي منهم نفرا واشتريت للامير ووزنت ما كان معي وضمنت علي الباقي • وجئت الى دمشق فقلت للامير معين الدين رحمه الله اشتريت لك اسارى ان اردتهم وزنت ثمنهم والاوزنته انا قال لا بل انا ازن والله ثمنهم وانا ارغب النـــاس في ثوابهم وكان رحمه الله اسرع الناس الى فعل الخير وكسب المثوبة ووزن ثمنهم ، وعدت بعـــد ايام الى عكا وقد بقي من الاسرى عنـــد كليام جيبال ثمانيـــة وثلاثون اسيرا وفيهم أمرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي فأشتريتها منه وما وزنت ثمنها فركبت الى داره ـ لعنه الله ـ وقلت تبيعني منهم عشرة قال وحق ديني ما ابيع الا الجميع وانا اشترى بعضهم والنوبة الاخرى اشتري الباقي قال ما ابيعك الا الجميع فأنصرفت وقدر الله سبحانه انهم هربوا في تلك الليلة جميعهم وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم الاسير اخفوه واوصلوه الى بلاد الاسلام •

وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد واحسن الله سبحانه خلاصهم واصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت اشتريتها وما وزنت ثمنها وقد هربت في من هرب فقلت سلمها اليَّ وخذ ثمنها قال ثمها لي من امس قبل ان تهرب والزمني بوزن ثمنها فوزنته وهان ذلك عليَّ لمسرتي بخلاص اولئك المساكين •

هذه الناحية الكريمة خصلة البر والبذل في سبيل فك الاسير كانت متأصلة لدى القادرين ايام تلك الحروب الدامية والغريب ان جميع الذين كتبوا المقالات أو تناولوا سيرة اسامة لم ينوهوا بهذه المروءة التى اتصف بها الامير النبيل الذى ندب نفسه للجهاد ولنصرة المسلمين واي طاعة أفضل من هذه الطاعة .

اسامة يشيد بشجاعة النساء :

ولم يفته ان ينوه بشجاعة النساء وبسالتهن بتلك الحروب والوقوف بصف المحاربين ودفاعهن فى حوادث كثيرة صمدن وحدهن الى ان وصل الرجال وحكى عن واحدة منهن انها وحدها اسرت ثلاثة من الافرنج فسلبتهم ما عليهم من سلاح ونادت رجالا فقتلوهم وحكى عن والدته انها في هجوم الحشاشين على الحصن وقد خرج الرجال والحامية لحربهم وتسلل منهم جماعة الى الحصن فوزعت السلاح على بنات جنسها ومضين يدافعن ويقاتلن واوقفت اختا لاسامة على أعلى الروشن بقصد رميها من شاهق كيلا تقع اسيرة بيد الاجلاف الحشاشين ولم يقصر اشادته على شجاعة نساء اسرته وانما عدد نساء من بنات منقذ وغيرهن كما اشاد بشجاعة الرجال من الجند ومن رجالة أهل شيزر ، والخيل فى الحروب والقتال لها مشاركات وبطولات مثل اصحابها فمن حقها ان يطري صبرها وجلدها وتحملها قال :

الصبور في الخيل :

ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار ضمن ذلك أنه كان فى جندنا رجل كردي يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة والدين والخير رحمه الله وله حصان ادهم اصم مثل الجمل فألتقى هو وفارس من الافرنج فطعن الافرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبته من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الاخر ، وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة فارسه . وقال « وجرح تحتى حصان شقت الطعنة قلبه واصابه

عدة سهام فأخرجني من المعركة ومنخراه يدميان ، وما انكرت منه شيئا وبعد وصولى الى اصحابي مات .

« وجرح تحتى حصان في بلد شيزر ثلاثة جراح وانا اقاتل عليه ولا اعلم والله انه جرح لاني ما انكرت منه شيئا » .

ومن حسن صبر الخيل ان طرّاد بن وهب النميري حضر القتال وتحت طرّاد حصان له من اجود الخيل له قيمة كبيرة فطعن في خاصرته فخرجت مصارينه فشدها طراد في السموط وقاتل حتى انقضى القتال فدخل به الى الرقة فمات » .

اسامة والاسد : قال

« وشاهدت من الاسد ما لم اكن لاظنه ولا اعتقدت ان الاسد كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان » وروى اخبارا عن شجاعة بعضها وخور وجبن بعضها الاخر وخرج بأحكام عنها نتيجة معاناته لمطاردتها ومقاتلتها .

تأملات اسامة بشأن العمر والهرم :

فقد سجل بعض تأملاته عن شيخوخته قال « لم ادر ان داء الكبر عام يعدي كل من اغفله الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعين وابلاني مرور الايام والسنين صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالارض ودخل من الكبر بعضى في بعض حتى انكرت نفسي وتحسرت على أمس وقلت في وصف حالى :

لما بلغت من الحياة الى مدى
قد كنت اهواه تمنيت الردا
لم يُبْقِ طول العمر منى منَّة
القى بها صرف الزمان اذا اعتدا
ضعفت قواي ، وخانني الثقتان
من بصري وسمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضت حسبت أني حامل
جبلاً وامشي حين امشي مقيدا

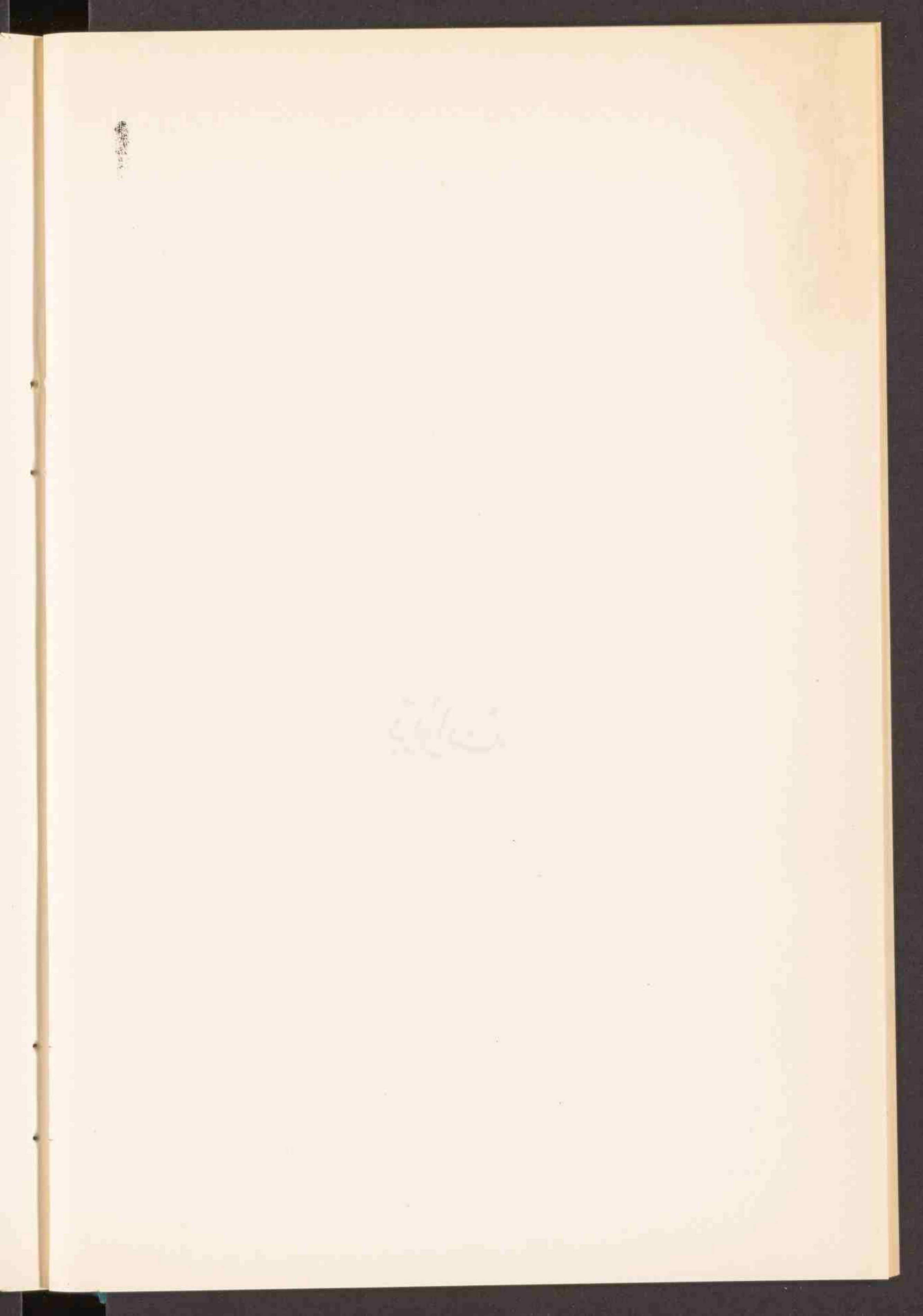
وادب في كفي العصا وعهدتها
في الحرب تحمل آسراً ومهندا

وابيت في لين المهاد وبينما
بلغ الكمال وتم ، عاد كما بدا

« وكنت اظن الزمان لا يبلى جديده ولا يهي شديده واني اذا عدت الى الشام وجدت به ايامي كعهدي ما غيرها الزمان بعدي فلما عدت كذبتني وعود المطامع وكان الظن كالسراب اللامع ــ اللهم غفرا هذه جملة عرضت ونفثة همّ اقضت ثم انقضت » .

عفوا قارئي فان اعجابي بكتاب الاعتبار وبطريقة عرض الامير مؤيد الدولة لذكرياته تركني لا انتهي من اقتباس نموذج الا وتجدني ابدأ باختيار نموذج آخر له فكل ذكرياته تعجب وتروق للقارىء وكفى بأسلوب اسامة جاذبا مشوقا .

دِيوانُهُ



نشأ اسامة بين شيزر ومنقذ كما نشأ لداته واقرانه من بني أبيه وعمومته راوية شاعرا كاتبا ، واشتهر بين ابناء عصره ومن ترجموا له بالفروسية والكتابة والشعر .

ذكره العماد الكاتب واعجب به واختار له في الخريدة وكان قد لقيه وصحبه في الشام وسمع عليه فقال : « اسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه ، حلو المجالسة حالي المساجلة ندي الندى بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف » واختار له جملة صالحة من اشعاره واخباره ، وانفرد بمقطوعات لم نجدها في ديوانه من انشاده واملائه .

وذكر الذهبي :

عن لسان اسامة انه : « كان يحفظ اكثر من عشرين الف بيت من الشعر الجاهلي » .

وروى ابن عساكر في التاريخ الكبير وهو ممن سمع عليه قال : « ان لأسامة يدا بيضاء في الادب والكتابة والشعر » ، واقتبس عن لسان احدهم قوله : أن اسامة شاعر أهل الدهر مالك عنان النظم والنثر ديوان مقطعاته احلى من الشهد والذ من النوم بعد طول السهد » وذكر ابو شامة في الروضتين ان صلاح الدين الايوبي كان عنده ديوان الامير مؤيد الدولة اسامة وهو به مشغوف ، وخاطره على تأمله موقوف ، والى استحسانه معروف» وترجم له ياقوت في موسوعته ـ معجم الادباء ـ واقتبس من شعره نقلا عن الديوان وقال انه كان متداولا بالشام بجزئين ، وكذلك قال عنه ابن خلكان في وفيات الاعيان .(١)

نسخة الديوان :

قبل ان يعثر على الديوان كان شعر اسامة يتناقله الدارسون وكتاب المقالات من كتاب الاعتبار واللباب ، ومن الكتب التي عنيت بتسجيل متفرقات من شعره

---

(١) نشر درنبورغ منتخبات من شعره باريز ١٨٩٣ .

واقدمها واحفلها به خريدة القصر ، مع هذه المتناثرات فان لاسامة ديوانا جمعه بنفسه وقد رآه ابن خلكان والعماد الكاتب والذهبي وابو شامه وغيرهم .

وقد عثرت دار الكتب على نسخة من هذا الديوان[1] جمعه بنفسه وعني به من بعده ابنه مرهف وهي النسخة التي قام بتحقيقها الدكتوران الفاضلان احمد احمد بدوي وحامد عبدالمجيد شكر الله صنيعهما فقد خدما العربية والادب العربي بتحقيقه ونشره ووعدا انهما سيلحقان بالديوان ما يعثران عليه من شعره في مصادر من كتبه وغير كتبه ، حبذا لو انجزا الوعد وشيكا خاصة وان الديوان اصبح مفقودا من الاسواق .

ذكر المحققان ان الشاعر اسامة « قد رتب ديوانه على حسب الاغراض » فباب للغزل وآخر للشكوى وثالث للمكاتبات والمعاتبات ورابع للمديح وخامس للفخر الى آخر ابواب الديوان .

وقد خلا ديوانه وما وردنا من شعره في مصادره المختلفة خلا من الهجاء حتى لقد قال :

ظلمت شعري وليس الظلم من شيمي
يطيعني ، حين ادعوه واعصيه

يهم أن يذكر القوم اللئام بما
فيهم فأزجره عنهم واثنيه

وليس من خُلُقي ثَلْبُ الغنيّ وإن جَنَى ، ولا ذكر ذي نقصٍ بما فيه

---

(١) كانت النسخة فى العراق فى خزانة كتب السيد صالح الراوى قاضي بغداد رحمه الله وكان اديبا ذواقة . فلما توفى آلت النسخة الى ولده عبدالرحمن ، وفي سنة ١٩٤٤ حين زار الكاتب الكبير ابراهيم عبدالقادر المازني قدمها عبدالرحمن له فأعجب بها ووعد بطبعها عند عودته فمضت سنون ولم يتيسر للمازني انجاز ما وعد ، وفى سنة ١٩٤٧ سافر عبدالرحمن الراوى الى مصر لاجراء عملية وبعد شفائه اخذ النسخة فأهداها الى دار الكتب وقدمت الدار اليه هدية نقدية فكانت اصل هذا الديوان .

كان اسامة يجزىء القصيدة الواحدة على الاغراض التي رتب الديوان وفقها فيضع غزلها مثلاً في باب الغزل ، ومديحها أو فخرها أو رثاءها كل غرض يوزعه على الابواب وهو يشير الى تمام القصيدة ومكانها ومكان أجزائه ويرتبه على الحروف الهجائية وقد لا يجد من الاغراض على الحروف الا أبياتا وقد لا يجد ، ومن نافلة القول ان نذكر ان اسامة كان ينظم القصيدة بكل أجزائها ويتم بناءها قبل تجزئتها .

قال الدكتور بدوي : « ولهذا النظام فائدته فى تتبع الدراسة الفنية لكل فن من فنون الشاعر على حدة وإن كانت الحاجة تدعو عند دراسة بناء القصيدة الى دراسة أجزائها كلها لمعرفة الجو الذي توحي به وادراك مدى الصلة التي تربط بين عناصرها » .

ما وصلنا من شعر اسامة في ديوانه لا يمثل ما نظمه اجمعه فهو كلما ردد في شعره النظر حذف منه ما لم يرقه وتناول شعره بالتقويم والتهذيب والتنقيح والحذف كي يسلم من الضعف وكي يكون بمصاف شعر الفحول من ناحية السبك والمعنى يقول :

كلما رددت في شعري النظر
بان ضعف العيِّ فيه وظهر
فأجيل الفكر في تقليله
فاذا قلَّ ، اختصرت المختصر
وبه فَقْرٌ الى ذي كرمٍ
إن رأى ما فيه من عيبٍ ستر

هذا شأن الرجل الذي يقدر نفسه ويحترم مركزه ، يعنيه الجيد وإن قلَّ ولا يحفل بطول القصيدة وحشوها بالتافه بقدر ما يحفل ان تكون ملتحمة الخواطر مترابطة المعاني متساوقة الفكر تأخذ بعضها رقاب بعض ، هذا كان شأنه في تخيره لشعره سواء ما كان منه من المطولات أم المقطعات وضرب المحققان مثلاً على

التحام الخواطر وتسلسلها في المقطوعة التالية ، والواقع ان شعره أكثره على هذا النسق من الالتحام والوضوح . قال :

لا تجزعنّ لخطبٍ   فكلُّ دهرك خطب
وحادثات الليالي   مُمِلَةٌ ، ما تَغِبُّ
تَروح سلما وتغدو   على الفتى وهي حرب
ولا تضق باصطبار   ذرعاً اذا اشتدّ كرب
فصبرُ يومك مرٌّ   وفي غدٍ هو عذب
كم صابرَ الدهرَ قومٌ   فأدركوا ما احبوا
وكل نار حريقٍ   يخشى لظاها ستخبو

اعجب بشعر مؤيد الدولة المتأدبون :

وظفر بعنايتهم ونال تقديرهم وتنافس رواد الشعر بالديوان فأقبلوا على كتابته فتداولوه واسامة ما زال حيا وعادة الناس ان يغلو شعر الشاعر لديهم بعد وفاته فشاع بين الناس وبارى الشعراء منهم بعض قصائده مثل قصيدته الطائية ، واختار له العماد الاصفهاني في الخريدة وأطرى شعره بعبارات الثناء والاعجاب يقول العماد : وكنت قد طالعت مذيل السمعاني ووجدته قد وصفه وقرظه ، وانشدني العامري له بأصفهان من شعره ما حفظه ، فكنت أتمنى أبدا لقياه وأشيم على البعد حَيَاه ، حتى لقيته سنة ٧١ هـ (٥٧١) الى آخر كلامه وقد تقدم ، وأنشدني لنفسه البيتين اللذين سارا له في قلع ضرسه وتصلح لغزاً :

وصاحبٍ لا أملَ الدهرَ صُحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألْقَهُ مُذْ تصاحبنا فحين بدا
لناظِريَ افترقنا فُرقةَ الأبدِ

قال العماد : في تعليقه على هذين البيتين : « لو أنصفتَ فهمك إن كنت منتقداً فرقيت عن مَرْقَب وهمك مجتهدا وغُصْتَ بنظر فكرك في بحار معانيه لغَنِمْتَ من فرائد درره ولآليه ، ولعلمت ان الشعر اذا لم يكن هكذا فلغو" وإن لم يَبلغ هذا الحد من الجد فهُجْر" ولَهْو" ، ومن الذي أتى في وصف السن المقلوع بمثل هذا الفَن المطبوع ، فهل سبقه أحد الى معناه وهل ساواه في هذا النمط سواه » .

حظي شعر الامير اسامة باعجاب الذين صحبهم أو عمل معهم أو سمعوا بسجاياه وما يزال يحظى بالحب والاعجاب ، حببت شعره الى القلوب نفس سمحة لم تهاتر الناس ولم يحقد على أحد ، تسامى عن الهجاء وترفع عن البذاء وبرئت نفسه من العقد والمنازعات الجانبية ، ملأ قلبه الرضى فجاء شعره نبيل المعنى عالي الغرض مشرق الاسلوب لم تفسده الصنعة التى كلف بها غيره فى عصره فلم يُضح بالمعنى من أجل صنعة أو زينة ، تمده ثقافة أدبية واطلاع واسع على اساليب العرب في مأثور منظومهم ومنثورهم ، ومن يقرأ كتابيه ـ المنازل والديار ولباب الآداب ، والشواهد والمنتخبات التي أودعها فيهما يدرك سعة ثقافة اسامة وطول باعه بالعربية اصولها وفروعها علومها وآدابها ، فلا عجب ان جاء شعره سلساً مهذباً كالديباج نعومة ومتانة يدخل الى النفس من غير استئذان ، يعبر عن خلجات الانسان ويترجم عن نوازع الخير والرضى والوفاء وقد مرّ القول ان الناصر صلاح الدين كان به حفيا لا يفارقه في حله وترحاله ، قال العماد الاصفهاني القرشي [1] :

« لزمت خدمة السلطان صلاح الدين أرحل برحيله وانزل بنزوله وكنت ليلة عنده وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان وعنده ديوان الامير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ وهو به مشغوف وخاطره على تأمله موقوف والى استحسانه مصروف وقد استحسن طائيته التيلو عاش الطائيان [2] لأقرا

---

(١) اثبت الاستاذ العلامة محمد بهجة الاثرى نسب العماد انه عربي قرشي راجع الخريدة تحقيقه الجزء الاول قسم العراق نشره المجمع العلمي العراقي .

(٢) أبو تمام والبحتري .

بفضلها ، وإن خواطر المبتكرين التقصر عن مثلها ، على ان الشعراء المحدثين ما منهم الا من نظم على رويها ووزنها واستمد خصب خاطره من مزنها ، يريد بها القصيدة التي كتبها الى الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك وزير مصر وقد اجابه عليها من نفس رويها ووزنها وهي مثبتة بالديوان ولاسامة وطلائع مكاتبات وقصائد كثيرة تفصح عن اعجاب كل واحد منهما بالآخر .

ومطلع الطائية :

أجيرة قلبي إن تدانوْا وإن شطوا
ومنيـة نفسي انصفوني وإن شطوا

عصـيت اللواحي فيـكم وأطعتمُ
مقالَهم ما هكذا في الهـوى الشرط

اذا كان حظي منكم في دنوكـم
صـدود فالتـداني هو الشـحط

ولو علمـوا مقـدار حظي منكم
وهمي بكم زال التنـافس والغبـط

وسيأتي ذكرها واقباس منها في باب مراسلاته :

شعر اسامة : سجل حافل لحياته وديوان يسطر وقائعه وحروبه وتأملاته يمثل حنينه الى أبيه واخوته واسرته ووطنه ، يمثل الاحداث الكبرى التي عرضت له في أسفاره مع الامراء في شيزر والموصل ودمشق والقاهرة ، مع الصليبيين والاتراك ، مع طلائع بن رُزِّيك ونور الدين وصلاح الدين ولعلَّ أكثر تلك والاحداث هي اضطراره لمبارحة شيزر موطنه ومرتع صباه ومفارقته لوالده بعد ان وجد بقاءه مصدر شقاء له ولعمه وبالتالي لوالده :

قد أفسدوا عيشي عليَّ وعيشـهم
فأنا الشـقي بهم وبي أيضاً شقُوا

وكان أكثر تلك الاحداث اسىً على قلبه نكبة أهله في الزلزلة العظمى :

بنو أبي وبنو عمي دمي دمهم
وإن أروني مناواة وشنآنا

فليتني معَهُمُ اوليتَ أنهم
بقُوا وما بيننا باق كما كانا

كما كان لتبدد ثروته بين منهوب ومسلوب اثر يحز صدره ويهيج مكامن حزنه :

اذهبتْ تالدي وطار في الـ
ـطاري فضاع الموروث والمكسوب

فهو شطران بين مصرٍ وبحر
ذا غريقٌ فيىءٌ وذا منهوب

شعره صفحات مضيئة للبطولات التي كان يقوم بها مع الذين شاركهم القتال في غزو القلاع الافرنجية ، صفحات ناصعة فيها الوفاء والحنين لاصدقائه وهم كثر .

فلما علت به السن وطال عمره واربى على التسعين راح يشكو قسوة الوحدة وثقل الوقت ، وراح يتذكر أيام شبابه ويوازن بين ضعفه الذي هو فيه وقوته أيام كان يصارع الوحوش وينازل الفرسان واليوم يجر قدمه وكأنها مقيدة بالارض وتعجز يده من حمل القلم وكانت لا تنوء من حمل الرمح والسيف، ونغص حياته وآثار اشفاقه وهو في عشر الثمانين مولودة جديدة رزقها :

رزقت فروة والسبعون تخبرها
أن سوف تُيتَمُ عن قرب وتعناني

وهي الضعيفة ما تنفك كاسفةً
ذليلةً تمتري دمعي وأحزاني

اسامة يضيق ذرعا بوحدته :

بعيدا عن أهله وعن بني وداده في زاوية من الارض لا يذكرها أحد ،

ناء عن الاهلين والاوطان والاتراب ماتوا
ولبئس عيش المرء فارقه الأحبة واللدات
فألام أشقى بالبقاء وكم تعذبني الحياة

في الديوان قصائد بينه وبين حكام المنطقة تعالج شؤون السياسة والادارة وأكثرها ما كان بينه وبين صديقه طلائع الملقب بالملك الصالح فقد اشتمل الديوان على عدد منها كانت تنضح بالود بين الاديبين وترشح باعجاب متبادل ومعالجات صريحة لتوحيد المسعى وتضافر القوى بين مصر والشام ، ويرى في اسامة محاربا شجاعا لا ضريب له ، وشاعرا مفلقا حازما وخطيبا مفوها مسموع الرأي والتدبير :

أنت فيها الشجاع مالك في الطـ
ـعن ولا في الضراب ضريب

واذا ما حرضت فالشاعر المفلـ
ـق فيما تقوله والخطيب

واذا ما اشرت فالحزم لاينـ
ـكر ان التدبير منك مصيب

قصدنا أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضاق بأدناهم الفضاء الرهيب

وفي الديوان نظرات في الحياة وتجارب نتيجة ما مرّ به من تقلب الايام وما عانى من أحداث فاستخلص منها عبرا وحكما واقعية تدل على طبيعته المتفائلة ، التي لا ترى الشرّ ضربة لازب فلا حزن يدوم ولا سرور يبقى :

القِ الخطوب اذا طرقن بقلب محتسب صبور
فسينقضي زمن الهمو م كما انقضى زمن السرور

معاناته للمعارك وتجربته علمته ان يكون رجلا قليـل الاكتراث لصروف الزمـان :

لما رأيت صروف هـذا الدهر تلعب بالبـرايا
يعلو بهـا هذا ويهبـط ذا وقصـرهم المنـايا
ورأيتـه مسترجعاً نزر المواهب والعطـايا
متغاير الاحوال مختلف الضـرائب والسـجايا
لا نعمـة فيهـا تدوم ولا تدوم به البـلايا
لم اغتبط فيـه بفائدة ولا أخشـى الرزايا

والرثاء في ديوانه أكثره في عشيرته وأهله وولده ومراثيه في موت ابنـه أبي بكر تملأ الصدر حزنا والقلب لوعة :

أزور قبـرك والاشـجانُ تمنعني
ان اهتـدي لطريقي حيث انصرف

فمـا أرى غيرَ احجـار مُنَضَّدةٍ
قد احتوتكِ ومأوى الدرة الصـدف

فأنثني لسـتُ أدري أين منقلبي
كأنني حائرٌ في الليـل مُعْتَسِفُ

أقول للنفس إن جدَّ النزاع بهـا
يا نفس ويحك أين الأهلُ والسلفُ

أليس هذا سـبيل الخلق أجمعِهم
وكلهـم بورود المـوت مُعْتَرِفُ

وكتب الى أخيه عز الدولة وقد ماتت له بنت بشيزر وهو غائب عنها وأعمامها واخواها غيّب" ، نلمس فيها عاطفة ملتاعة :

وَيْحَ الغريبـــة والديار ديارهـــا
لم ترتحـــل عنهـــا ولم تتغـرب

ماتت غريبةَ وحـــدةٍ من تربهـــا
وشـــقيقها ومن العمـــومة والاب

فهي الوحيـــدة والاقارب حولهـــا
وهي البعيـدة في المحـــل الاقرب

فاذا تَضرّم في الجوانح ذكرهـــا
قال الأســـى باللهِ يا عين اسـكب

اسامة يتجلد للمصائب :

ويظهر بمظهر الصابر غير المكترث بما نزل به من المصائب فيقول :

ايحسب دهري اني جزعت لمـــا غال من نشبي وانتهب
فقـــد اخلصتني أحـــداثه وبالنار يبـدو خلاص الذهب
وما حطني أخذه ما استعادَ ولا زادني رفعـــةً ما وهب
وما أنا الا كضوء الشـــهاب اذا نكّسُـــوه اعتلى والتهب

وقال في الترفع عن منن الرجال :

نزهت نفسي عن منِّ الرجال وإنْ
علت بهم رتب الدنيـــا وإن شمخوا

اذا المطـــامعُ قادتني الى طمـــع
يزري فماذا أفاد الشيب والشَيَخُ

وقال في المكارم وعلو النفس :

ســـأنفق وفري في اكتساب مكـــارم
أظل بهـــا بعـــد الممـــات مخلدا

وأسعى الى الهيجـــاء لا أرهب الردى
ولا اتخشـــى عاملاً ومهنـــدا

بكل فتىً يلقى المنية ضاحكاً
كأن له في القتل عيشاً مجددا

فان نلتُ ما أرجو فللجود ثم لي
وإن مِتُّ خلفت الثناء المؤبدا

وهو يبذل ميسوره في اليسر ويبذل شطر موجوده في العسر :

ما لفَّ كفيَ عن جودي بموجودي
نوائبٌ وملمات لَحَتْ عودي

في اليسر أبذل ميسوري وأبذل في
عسري لطالب رفدي شطرَ موجودي

وقال :

يقولون لي : افنيت كل ذخيرة
وأنفقت مالا لا تجود به النفسُ

فقلت نعم ، فرقت ما جَمَعَتْ يدي
وأرجو غداً يأتي بما اذهبَ الأمسُ

وقال في السلطان :

ايّاكَ والسلطان لا يدنيك من
أبوابه مُكْتَسَبٌ أو معاش

وأعلم بأنهمُ على ما كان من
أحوالهم نارٌ ، ونحن فَراش

وقال وقد رأى نملاً يتجاذب زهرة كلما أخذتها نملة انتزعتها منها اخرى:

شاهدت نملاً قد تجاذب زهرة
ذا قد تمَلّكها وهذا يَسْلِبُ

مثل الملوك تجاذبوا الدنيا فما حصلت لمغلوب ولا من يغلب

وقال ينعى على العزيز يرضى المقام بأرض يلقى فيها الهوان وأرض الله واسعة :

ما مُقام الحرّ في أرض بها الناس قليل
بلدٌ فيه عزيز القوم مقهوراً ذليل
لست ارجوك وقد لاحت لعيني المحول
انما يرتاد أرض السحل مغرور جهول ،

وهو لا يسلو عن الكرم :

سلوت عن كل حال كنت ذا شغف
بها ولم اسلُ في حال من الكرم

ما غال دهريَ وَفْرى في تقلبه
الا جعلت الندا ستراً على العدم

وقال :

استر همومك بالتجمل واصطبر
ان الكريم على الحوادث يصبر

كالشمع يظهر نوره متجملا
خوف الشمات وفيه نار تسعر

وقال :

ان فاجأتك الليالي بما يَسُوء فصبرا
فالدهر يُرهق عسرا ويتبع العسر يسرا
لو دام ما ساء منه لدام ما كان سَرّا

وقال : ولع الناس بالشكوى ، يتبرمون من الحاضر ويترحمون على الماضي:

أصبحت في زمنٍ يشيب لجوره
فَوْدُ الجنين ويهرم المولود

واذا شكونا اليوم ثم اتى غدٌ
قلنا الا يا ليت أمس يعود

ومما اختاره له العماد في الذخيرة ولم أجده في الديوان وتصلح أن تكون لغزاً (للسن) •

وصاحب صاحبني في الصِّبا
حتى ترديت رداء المشيب

لم يبدُ لي ستين حولا ولا
بلوتُ من أخلاقه ما يريب

أفسده الدهر ومن ذا الذي
يحافظ العهد بظهر المغيب

ثم افترقنا لم أصِبْ مثلَه
عمري ، ومثلي أبداً لا يُصيب

فأعجب لها من فُرقة باعدت
بين اليفين ، وكلٌ حبيب

قال : وأنشدني لنفسه من قديم شعره وهي مثبتة في ديوانه :

قالوا نهته الأربعون عن الصِّبا
وأخو المشيب يجور ثمتَ يهتدي

كم حار في ليل الشباب فدله
صبح المشيب على الطريق الاقصد

واذا عددت سِنّي ثم نقصتها
زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

يعلق على الابيات :

تعجب من مقاصد هذا الكلم ، وتعرض لموارد هذه الحِكَم ، واقضِ العجب كل العجب من غزارة هذا الادب ، ولولا المداد أفضل ما ترقَم به صحائف الكتب لحررت هذه الابيات بماء الذهب • قال وأنشدني له وهي من مرويات العماد أيضاً :

لم يبق لي في هواكم أرَبٌ
سَلْوتُكم والقلوب تنقلب

أوضَحتمُ لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تنشعِب

إن كان هذا لانْ تعبدني الحـ
ـب فقد اعتَقتْنيَ الريَبُ

أحببتكم فوق ماتوهمه النا
سُ وخنتم اضعاف ما حسبوا

وزاد ياقوت عليها بيتاً لم يكن في الخريدة :

أريتموني نهجَ السلو وقد
كانت بي الطرق عنه تنشعب

وعقب عليها العماد : ـ تأمل هذه المعاني والابيات بعين التأني والثبات تعرف ان قائلها من ذوي الحمية والنفوس الابية والهمم العلية ، وكل من يملكه الهوى ويسترقه قلما يطلقه السلو ويُعتقهُ ، الا ان يكون كبيراً غلب عقلهُ هواه واستهجن في الشهوات المذمومة نيَل مناه وقوله « قد أعتقتني الريب » في غاية الجودة ونهاية الكمال ، أعذب من الزلال وأطيب من السحر الحلال وألعبُ بقلوب المتيمين من نسيم الشمال •

وقال العماد وأنشدني من شعره أيام لقيته ٥٧١هـ :

أنستني الأيامُ أيامَ الصِّبا
وذهلت عن طيب الزمان الذاهب

وتنكرت حالي فكل مآربي
فيما مضى ماهنَّ لي بمآرب ،

وفي ذلة الشكوى قال :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طَلْقٌ وقلبي مُكْمَدٌ باك

وراحة القلب في الشكوى ، ولذَّتُها
لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي

علق عليها العماد « لو امكنت » فما أحسنها موقعاً وأجملها موضعاً ثم قارن اللذة بالذلة وهما متجانسان .

قال وقد رأيته وقد أهدي اليه دهن البَلسَان فسألت عنه فقال كتبت الى المهذب الحكيم بن النقاش هذه الابيات :

رُكْبَتي تخدم المهذب في العلـ
ـم وفي كل حكمة وبيان

وهي تشكو اليه تأثير طول الـ
عمر في ضعفها وفرَّ الزمان

فَبِها فاقةٌ الى ما يقوِّيها
على مشيها من البَلسَان

كل هذا علالة ، ما لمن حا
ز الثمانين بالنهوض يدان

رغبةٌ في الحياة بعد طول الـ
عمر والموتُ غايةُ الانسان

وقال العماد : حضرت عند الامير مؤيد الدولة يوماً آخر بدمشق فأنشدني قوله من القديم في استدعاء صديق الى مجلس المنادمة بالموصل (٢٢٥ - ٥٢٦ هـ) مداعباً وقد انفرد بها العماد :

أمهـــذب الدين استمع من عاتب
لولا ودادك لم يَفُـه بعتـــاب

أمللتني وجعلت سكرك حجة
ونهضت ، أم لم تستحل شرابي

قسماً لئن لم تأتني متنصلاً
متبرعاً بالعـــذر والاعتـــاب

لأحرِ مَنَّ الخندريس وأغتـــدي
متنسماً بالمـــاء والمحـــراب

وتبــوء معتمـــداً بإثم تنسكي
وبعـــابه ، اعظم به من عاب ،

عفا الله عنه وغفر له هذا من لهو الحديث أو من نزوات الصبّا والشراب والا متى كان النسك اثماً وعابا ؟

قال العماد : وتناشدنا بيتاً للوزير المغربي (١) في وصف خفقان القلب وتشبيهه بظل اللواء تخترقه الرياح وهو :

كأن قلبـــي اذا عنّ اذكاركـم   ظل اللواء عليه الريح تختـرق

فقال الامير مؤيد الدولة اسامة ، لقد شبهت القلب الخافق وبالغت في تشبيهه وأربيت عليه في قولي من أبيات هي :

---

(١) هو ابو القاسم الحسين بن علي بن الحسن المغربي وزير من الدهاة الادباء العلماء ولد بمصر سنة ٣٧٠ وقتل الحاكم الفاطمي اباه فهرب الى الشام ثم الى بغداد والموصل واستوزره مشرف الدولة البويهي ببغداد ومات بميافارقين .

أأحبابنا كيف اللقاء ودونكم
عرض المهامة والفيافي الفيح
أبكيتم عيني دماً لفراقكم
فكأنما انسانها مجروح
وكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهبُ الضرام تعاورته الريحُ ،

فقلت صدقت فان الوزير المغربي قصد تشبيه القلب وأنت شبهت القلب الواجد باللهب وخفقانه باضطرامه لتعاور الريح فقد اربت بالفصاحة على الفصيح : وعندي خير من تشبيهيهما قول العذرى :

كأن قطاة علقت من جناحها على كبدي من شدة الخفقان

عند الملك الناصر :

واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين بدمشق وكان يلعب بالشطرنج فقال لي الامير اسامة أما انشدك البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ قلت هات فأنشدني لنفسه :

أنظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالياً ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلاها وما فيها

وقال : يبكي أهل وداده :

أصبحت لا أشكو الخطوب وانما
أشكو زمانا لم يدع لي مشتكي

أفنى اخلائي وأهل مودتي
وأباد اخوان الصفاء وأهلكا

عاشوا براحتهم ومتُّ لفقدهم
فعليَّ يبكي لا عليهم من بكا

وقال :

تقلب أحوال الزمان أفادني
جميل الاسى فيما ينوب من الخطب

اذا حلَّ ما لا يستطاع دفاعه
فما أجمل الصبرَ الجميل بذي اللبِّ

وقال :

صبراً لايام تناهت في معاندتي وعضي
فالدهر كالميزان ما ينفك من رفعي وخفضي
هذا مع الافلاك مرتفع وذا بحضيض أرضِ
والى الفناء جميع من خفضته أو رفعته يقضي

وقال :

حسن التواضع في الكريم يزيده
فضلاً عن الاضراب والامثال

يكسوه من حسن الثناء ملابساً
تنبو عن المترفع المختال

ان السيول الى القرار سريعة « والسيل حرب للمكان العالي »
والشطر الثاني من البيت الأخير من بيت لابي تمام هو :

لا تنكري عطل الكريم عن الغِنَى
والسيل حرب للمكان العالي

التضمين في شعره :

في شعر اسامة أبيات ضمن اشطرها الاخيرة لشعراء معروفين والتضمين جوّزه الشعراء ويدل على اعجاب الشاعر بشعر غيره وفي قصيدة اسامة الميمية التي عاتب بها معين الدين أُنَر ورد تضمين عدد من الابيات مثل قوله :

وأنت أعدل من يشكى اليه
شكية « أنت فيها الخصم والحكم »

والبيت للمتنبي في سيف الدولة الحمداني :

يا أعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقوله :

وما ظننتك نفسي حق معرفتي
« ان المعارف في أهل النهى ذِمَمُ »

من قول المتنبي أيضاً :

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ان المعارف في أهل النهى ذمم

وقوله :

لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم
« حتى استوت عندك الانوار والظلم »

وأصل بيت المتنبي :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
« اذا استوت عنده الانوار والظلم »

وقوله :

لكن رأيك ادناهم وأبعدني فليتَ أنّا بقدر الحبّ نقتسم

وبيت المتنبي :

ان كان يجمعنـــا حُبٌ لغرتـــه
فليت أنا بقـــــدر الحب نقتسم

وقولـــه :

وما سخطت بعـــادى اذ رضيت به
« فمـــا لجرح اذا ارضـاكم الم »

اصل بيت المتنبي :

ان كان ســـركم ما قـــال حاسدنا
« فمـــا لجرح اذا أرضـاكم الم »

وقولـــه :

ولست أسى على الترحال من بلد
« شهب البزاة سواء فيـــه والرخم »

وبيت المتنبي :

وشـــر ما قنصتـــه راحتى قنص
شهب البزاة ســـواء فيـــه والرخم

موازنة بينه وبين شعراء عصره :

اود ان اختم بحثي عن شعره ومنزلته بين شعراء عصره .

بجمع النقاد وكتاب ترجمته والذين اختاروا له يجمعون على ان اسامة كأسمه في شعره ونثره كما قال العماد ، عد بجدارة زعيما لشعراء عصره من امثال طلائع بن رزيك ، وعمارة اليمني والمهذب بن الزبير واخيه والعماد الكاتب ومن ترجم لهم العماد من شعراء تلك الفترة وخاصة الشاميين ، وقد يكون لثقافته من جهة ودقة حسه من ناحية ثانية ووضوح شعره أثر كبير فى تفوقه ولعل ترفعه عن التكسب بشعره وعنايته بتنقيح مقطوعاته ومطولاته وتشنيبها وحذف الضعيف منها ولعل نبل اغراضه وترفعه عن الهجاء والخصومات لعل سلامة طويته ونقاء صدره من الحقد لعل ذلك كله هو الذى رفع مكانته وجعله زعيما للشعراء المعاصرين له .

النقص البارز في الديوان :

اهمل اسامة تأريخ قصائده ولو فعل وأرخ شعره لأمكنا أن نحكم على تطوره وتدرجه من ناحية قوته وضعفه وهذا النقص لا يسعف الدارس لشعر اسامة ان يعرف تطوره معرفة يقين على تتبعه منذ ان بدأ ينظم الى ان وقف نبض الشعر في قلبه ، ولكن برغم هذا النقص فبامكان المتتبع أن يتابع الاحداث التاريخية التي عاناها ومارسها وقال فيها قصائده وقد كانت دراستي لحياته واستشهادي بشعره محاولة لمعرفة هذا التطور أو هي مفتاح لهذا التدرج ، مثلاً صاحبته وهو في شيزر والى تركه لها سجلت له بعض القصائد والمقطوعات ، منها عتبه على بني عمه ومنها المقطوعات التي استأذن بها والده ومكاتباته اليه من الموصل الى **٥٣١** هـ ، ثم رحلته الى دمشق أيام معين الدين **٥٣٢ – ٥٣٩** هـ ثم رحلته الى القاهرة من **٥٣٩ – ٥٤٩** – من الممكن ان تضيف اشعاره في هذه الفترات ما قاله **٥٥٢** في الزلزلة وما كتبه قبل هذا التأريخ الى ابن عمه بشأن أخيه لفك اساره ومراسلاته مع طلائع ومع اخوانه وما قاله في حصن كيفا ذلك يكون فترة زمنية ثم الشكوى والسأم من الهرم والوحدة وهو في عشر الثمانين الى ان وقف قلبه ، قصيدته الى العماد والقاضي الفاضل والى صلاح الدين من **٥٧١ – ٥٨٤** .

ناحية ثانية أهملها اسامة حين رتب ديوانه فانه اهمل قصائد كثيرة لم يذكر الشخص الذي قيلت فيه ، وان تجزئة القصيدة الواحدة على الاغراض التي جزأ قصائده وفقها تجعل المتتبع لبنية القصيدة في عناء وإن كان المحققان قد خففا بعض هذا العناء بالاشارة الى اجزائها المتقدمة أو المتأخرة وان النسخة التي حققها الدكتوران يرجع تأريخها الى سنة ثمان وثمانين وستمائة هجرية .

المنازل والدّيار

الأصح هو ان نقدم كتاب المنازل والديار على سائر كتبه لانه أول كتاب قام بتأليفه بدأه بعد زيارته لمدينة شيزر بعد ان نكبتها الزلزلة العظمى فجعلت عاليها سافلها وذلك سنة « ٥٥٢ هـ » شرع بوضعه وجمع المادة له وهو ما زال في دمشق بصحبة نور الدين محمود وانتهى من تدوينه في جمادى الاولى سنة ثمانٍ وستين وخمس مئة كما نصَّ عليه في نهاية كتابه ، أتمه وهو في حصن كيفا وقد انقطع عن الناس وأقبل على مكتبات البلدة يقتبس من كتبها القيمة فكان ينهل منها مادته ويختار نصوصه ، من نثر وشعر .

موضوع الكتاب :

موضوع الكتاب البكاء على المنازل العافية والرثاء للاطلال البالية حفزَّه على ما حلَّ بأهله وموطنه من الزلزال التي اجتثت أهله من فوق الارض ولم ينج من عشيرته الا من كان في سفر أو كان يعيش في بلد آخر كما حصل للمؤلف وابنه واخويه ، أراد ان ينفس عن صدره المكروب بما قاله مَنْ سبقه من شعر أو نثر فيه معنى يتناول البكاء على الديار والموقوف على المنازل والآثار وما يضيفه من شعره الى فصوله بهذا المعنى فانفرد كتابه بجملة صالحة من شعره لم يرد له ذكر في الديوان .

ولما كان موضوعه متشعبا يتناول معاني كثيرة لذلك وجدناه قد جعل لكل معنى فصلاً يقدمه بشيء من النثر ويكثر من منتخبات الشعر يختار من الشعر الجاهلي فالاسلامي ثم للمولدين حتى زمانه ، وقيمة الكتاب : لا تقتصر على ابراده هذه النماذج المتخيرة فحسب وانما قيمته بالدرجة الاولى ترجع الى ان الكتاب حفظ لنا قدراً كبيراً من النصوص لا نصيبه في كتاب غير هذا الكتاب .

نسخة الكتاب :

ان الاصل الذي اعتمد عليه المكتب الاسلامي في اخراج الكتاب : هو النسخة

المطبوعة بالاوفست عن نسخة اكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي والتي نشرتها دار النشر للآداب الشرقية باشراف «أنس خالدوف» سنة ١٩٦١ عن المخطوطة الوحيدة التي رجع اليها الناشرون بخط المؤلف علقها لنفسه ووقع الفراغ منها في جمادى الاولى سنة ثمان وستين وخمسمائة كما نص في آخرها » .

يقول العلامة الطالوي مالك النسخة ان الكتاب سمع على مؤلفه بدمشق سمعه عنه غير واحد وان علماء الشام كانوا يتداولونه .

وقد أحسن المكتب الاسلامي في تخريج ما ورد في الكتاب من النصوص في الرجوع الى المصادر الادبية وتحقيق ما ورد فيه اختلاف ، وشرح غريب الالفاظ وازالة غموضها ، وعزى المحققون ما اغفل نسبته المؤلف الى قائله قدر المستطاع ، وعرفوا ببعض الاعلام من الشعراء وغيرهم وخاصة المنسيين منهم شكر الله جهدهم فقد بذلوا عناء كبيراً في ضبط النص وتفسير غريبه والتعليق عليه فجاء الكتاب مزدوج النفع وفي احيائه ونشره خدمة للعربية ولقرائها .

مقدمة المؤلف :

بسم الله الرحمن الرحيم

« قال اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني غفر الله له ولجميع امة محمد صلى الله عليه وسلم » .

الحمد لله وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال الى حال ، وعَفَّتْ رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا وتصدع شملنا أيدي سبا ، وتشعبت بنا سبل المذاهب وأخنت الحوادث على معشري وآلي ، وأفنى الموت اسودي واشبالي كل ذلك بقدر جرى به القلم في القدم ، وقضاءٍ سبقتْ به المشيئة قبل الخروج الى الوجود من العدم ، القَى ما سرّ من ذلك وساء بالتسليم والرضى ، وافوض اليه ـ جل وعلا ـ فيما قدر وقضى ، وأقرُّ بأن ابتلاءه بعدله ومعافاته بفضله ، وأرجو من رحمته أن يكون ذلك كفارة للذنوب

سلفت وموعظة دعت عن المعاص وصرفت وان ما نالنا من الدنيا وآفاتها بذنوب اقترفناها فرحمنا بتعجيل مكافاتها ، وصلى الله على رسوله الامين محمد خاتم النبيين الذي وصفه في كتابه الكريم فقال « وانك لعلى خلق عظيم » وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه البررة المتقين وأزواجه الطاهرات امهات المؤمنين صلاة دائمة الى يوم الدين .

وبعد جعلك الله بنجوة من النوائب واصفى لك الحياة من كدر الشوائب ، ولا راعك بحادثة تُنسي ما قبلها ، وتُصغّر ما بعدها وتفتح من النكبات أبوابا لا تستطيع سدها ، فاني دعاني ما نال بلادي واوطاني من الخراب ، فان الزمان جرّ عليها ذيله وصرف الى تعفيتها حَولَه وحَيْله ، فأصبحت كأنْ لم تغنَ بالأمس ، موحشة العرصات بعد الانس ، والمسرات بها حسراتٍ وهموما ، ولقد وقفت عليها بعدما أصابها من الزلزال ما أصابها ، وهي أول أرض مسّ جلدي ترابها (١) فما عرفت داري ولا دور والدي واخوتي ولا دور اعمامي وبني عمي واسرتي فبهت متحيراً ، مُستعيذاً بالله من عظيم بلائه وانتزاع ما خوله من نعمائه .

ثم انصرفت فلا أبثُكَ خيبتي

رَعِشَ القيام أميس مَيْسَ الاصور (١)

وقد عظمت الرزية حتى غاضت بوادر الدموع ، وتتابعت الزفرات حتى أقامت حنايا الضلوع ، وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك السكان بل كان هلاكهم اجمع كارتداء الطرف أو اسرع ثم استمرت النكبات تترى من ذلك الحين وهلمّ جرّا ، فاسترحت الى جمع هذا الكتاب ، وجعلته بكاءً للديار والاحباب ، وذلك لا يفيد ولا يجدي ، ولكنه مبلغ جهدي ، والى الله عزّ وجل اشكو ما لقيت من زماني وانفرادي من أهلي واخواني ، واغترابي عن بلادي واوطاني لو كانت الاحلام فاجأتني بما القاه يقظان لاصماني الردى ،

---

(١) اقتباس من قول الشاعر

بلاد بها نيطت على تمائي وأول أرض مس جلدي ترابها

(٢) الصور : الليل . الميس المشى أي اتخبط تخبط الماشى بليل .

واليه عزّ وجلّ أرغب في ان يمن عليّ واليهم بغفران ويعوضنا برحمته في دار رضوانه انه لا يرد دعاء مَنْ دعاه ولا يخيب من رجاه .

وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً ، ففتحت كل فصل بما يوافق حالي ثم أفضت فيما يوافق القلب الخالي لكي لا يأتي الكتاب وهو كلّه عويل ونياحة ليس فيه لسوى ذي البث راحة .

على ان رزايا الدنيا تمهل ولا تهمل ، وإن تولت اليوم فغداً تقبل ، فما أحدٌ من ريبهن سليم ، وتتبع هذا المعنى صعبٌ وحصره لا يمكن ، وقد أوردت فيه ما يبرد اللوعة ، ويسكن الروعة ، والعذر الى من وقف عليه مبذول وهو عند الكرام مقبول .

فصول الكتاب :

والكتاب في جزئين كبيرين اشتمل الجزء الاول على ٣٦٥ صحيفة والجزء الثاني على ٣٤٠ من غير الفهارس للموضوعات والاحاديث والآيات والقوافي والشعراء مرتبة على الحروف الهجائية وأردفها بفهرس للشعراء مع القوافي وختمها بفهرس عام بالاعلام وبثبتٍ بالمصادر التي رجع اليها الناشرون وفي هذه الفهارس خدمة للكتاب تعين القراء على استخراج النص ومراجعة ما يرغبون بسهولة ويسر من فصوله :

في ذكر المنازل ، في ذكر الديار ، في ذكر المغاني ، في ذكر الاطلال ، في ذكر الربع ، في ذكر الدِمَن في ذكر الرسم ، في ذكر الآثار ، في ذكر المساكن والمعاهد والاعلام والمعالم والعرصات ، في ذكر الاوطان ، في ذكر الارض في ذكر المدن ، في ذكر البلاد في الدار ، في البيت ، في بكاء الاهل والاخوان .

وبعد : فالكتاب وإن كان موضوعه البكاء على المنازل والديار ووصف ما نالها من الخراب وما حل بسكانها من الهلاك وإن كان الهدف من جمعه واختيار اخباره التسرية عما نزل بصدر كاتبه من الحزن وتفريج الكرب بذكر ما فيه الاعتبار

والتأسي والتعزية والتسلي فان الكتاب موسوعة أدبية زاخرة بالأخبار والاشعار والامثال ، والكتاب شاهد عدل لما اتصف به مؤلفه من ثقافة ذذات أصـالة ومعرفة تتسم بالسعة أين منها متأدبونا الذين راحوا يتيهون على الماضين بما ليس فيه غناء وانما هو اجترار وحبذا لو احسنوا فهم النص واجادوا النقل •

نموذج من فصول الكتاب

هذا من فصل عقده المؤلف في بكاء الاهل والاخوان وجعله خاتمة كتـابه وكان هـذا الفصل قمينا ان يقدم على فصـول الكتاب وحقيقاً ان يفتتح به المؤلف موضوعاته لان المنازل انما تبكى لسكانها :

وما حبُّ الـديار شغفنَ قلبـــي
ولكـن حب من ســكن الديارا

قال المؤلف :

هذا الفصل موضعه صدر الكتاب اذ كانت المنازل والديار انما تبكى لسكانها من الاهل والاخوان والاحباب لكني أخرته لأختم به الكتـاب ، قال « روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، انه كان كثيراً ما يتمثل بهـذا الشعر » :

ألا قد أرى والله أنْ لست منـكم
ولا أنتم منـــي وإن كنتـم أهلي
وأني ثَوِيٌّ قد أحمَّ انطـلاقه
يحييه من حيـاه وهو على رحـل
ومنطلق منـــكم بغير صحـــابة
وتابع اخواني الذين مضــوا قبلي

ألم أكُ قد صاحبت عمراً ومالكاً
وادهم يعدو في فوارس أو رجلي
وصاحبت شيْبَانا وصاحبت ضابئا
وصاحبني الشمُّ الطوال بنو شبل
اولئك اخواني مضوا لسبيلهم
يكاد ينسيني تذكرهم عقلي
يقول اناسٌ (١) أخْلياءُ تناسهم
وليس بناس مِثلَهم أبداً مثلي
ألاكَ أخلائي اذا ما ذكرتهم
بكيت بعينٍ ماء عبرتها كُحلي
وكانا اذا ما القُرُّ هبت رياحه
وضمَّ سواد الليل رحلاً الى رحلي
يُدرُّون بالسيف الوريدين والنسا
اذا لم يقم راعي اناس على رِسْلِ
اذا ما لَقُوا أقرانهم قتلُوهمُ
وإن قُتِلوا لم يقشعروا من القتل
فكم من أسيرٍ قد فككتم قيوده
وسجل دمٍ أهرقتموه على سجل
وقال يزيد بن ضبة بن مُقسم (٢) :

---

(١) في امالي اليزيدي : يقول رجال بدل اناس ، والسجل الدلو
(٢) ضبة امه غلبت على نسبه ، واسمه يزيد بن مقسم الثقفي وكان منقطعا الى الوليد بن يزيد ٠

لم ينسَ سلمى فؤادك السدك (١)
وكيف تســلو وأنت مُحتَنِك

لو كان ما واحداً هواك لقـد
اقصرت لكــن هواك مشــترك

تقول ســلمى واستنكرت عجبـا
ما بال أشـياء منــك تُنْتَهكُ

فقلت من ترحــة ومن أسفٍ
أبنــاء عوف ومالكٍ هلكــوا

وقال **مقّاس (٢) بن شريك** بن عمرو حليف" لبني شيبان :

بكيت شـريكاً في الغُوار واسـوَدا
وذو العَلْق حتى مـا بعيني من بَلَلْ

رجالاً لهم رِبْعيةُ المجد لم يخف
مجاوِرُهم ريبَ الحوادث والزَلَلْ

وكُنَّا بهم نَرْعَى الجميع ونأكل الـ
ـربيعَ ونكفي حامِلَ القرم ما حَمَلْ

---

(١) السدك المولع بالشيء والمحتنك المتناهي عقله وسنه واحتنك الرجل اي قوى واستحكم .

(٢) مقّاس : لقب لقب به لان رجلا قال : هو يمقس الشـعر كيف شاءه وقال ابن الكلبي : سمى مقاساً بقوله :

مقست لهم ليل التمام بفتيةٍ الى ان بدا خيط من الفجر طالع

واسمه مهر بن النعمان ترجمته فى السمط ٢١٢ ومعجم المرزباني ٣٣١ والمؤتلف والمختلف للآمدي ، ١٠٧ .

وقال ابن المعتز :

لله ِ اقـــوام ٌ فقـــدتُهُمُ   سكنوا بطون الارض والحُفَرا[1]
مَرَ دَ الزمـانُ عليَّ بعـــدهم   وعرفت طول الهم والسَّـــهَرا

وقال نَهَار بن نوْسَعَة يرثي أخاه عِتْبان :

عِتْبانُ قـد كنتُ أمرءاً لي جانب
حتى رُزِيتُك والجدُود تَضَعْضَعُ
قد كنتُ اشـــوسَ في المقادة سادراً
فنظرت قصدي واســتقام الاخـــدع
وفقـــدتُ إخواني الذين بعيشـــهم
قـــد كنت اعطى ما اشـــاء وأمنـــع
فَلِمَنْ اقـــول اذا تلم مُلِمَّـــةٌ
أرني برأيـــك او الى من افـــزع

وقال البَرَاء بنُ رِبْعيّ :

أبعْـــدَ بني امي الذين تتـــابعوا
أُرَجّي حيـــاةً أو من الموتِ أجزعُ
ثمانيـــة كانـــوا ذُؤابـــةَ قومهم
بهـــم كنت أُعطي ما اشـــاء وأمنع

---

(١) البيت الاول في زهر الاداب ٧٨٧/٢ ضمن قصيدة مطلعها :

أخنى عليـك الدهر مقتـدرا   والدهـر الام غالبٍ ظفرا

وكانوا كنَبْل المُرتمى في كِنانةٍ
فأضحتْ وما فيها من النبل أفزعُ (١)

وانشد ابو زيد عن المفضل :

أخ لا اخالي غيره غير انني
كراعي الخيال يستطيف بلا فِكْرِ
فانَّ حراماً أنْ ارى الدهرَ باكياً
على الفه الابكَيْتُ على عمرو

وقال الفرزدق همئام بن غالب يرثي همام بن ناشزة احد بني عامر :

وقفت فأبكتني بدار عشيرتي
على رُزْئهنَّ الباكيات الحواسرُ
غدوا كسيوف الهند ورّاد حَوْمَةٍ
من الموت أعيا وِرْدَهُنَّ المصادر

محامين حاموا عن حريم وحافظوا بدار المنايا والقنا متشاجر
كأنهم تحت الخوافِق اذ غَدوا الى الموت اسدُ الغابتين الهواصرُ
ولو ان سلمى نالها مثل رُزْئِنا لهُدَّتْ ولكن تحمل الرزءَ عامر

عن الشعبي قال : كنت عند عبدالله بن جعفر بن ابى طالب رضوان الله عليهما . فأنشدته قول حارثه بن بدر الفُداني :

---

(١) الاهزع من السهام الذى يبقى فى الكنانة وحده وقيل هو خير السهام وافضلها تدخره لشديدة ، وقيل هو آخر ما يبقى فى الكنانة جيداً كان أو رديئا .

وكان لنــا نَبْعٌ يَقينــا فروعُهُ
فقد بَلَغتْ الا قليلا عُروُقُهــا[1]

وشيَّب رأسي واستخفَّ حُلومَنــا
وتُتْرَكُ أخرى مُرَّةً ما تَذُوقُها

رأيت المنــــايا باديات وعُــوَّدا
الى دارنا سَهْلاً الينــا طريقهــا

وقد قسَّمتْ نفسي فريقين منهمــا
فريق مع الموتى وعنــدى فريقهــا

فقال لي ابن‌جعفر رضي الله عنهما نحن احق بهذا الشعر وجاءه غلامه بدراهم في منديل فقال هذه غلَّةُ أرضك بمكان كذا وكذا فقال القها في حجر الشعبي فرمى بها اليَّ .

وقال أبو دؤاد الايادي :

لا اعــدُّ الأقتــار عُـدْماً ولكنْ
فَقْدُ مَنْ قد رزئتـــه الاعدام[2]

من رجــالٍ من الاقارب فــادوا[3]
من خــدام هم الرؤوس العظــام

من رجال أبوهم ، وأبي عمــرو
وكعب بيض الوجـــوه وســـام

(١) الابيات مع الخبر في الاغاني ٢٣/٤٦٧ ، ٤٦٨ .
(٢) ديوانه : ٣٣٨ والاصمعيات ٢١٥ ، الاقتار قلة المال وضيق العيش.
(٣) فادوا اى ماتوا .

وشبابٍ ، كأنهم اسدُ غيل
خَالفَتْ فرطَ حَدِّها الاحلامُ (١)

وكهولٍ بنى لهم أولُوهُم مَأثُراتٍ يهابُها الأقوام
فيهمُ للملايين أناةٌ وعُرامٌ اذا يراد العُرام (٢)

وسماح لذي البنين اذا ما
قحطَ القَرُّ واستقلَّ الغمام (٣)

سلط الموتُ والمنون عليهم
فلهم في صدى المقابر هام

وكذاكُم يصيرُ كلُّ اناسٍ
سوف حقاً تبليهم الأيام

فعلى إثرهم تساقط نفسي
حَسَرات وذكرهم لي سقام

وقال زبّان بن منظور بن سيّار :

لئن فُجِعْتُ بالقُرَناء يوماً
لقد متعت بالأمل البعيد

---

(١) في الاصمعيات خالطت بدل حالفت ، الغيل الاجمة ، والحد ، الحِدة والغضب .

(٢) في الاصمعيات : فهم للملائمين ، والملائم الموافق واناة بمعنى تأني والعرام الشدة .

(٣) القَرّ البرد واستقل ارتفع وفي الاصمعيات قحط القطر واستقل الرهام والرهام الامطار الضعيفة .

وما تجـــد المنيـــة فوق نفسي (١)

ولا نفس الاحبـــــــة من مزيد

السـمـنا انفسـاً وبني نفـوس

ولسـنا بالسـلام ولا الحـديد

قال الاصمعي : انشدني المذحجي لأم معْدان الانصارية

لا يبعـد اللهُ فتيـاناً رُزئتهـم

بانوا لوقت منـاياهم فقـد بَعُدوا

أضحت قبورُهُم شـتى ويجمعُهُم

رَوْ المنون ولم يجمعهمُ بلدُ(١)

مَيْتٌ بِمصْرٍ ، ومَيْتٌ بالعراق وميت بالحجاز منايا بينهم بَدَدُ

رعَوْا من المجد اكنافاً الى أجـل

حتـى اذا بلغت اضـماؤهم وردوا

كانت لهـم همـم فرّقْن بينهم

اذا القعـاديدُ عن أمثالها قعـدوا

فعـلُ الجميلِ وتفريج الجليـل

واعطاءُ الجزيل اذا لم يُعطِهِ احدُ

قلت لي ابيات تشبه معنى هذه الابيات ، وهي شرح حال صحيحة لا على مذهب الشعراء وذلك انني مرّ بي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من زار قبر أبويه

---

(١) في الذيل : وما تبغي المنية حين تأتي ...

(٢) رو المنون الرو الهلاك واختلاف المنية كما جاء في الاصـل تحت لفظة الر .

أو احدَهما في كل جمعة غفر له وكتب برا » (١) فآسفني ما حُرمته من زيارتهما وشتات شملنا احياءً وامواتا فقلت :

نافستني صروف دهري في الفو
ز ببر الاباء في الرَجَم
لو كنت أسطيعُ ان ازورهما
مشياً على الرأس لا على القدم
بادرتُ أمشي الى ثرى جَدَثيْ
أعزِّ اهلي عليَّ كالقلم
لكنْ بمصرٍ قبرٌ وفي شيزر
قبرٌ وداري بمنتأى العجم (٢)
والظلم في الارض ما نعي كل ما
ابغيه حتى زيارة الرمم
وما ظننت الذي لقيت من الد
نيا تراه عيناي في الحلم

وقال ابو ذؤيب الهذلي واسمه خويلد بن خالد وهلك له بنون خمسة في عام واحدٍ أصابهم الطاعون وكانوا توجهوا الى مصرَ .

أمن المنون وريبها تتوجع
والدهر ليس بمُعْتِبٍ من يجزع

---

(١) رواه الحكيم الترمذي والطبراني عن أبي هريرة ، قال الهيثمي : فيه عبدالكريم ابو امية ضعيف .
(٢) يريد به حصن كيفا ويقع شمال شرقي ميافارقين .

قالت أميمـــة ما لجسمك شـــاحباً
منذ ابتَذَلتَ ومثل مالك ينفع (١)

أم ما لجنبـــك لا يلائم مضـجعاً
الا اقضَّ علـيـك ذاك المَضْجَعُ

فاجَبْتُها أنْ ما لجســمي أنَّـهُ
أودى بني من البـلاد فودعوا (٢)

أودى بنـي وأعقبـوني حسـرةً
بعـد الرقاد وعبـرةً ما تُقلعُ

سَبَقُوا هَوَيَّ وأعْنقوا لِهواهـم
فَتَقَدْتُهم ولكـل جنبٍ مصرعُ (٣)

ولبثتُ بَعْـدَهُم بعيشٍ ناصبٍ
وإخـــال اني لاحـق مُسْتَتْبَعُ

ولقد حرصتُ بأن ادافع عنهــمُ
واذا المنيـــة أقبلت لا تدفـعُ

واذا المنيـــة أنشبت أظفارهـــا
الفيت كـــل تميمـــة لا تنفـعُ

فالعين بعـــدهم كأن حداقَهـــا
كُحِلَتْ بشوك فهي عورٌ تدمع (٤)

---

(١) الشاحب : المتغير ويروى ما لجسمك سائبا أي بسوء ، وابتَذَلت اي امتهنت نفسك واهملتها ، ويروى بالبناء للفاعل ٠

(٢) قال الاصمعي : ان ما لجسمي في موضـع الذي يقول ان الـذي بجسمى حزنى لذهاب ولدي ٠

(٣) في ديوان الهذليين والمفضليات : فتخرموا ، وهويَّ بمعنى هواي بلغة هذيل اى ماتوا قبلى وكنت ارغب ان اموت قبلهم ، واعنقوا اى اسرعوا ٠

(٤) في ديوان الهذليين : سملت بشوك ، وفي رواية فهي عورى ٠

حتـــى كـــأني للحوادث مَرْوَةٌ
بصفا المُشَقَّر كل يومٍ تُقرعُ (١)

وتجـــلدي للشـــامتين أُريهُـــمُ
أني لـــريب الدهـــر لا اتضعضعُ

وقال ابو ذُؤيب ايضا :

ديار التي قالت غـــداة لقيتهـــا
صَبَوْتَ أبا ذيبٍ وأنتَ كبـــير

تغيَّرْت بعدي أو أصـــابك حادث
من الدهر أم مَرَّتْ عليك مرورُ

فقلتُ لها فقـــدُ الأحبـــة أنني
حديث بأرزاء الكـــرام جـــدير

فراقٌ كنَغْضِ السِنِّ فالصَّبْرُ إنه
لكـــل أناس عثرةٌ وجبـــورُ

نغضُ السِّن : تحريكها ، قال الله تعـالى (فسينغضونَ اليك رؤوسهم) [الاسراء آية ٥١] أي يحركونها ويروى كقيض السنِّ ، وقيضها : انشقاقها ،

فأصبحت أمشـــي في ديار كأنهـــا
خِـــلافَ ديار الكاهليـــةِ عُورُ

يقال : خلفٌ أعور اذا كان فاسداً يقول هـذه الدار خلفٌ أعورُ من هاتيـك :

---

(١) المروة : حجر أبيض براق تقدح منه النار ، والمشقر حصن بالبحرين وفي المفضليات بصفا المشـرق : والمشرق مسجد الخيف من مِنى وخصه لكثرة مرور الناس به ٠

وقال ابراهيم بن هَرْمَةَ :

أنادي اذا أوفى مَن الارض مرباً
لاني سـميعٌ لو أجاب بصيرُ

تفانوا ، ولم يُبقَوا ، وكل قبيلة
سريعٌ الى وِرْدِ الفناءِ كرامُهَا

وقال أبو العيص بن حزام :

وكيف وقد صاروا عظاما وأقبـرا
يصيح صـداها بالعشي وهامُهـا

وكم من صاحب قـد ناءَ عنـي
رُميت بفقـده وهـو الحبيبُ

فلم أبدِ الـذي تُخفي ضـلوعي
عليـه وإننـي لأنـا الكئيبُ

مخـافةَ أن يراني مُسْـتكينا
عـدوٌ أو يسـاء بـه قـريب

فيشـمت كاشِـحٌ ويظـنُ أني
جزوعٌ عنـد نائبـة تنـوب

فبعْدَكَ مدّتِ الاعـداءُ طَرْفاً
الـيَّ ورابنـي دهـر مريب

وأنكرتُ الزمـانَ وكـلَّ أهلـي
وهـرتني لغيبتـك الكليـبُ

وكنت تَقطَعُ الأبصـارُ دوني
وإنْ وَغِرَتْ من الغيظ القلوبْ

ويمنعني من الأعداء اني
وإن رَغِمُوا ، لمخشيٌّ مَهيبُ

فلم أر مثل يومك كان يوماً
بدتْ فيه النجومُ فما تغيب

وليلٍ ما أنام به طويلٍ
كأني للنجوم به رقيب

وما يك جائياً لابُدَّ منه
اليك فسوف تجلبه الجلوبُ

وقال كثيرُ بن عبدالله وهو ابن الغريره وهى امه(١) :

الا مَنْ لشوقٍ آخرَ الليل شائق
وقلبٍ لمكسور الجناحين خافقِ

وصبٍّ حزين كلما جنَّ ليله
تذكر ذكرى من حبيبٍ مفارق

فلا تعذليني يا ابنة الخيْر إنما
تخرمت الأيام مني اصادقي (٢)

فأصبحتُ رهناً بعدهم في ديارهم
كمُسْتَوْثَقٍ منه وليس بآبقِ

---

(١) انظر الخزانة ١١٨/٤ ، الاغاني ٢٧٨/١١ ، ذيل السمط ٢٨ معجم الشعراء ٢٤٠ .

(٢) اصادق : جمع صديق . تخرمتهم استأصلتهم .

وقال محمد بن خالد بن الوليد بن عقبة(١) :

هل في الخلود الى القيامة مطمع
أم للمنون عن ابن آدم مدفعُ

هيهات ما للنفس من مُتأخّر
عن وقتِها لو ان علمك ينفع

أين الملوك وعيشُهم فيما مضى
وزمانُهُم فيهم وما قد جمَّعوا

ذهبوا ونحن على طريقة من مضى
منهم فمفجوعٌ به ومُفجَّعُ

عثر الزمان بنا فأوهى عظمنا
ان الزمان بما كرهت لمولعُ

وقال ابراهيم بن كنيف(٢) :

تعزَّ فان الصبرَ بالحرِّ أجملُ
وليس على ريب الزمان مُعوَّلُ

فلو كان يُغني ان يُرى المرء جازعاً
لحادثةٍ أو كان يُغني التَّذَلُّلُ

لكان التعزي عند كل مصيبة
ونائبة بالحرِّ أولى وأجمل

فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامَهُ
وما لامرىء عمَّا قضى الله مَرحل

---

(١) المعجم للمرزبانى ٣٤٥ ـ وعقبة بن معيط يتهم فى دينه والابيات فى رثاء عمر بن عبدالعزيز .

(٢) في السمط ابراهيم بن كنيف شاعر اسلامي .

فان تكـن الأيام فينـا تبدّلتْ
بِبؤسى ونُعمى والحوادثُ تفعلُ

فما ليَّنتْ منّـا قناةً صَليبةً
ولا ذلَّلتنـا للتي ليس تجمُلُ

ولكن رحلنـاها نفوسـاً أبيـةً
تحمـل ما لا تستطيع فتحمِلُ (١)

وقال ابو الحسن علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين ابن علي رضي الله عنهم :

هبنـي بكيت على الأيـام والأبـد
ونلت ما شئت من مالٍ ومن وَلَدِ

من لي برؤية مَنْ قد كنت آلفهمُ
وبالزمان الذي ولّى ولم يَعُـدِ

لا فارق الحزنُ قلبي بعـدهم أبداً
حتى يفرق بين الروح والجسـد

غاب شبيب بن البَرْصاء عن اهله غيبة ثم عاد بعد مدة وقد مات جماعة من أهله وبني عمه فقال :

تخرّمَ الدهـر اخواني وغادرني
كما يُغادَرُ ثورُ الطـارد الفردُ

---

(١) فى الامالى والمزهر .
ولكن رحلناها نفوساً كريمة تحمل ما لا يستطاع فتحمل
الابيات الثلاثة الاخيرة أيام الاحتلال البريطاني طرحتها مجلة اللسان ودعت الى تشطيرها فكانت مدعاة لمساهمة عدد كبير من الشعراء لتشطيرها وتخميسها وحافزاً لنشر الوعي الوطنى والحس القومى في تلك الايام الحالكة .

اني لباقٍ قليـــلاً ثمّ لاحِقُهُم
وواردٌ مَنهَلَ الحوْضِ الذي وردوا (١)

وقال العتبي(٢) :

ينـام المُسْعَدُون ومَنْ يلـــوم
وتوقظنـــــي واوقظهــــا الهمـومُ

صـــحيحٌ بالنهـــار لمن يراني
وليــــلي لا ينـامُ ولا ينيـم

كأن الليــــــل محبوسٌ دجـاه
وأولُــهُ وآخـــره مُقيـــم

لمهلك فتيــــــة تركــوا أباهـم
واصـــغر مابه منهـــم عظيـــم

يُذكرنيهـــم ما كنت فيـــه
فســيان المســـاءةُ والنعيـــم

فبالخـــدين من دمعـــي نُدوب
وبالاحشــــاء من وجدي كُلـــوم

فان يهْلِكْ بنيّ فليس شيءٌ
من الدنيــا على أحـدٍ مُقيم

---

(١) شـبيب بن يزيد بن جبرة ، وامه قِرصـــافة بنت الحارث لقبت بالبرصاء لشدة بياضها ولم يكن بها برص وشبيب شاعر اسلامي من شعراء الدولة الاموية ، بدوي ، وفى الاغاني الطارد الفئد ، اى الذى يشكو فؤاده ٠

(٢) العتبي واسمه عبدالرحمن ينسب الى عتبة بن أبي سفيان ٠
قال المرزباني بصري علامة راوية للاخبار والاداب حسن الصورة جميـل الاخلاق ، وكان معمراً ، مات له ستة أولاد بالطاعون سنة ٢٢٩هـ ٠

وقال مُنقِذ بن عبدالرحمن الهلالي :

الدهـــر لاءمَ بين الفتنـــا
زمنـــاً وفرّقَ بيننـــا الدهـــر

وكـــذاكَ يفعـــل في تصـــرفه
والدهـــر ليس ينـــاله وِتْرُ

كنتُ الضنينَ بمنْ فُجِعْتُ بـه
وسـلوتُ حـين تقـادم الأمـرُ

لخـيرُ حَظِكَ في الرزيـة أن
يلقـاك عنـد نزولهـا الصـبرُ

كان الشمردل بن شريك المنقري خرج هو واخوته حكم ووائل وقُدامة في جيش مع وكيع بن ابي سُود فبعث كل واحدٍ منهم في جيش فأتاه الشمردل فقال أيها الامير ان رأيت ان تبعثنا معاً في وجه واحد ، فانّا اذا اجتمعنا تعاونا وتاسينا وتناصرنا ، فأبىُ عليه وبعث كل واحد منهم في جيش ، فقتل إخوته وأتاه نعيُّهم فرثاهم وقال :

أعاذلُ كـم مَن روعةٍ قـد شـهدتها
وغصة حُزنٍ من فراق أخ جـَزْلِ

اذا وقعت بين الحيـــازيم اسدَفت
عليَّ الضحى حتى يُؤَسينَي أهلي

أقول اذا أسَيْتُ نفســي باخوَةٍ
مضوْا لا ضِعافٍ في الحياة ولا عُزل

أبىٰ الموت الا ان كلّ بني أبٍ
سَيُمْسُون شتى غير مجتمع الشمل
سأبكي أخلائي الذين تبرضوا (١)
دموعيَ حتى أسرع الحزن في عقلي

روي ان عبدالله بن عمرو العبلي قال له عبدالله (٢) بن حسن بن حسن رضى الله عنهم أنشدني شيئا مما رثيْتَ به قومك فأنشدني :

تقول أُمامة لما رأتْ — نشوزي عن المضجع الانفس
وقِلَّةَ نوميَ على مضجعي — لدى هَجْعَةِ الاعين النُّعَّسِ
لفقد الاحبة اذ نالها — سهام من الحدث المُؤنِس
رمتها المنون بلا نُصَّلٍ — ولا طائشات ولا نُكَّسِ
فصرَّعْنُهمْ بنواحي البلاد — مُلقَّىٰ بأرضٍ ولم يُرْمَسِ
فذاك الذي غالني فأعلمي — ولا تسألي بأمري مُؤتَسِ
اولئك قومي اناخت بهم — نوائبُ من زمن مُتعِسِ

قال فرأيت دموع عبدالله بن حسن بن حسن رضي الله عنهم تَنحدر على خده ويروى ان هذا الشعر لابي سعيد مولى عمرو بن عثمان بن عفان رضوان الله عليهم يرثي قتلى بني امية الذين قتلهم عبدالله وداود ابنا علي بن عبدالله بن العباس رضى الله عنهم •

أنشد النُّجَيْرَمي لمنظور (٣) بن مَرْثَد الراجز يرثي مقاتلاً وجيشا :

---

(١) تبرضوا الدمع استنزفوها الابيات مع خبرها فى الاغاني ٣٥٢/١٣٠

(٢) عبدالله بن حسن والد محمد الملقب بالنفس الزكية وقد ثار بالحجاز عى المنصور وخرج أخوه ابراهيم فى البصرة فقتلا وقتل المنصور عدداً من آل الحسن وخرج ابنه ايام الرشيد ولما لم ينجح بالحجار ذهب الى المغرب وأسس دولة الادارسة مشتقة من اسمه (ادريس بن عبدالله) •

(٣) شاعر اسلامي أنظر معجم الشعراء للمرزباني ٣٨١ •

إما تُريني اليوم يا أمَ صالح
طويلاً قيامي للأسى وقعودي
فان مُصيباتٍ أصَبْنَ مقاتلا
وأصحابه استجهَلنَ كلَّ جليد
وكانوا جمالي في الحياة وعدتي
وحرزي اذا ما قلت أين أسودي

وقال آخر (١) (لسلمة بن عياش)

أجدك ما تعفو كلوم مُصيبةٍ
على صاحبٍ الا فُجِعْتُ بصاحب
تَقطَعُ أحشائي اذا ما ذكرتهم
وتنهَلُ عيني بالدموع السواكب
وكنت امرءاً جلْداً على ما ينوبني
ومعترفاً بالصبر عندَ النوائب
فهدَّ أبو سفيانَ رُكني ولم أكن
جزوعاً ولا مُستَنكِراً للنوائب
غَنِينا معاً بضعاً وخمسين حجة
خليلي صفاء ودُّنا غيرُ كاذب
فأصبحت لما حالت الارض دونه
على قربه مني كمنْ لم اصاحِب

(١) الابيات لسلمة بن عياش شاعر بصري من مخضرمي الدولتين وهي فى الاغانى ٢٠/٢٥٨ يرثى بها صديقه ابا سفيان بن العلاء .

وقال أبو العباس الاعمى [1] :

ليتَ شعري من أين رائحة المـ
سك وما إنْ أخال بالخيف إنْسِ

حين غابت بنو امية عنها
والبهاليل من بني عبد شمس

خطباء على المنابر فرسا
نٌ عليها وقالةٌ غير خُرْسِ

لا يصابون صامتين وإن قا
لوا أصابوا ولم يقولوا بلبْس

بحلوم اذا الحلوم استخفت
ووجوهٍ مثل الدنانير مُلْسِ

عن خِداش بن فراس النميري قال اغارت علينا بنو جُشَم بن بكر بظهر البشر فأصابوا منا أخوين فارسين سيدين يقال لاحدهما مسعود وللآخر حاتم ابنا شيظم وكانت له اخت سيدة برزة يقال لها : رائطة بنت شيظم فبكتهما ورثتهما طويلا وكانت احرَّ ما تكون اسىً وأسفا وأطول ما تكون حزنا ولهفاً اذا صاح صائحنا ، وذعر سارحنا ، وركب فارسنا ولقد رأيتها على مثل تلك الحال في بعض الايام ، والناس ثائرون والاصوات متواترة والخيل متبادرة ، والصارخ هاتف وهي تندبهما وتقول :

لهفي على الاخوين كالـ … أسدين مسعود وحاتمْ
السيدين ، المانعيـ … نِ الذائدين عن المحارم
الفاتقين ، الراتقيـ … نِ السابقين الى المكارم

---

(١) كان من شعراء بني أمية المعدودين والابيات في الاغاني ١٦/٢٣٠ مع قصتها .

الضـــاربين جماجم الأ بطال بالبيض الصــوارم
والطـــاعنين بكل مـا رنة وقاصمة وقاصــم
كـــانا يديَّ فشـــلتا بالساعدين وبالمعاصــم
فبقيت كالطـير المقصص ريشــــه واهي القوادم
لا استطيعُ ولا أطيـق اردُّ عني كفَّ ظــالم
مــع كل رنة مــأتم لي مـأتم وعلى مـأتم
فاليوم اخضَعُ للذليـــ ل وللمحارب والمسالم

كلمة في الكتاب :

ما قدمته هو جزء يسير من الفصل الاخير من المنازل والديار وفيه الغنَـاء ، للتعريف بطريقة المؤلف واختياره للمقطعات المعربة عن فكرته والمناسبة لمنهجه وهي بكاء الاهل والاخوان ولا يسعني الا ان اسجل اعجابي الذى لا حد له بطول اناة المؤلف وصبره في تقليب الدواوين وكتب المختارات حتى استطاع ان يسقط على الاشعار الملائمة لكل فصل وفيها دليل على سَعة ثقافة المؤلف ، واطلاعه الواسع على روائع الشعر فى عصوره المختلفة الى عصره ، أما مختاراته فهي من الجودة والحسن بمكان ولا عجب اذا جاءت رائعة وهو الذواقة والاديب الصيرفي للبيان »

قد عرفناك بأختيـارك اذ كان دليلاً على اللبيب اختيـاره

لم يكن اسامة فى بقية الفصول يختلف عن هذا النسق العالي الذى قدمت نماذج منه .

كان المؤلف يتوخى ان يكون النص المختار فيه لفظ مما عنون به الفصل وهو الزام يضيق فيه على نفسه فيما هو موفور من الشعر ومع ذلك فقد اتم فصولـــه ومنتخباته وفق ما وضع لها من تخطيط يسرت له في نجاحه هذا :

خصلتان أعانته : طول معاناته للجمع والتبويب مدة ست عشرة سنة والثانية كثرة محفوظه ومعرفته لمصادر بحثه ومنبع مختاراته ، والكتاب لا مثيل له فيما الفه المؤلفون في بابه وربما لم نجد مثيلاً له في كتب المختارات وعيون الاخبار ، والبصائر

والذخائر ، والقاريء الكريم سيرى نفسه يتنقل من موعظة الى عبرة ومن حكمة الى حكمة فيها التأسي والاعتبار والسلوة وانفراج الهمّ ، سيتقلب من روضٍ الى روض يزخر بالذوق ويزدحم باللغة وينضح بالادب الغض وبالمعاني الانسانية ، وفي الكتاب كما اسلفت أخبار واشعار للمؤلف تضيف مادة حية جديدة لحياة اسامة .

سجل اسامة فى المنازل والديار جملة من شعره وشعر اهله :

قال فى ص ٥٢ الجزء الاول :

« قلت : لي على من تقدم ذكره من الشعراء أفضلُ المزيَّة ، إذ كنت دونهم صاحب الرزيَّة ، فكان شعرى اولى ان يقدم على اشعارهم ، وإنْ قصَّرتْ بي البلاغةُ عن اقتفاء آثارهم ، لكن للمتقدم السبق ، وهو بالتقدمة أولى وأحق ، وإن كنت وهم كما قال ذرٌّ لابيه : يا أبَهْ ، مالك اذا تكلمت ابكيتَ الناس ، واذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ ، قال : يا بُنيَّ ليس النائحة المستأجرة كالثكلى » .

اختار من شعر أخيه عز الدولة أبي الحسن علي بن مرشد المولود سنة ٤٨٧ هـ بشيزر وسمع الحديث ببغداد وكتبه بط حسن وكان فهماً شاعراً قدم دمشق غير مرة واستُشهِد رحمه الله على باب غزة فى شهر رمضان سنة ٥٤٥هـ فى حرب الفرنج فى الحملة التى قام بها مع اسامة ، اختار له :

يا منزلا لعب البلى برسومه شَعَفاً ببهجته فليس يريم

لا تبعدَنَّ وجادَ ربعك وابلٌ
يروي ثراك اتيُّهُ ويُسيمُ

فأسقِ الربوع من الدموع سجالها
ان الرسوم لها عليك رسوم

وله :

سل المنازل عمن كان يسكنها من الاحبة والاخوان ما صنعوا

تُخبرك وعظاً بلا لفظٍ فقد نظرت آمالهم والمنايا كيف تصطرع

وهكذا بعد نفخ الصــور خاوية تُضحي المنازل اعلاهن مُتَّضِعُ
بني ابي إن عــدا دهــرٌ ففرقنــا فهمٌ نفسي بكم مـا عشت مجتمعُ
برحتم ادمعي حتى لقــد مَحِلَتْ جفون عيني ومات اليأس والطَمعُ
وان دهراً رمى عن جيــده دُرراً امثــالكم لزمان عاطــل ضرعُ

وفي بكاء المنازل اختار من شعره[1] قال ـ: وهذا شيء من شعري في هـذا المعنى بعدما اصابنا من الزلزال ما اصابنا :

الى الله اشكو روعتي لمنازل خَلَتْ ، وجَوَىً قلبي لأهل المنازل
سيوفي اذا مــا نازلتني مُلِمَّةٌ
حصوني اذا خِفْتُ الردى ومعاقلي
مضوْا سلفاً قبلي فلم احظَ بعــدهم
مــن العيش والعُمر الطويل بطــائل

وقــال :

هــذي منــازلُهم عَفَتْ وتفرّقوا
فســل المنازل عنهــم ماذا لقُوا
تُخبـرك ان الارض قــد وارتهم
وأبتْ لهم ان يسمعوا او يَنطِقوا
وبقيت بعــدهمُ لِهَــمٍ فــادحٍ
وكآبة تُضــني وخطبٍ يَطْرُقُ
أرجو اللّحِــاق بهم ، ودون لحاقِهم
باب مــن الاجــل الموقت مُغلقْ

(١) المنازل والديار ص ٥٤ ـ ٥٨ ولم يكن فى الديوان .

فاذا نهاني عن رجاء لقائهم
بأسي ، هفا قلبٌ اليهم شيّق

وقال :

قل للذي فقد الاحبة وانثنى
يسقي منازلهم دموعاً تسجم
سَل عنهمُ صرفَ الزمان فإنه
بهم من الدار المُحيلة أعلم
افناهم ريب المنون وهذه
آثارهم عظة لمن يتوسم
هي شيمة الايام كفٌ تبتني
مُذ كانت الدنيا وكفٌ تهدم
واذا رأيتَ محسدين فقلما
تزجيهم الايام حتى يُزْحَموا
وترى تقلُّبَ هذه الدنيا بنا
وكأننا فيها سكارى نُوَّمْ

وقال :

يُعنفني في الدار صحبي على البكاء
فيا ويحَ قلبي من خَليٍّ وجاهلِ
وقالوا ابكي للمنازل قلت لا
ولكنما ابكي لاهل المنازل

وقـــال :

حيـــا ربوعـك من ربى ومنـــازل
ساري الغمام بكل هـــام هامل[1]

وسقتك يادار الهـوى بعـد النوى
وطفاء تسفح بالهتون الهـاطل[2]

حتى تروض كل ماح ماحـــل
عــاف وتروي كـــل ذاو ذابل

ابكيك أم ابكي زماني فيـك أم
اهليك أم شرخ الشــباب الزائل ؟

وقال : ولم تكن فى الديوان :

أنظر منازل آل مُنقِـــذَ إنَّهـــا
عِظــةُ اللبَّيب وعِبرَةٌ للنـــاظر

كانوا بهـــا فى نِعمة محروســة
بمكـــارم وذوابـــل وبـــواتر

ما رامهـــا ملكٌ ولا ذو قُــدرة
الا انثنيَ عنهـــا بقـــلب طـــائر

متلهفـــاً ما اســطاعها ومن الذي ؟
يلجُ العرينَ عـــلى الهزبر الخادر[3]

فأصابهـــا قَدَرٌ فأهلك من بهـــا
واعاد شــامخها كرســـم دائر

---

(١) من الديوان ص ٣٠٤ .
(٢) سحابة وطفاء مسترخية لكثرة مائها .
(٣) الهزبر من اسماء الاسد ، واسد خادر اى مقيم فى عرينه .

فاذا ذكرتهم عرتني حسرةٌ
تمرى سحائب دمعي المتبادر

وقال ولم توجد بالديوان :

يا منزلا كان العز مُقترناً
بالسيف والمال مقرونا الى الكرم

من خاف جوراً وعُدماً ثم لاذ به
لاقى الامانين من جور ومن عدم

أفنتْ حُماتَكَ احداثُ الزمان فيا
لله من فتكها بالاسد في الاجم

أعيَتْ مناواتُهم غُلْبَ الملوك الى
ان جاءهم قدرٌ قد خُطَّ بالقلم

فأصبحوا لا ترى الا مساكنُهم
كأنَّ ما خُوِلوهُ كان في الحُلُم

ولم تدع منهمُ الا حديثهم
كما تُحدِّث عن عاد وعن إرم

فيا لقلبي لاحزان أُكاتمها
عليهمُ ولدمعٍ غيرِ مُكتتِم

وقال ولم تكن فى الديوان :

غاضت دموعي فى المنازل وارعوى
صبرى وراجعني الرقاد النافر

إن لم اسحَّ بها سحائب أدمع
ينجاب خشيتها الغمام الباكر

أأُحمِلُ الاطلال منّة عارضٍ
وسحاب دمعي مُستَهِلٌ ماطرُ

إنيَ إذاً بشؤون عيني باخِلٌ
وبعهد من سكن المنازلَ غادرُ

وقال ولم تكن فى الديوان :

هذي منازلهم وانت بهم مُعَنّىً مغرم
فأسفح دموعَكَ في ثراها أو يمازجَها الدَّم(١)
واسأل بهم صرف الزمان فإنه هو اعلم
يخبرك ان القوم قد قدموا على ما قدَّموا
وغداً يُخَيِّم حيث حَلّوا في القبور وخيموا

وفى ص ١٢ من الجزء الثانى من المنازل والديار له الابيات التالية وهى لم تكن فى الديوان :

أشتاق اهلي واوطاني وقد مُلِكَت(٢)
دوني وافنى الردى اهلي واحبابي

فأستريح الى رؤيا القبور ففي
أمثالها حلَّ اخواني واترابى

ولست أحيا حياةً استَلِذُّ بها
من بعدهم ولحاق القوم أولى بي

وفي ص ١٩ من الديار القطعة التالية مثبتة بالديوان ما عدا البيت الاخير وهي :

وقد افردتني الحادثات فليس لي
أنيس ولا في طارق الخطب أعوانُ

---

(١)أو هنا بمعنى الى او الا ويمازجها منصوبة بان مضمرة بعد او .
(٢) ملكها نور الدين زنكي وكان يؤمل ان يؤمر على ارض قومه .

كأنيَ من غير التراب نَبَتّ بي الـ

بلادُ فمالي في البسيطة أوطان

أجولُ كما جالت قذاةٌ بمقلةٍ

واسري وساري النجم في الافق حيران

اذا قلت هذا حين أُلقي عصا السُرى

دعاني الى الترحال ظلم وعدوان

وفي ص ١١٢ سجل لجده وعمه ووالده لكل منهم أبياتاً وهم أهل بيت الشعر فيهم طبعا وتأدبا ، فاختار لجده قوله :

لله ما طيفٌ ألمَّ بفتيةٍ تحنو رؤوسهم على الاكوار

كيف اهتديت لراحلين تزودوا ما شاء قومُك من دُجىً ونهار

لفظتهمُ دار الاقامة فيكمُ فنضوْا عِقال مَطيَّةِ الاسفار

ورنوْا الى الحي المقيم بأعين ينهلن من ماء الدموع الجاري

واثبت لعمه عز الدولة ابي المرهف نصر بن علي رحمه الله هذين البيتين :

لهفي لدار عفاها كل مُنْهَمِرٍ

جَوْنٍ مُلِثٍ عليها رائحٌ ساري

وما عفا ذكر احبابي الذين لهم

حزني مقيم ودمعي اثرهم جاري

وقال والده مجد الدين مرشد بن علي أبو سلامة رحمه الله :

أيا دارَ التصابي والتصافي وخصب العيش في السنة الجماد

لقد جارت عليك صروفُ دهرٍ رمتك بكل داهية نآد (١)

---

(١) في اساس البلاغة داهية نآد بوزن عقام ، ونآدى بوزن نصارى وتأدته الداهية تنأده : قدحته وبلغت منه .

فكم لي فيك من اخوان صدق تملكَ صفوُ ودهمُ قيادي
قضت بفراقهمُ نوَبُ الليالي فميعاد التلاقي في المعاد

وقال أخوه أبو الحسن علي بن مرشد :

أصبحت دور آل مرشد قفرا
بعد عزٍ وهيبة وجلال
عظةٌ للعيون فيها اعتبار
ونذير من حادثات الليالي
تُخبر الغافلين أن اقتناء الـ
خلق فانٍ مُعرَّضٌ للزوال
فعليها السلام بعد بلاها
من حزين ما حزنه الدهرَ بال

وقال اسامة : ولم تكن بالديوان

يا حَيْرةَ النفس ايُ وجهةٍ سلكوا
ومن هم في سواد القلب حُلّال
لا أوحش الله داراً كنت أعهدها
مغنىً بكم وهي بعد البين أطلال

وقال :

كفى حسرة في النفس بعد أحبة
وقُربُ أعادٍ يشتهون حِمامي
لَعَمرُكَ ما دار الفتى حين لا يرى
أحبتّه فيها بدار مُقام

وأثبت لنفسه في ص ١١٣ ـ ١١٨ ولم يكن هذا الشعر في الديوان قال :

يا دار غيرك البـــلى وتحكمت فيك الخطوب ومحّتْ الآثار
أصبحت تعرفك القلوب توهماً ويَصُدُّ عنكِ الاعينَ الانكارُ
لم يبق منك الدهر رسماً ماثلاً ينبـي بان هنـــاك كانت دار
لهفي على الزمن القصير قطعتــه بك إنّ أيام الســرور قصـارُ
لم يبقَ منه سوى جوىً متسعرٍ في القلب يُذكي نارَه التذكارُ

وقال : ولم تكن في الديوان :

سقى دارهم هامي الغمام وهامِلُهْ
ونوّرَ ذاوي الروض فيها وذابُله
وعاد بها طيب الليالي التي خلتْ
وغبطة عيشٍ قد تَقضَّتْ غَياطِلُهْ
مُنىً يتمنــاها على بُعــدِ نيلهـا
كذوبُ الاماني ذاهب القلب ذاهله
وبعضُ الاماني ضَلّةٌ ، واذا انقضت
أواخر دهــر كيف تُثنىَ أوائله
ديارٌ بهـــا صاحبت شرخ شبيبتي
أُجادده طــوراً وطــوراً أُهازلُه
أروح الى لهــو الصبىَ ونعيمــه
واغــدو على ليثٍ كَمِيٍّ أنازلــه
عهدت بها عينَ المها دون حُجْبها
اسود الشرى يَلقى الردى من تصاوله

(١) الغياطل : واحدة الغيطلة وهى الاكل والشرب والفرح والامن ٠

وسرب ظباء تُحْجَبُ الشمسُ دونه
وتُحجَبُ عن طيف الخيال عقائله

وكل أخي بأس كريم تخاله
اذا ما انتضى سيفاً جلته صياقله

فلم يبقَ مما كان إلا ادِكارُه
وحسرةُ قلبٍ لا تَقِرُ بلابله

وكنت أرى ما سرني غير زائل
ويخطُىء نهج الحزم مَنْ هو جاهله

فما كان الا الطيفَ يُحسَبُ في الكرى
يقيناً ، فان بان الكرى بان باطله

وقلت :

يقول صحابي قد اطلت وقوفنا
على الدار مسلوبَ الاسى والتماسك

أفي كل دار قد عفت أنت واقفٌ
تروي ثراها بالدموع السوافك

كأنك في رسم الديار مُتمِم
وفيما عفا من ربعها قبرُ مالك (١)

فقلت نعم هذي ديارٌ عهدتها
بها معشري مثل النجوم الشوابك

---

(١) مالك : هو مالك بن نويرة من ارداف الملوك يقال له فارس ذى الخمار وذو الخمار فرسه وفى امثالهم فتىً ولا كمالك ممن منع الزكاة بعد وفاة الرسول قتله ضرار بن الازور بأمر من خالد بن الوليد ، ومتمم اخو مالك شاعر فحل وله فى اخيه المراثى المشهورة .

أصابهُم ريبُ الزمان فأصبحت
قفاراً وهم ما بين ناءٍ وهالك

وقال :

يقولون قد اعولتَ في الدار ما كفا
وليس على ربْعٍ عفا بمُعَوَّل
وكم قدر ما تبقى الدموع اذا جرت
على كل ربع أو على كل منزل
فقلت نعم هذي ديار عهدتها
عرين اسودي في الخطوب ومَعْقِلي
فقد أصبحت قفراً وفرَّق شملهم
حوادثُ دهرٍ بالفراق مُوكَّل
سأبكيهم أو يمزجَ الدَّمُ أدمعي
فينهلَّ سِمْطاً كالجُمانِ المُفَصَّل(١)

وقال في ص ١١٦ ولم تكن في الديوان :

يا دار أنتِ التي كان الجميع بها
وكان في ربعك الولدان والحشم
وكنت للضيف والعافين مُرتَبعاً
يقتادُهم نحوك الاكرام والكرم
أصبحت قفراً وأضحى أهلك افترقوا
أيدي سبا وانثنت عن قصدك الهِمَمُ
ما أعجبَ الدهرَ عيش الناس أجمعهم
إن سرهم صرفُه أو ساءهم حُلم

(١) الابيات لم تكن فى الديوان ٠

وقال : ولم توجد فى الديوان

دار على قلل الجبـــال تفجرّت
فيهـــا بحارٌ فضـــائلٍ ومكارمِ
فيها النـدى والجود حقاً لا الذي
كنـا نُحدث عن ســماحة حاتِم
وفوارس جمعوا المكـارم والعُـــلى
لينَ التواضـــع في قلوب ضراغم
أفنـــاهم ريب المنـــون فلم يدع
منهم سوى ذكرٍ كحُلم النـــائم

وقال :

يا دار لو روّت نحولك أدمعي
لسفحتها بك أو يمازجَها الـدّمُ
لكنّ دمعَ الحزن يُحسب قطره
ماءً بروداً وهو جمـــرٌ مُضرَمُ
واذا رأيتك قفرة من معشـــري
وبني أبي وهـــمُ لعمـرُكِ ما همُ
فكأنـــي عاينت حفـــرة مالـــك
وكأنني وجـــداً عليهـــمُ مُتمم

وقال ص ١١٧ :

وا وحشتي في الـــدار لما أصبحت
موحشـــةً من الظبـــاء العيْنِ

كانت عريناً وكناساً فأغتدت
مقفرة الكناس والعرين
تقارن الاسدُ بها عين المها
والدهر قطاعُ قُوى القرين
فأصبحت كما ترى ليس بها
الا دواعي الوجد والحنين

وقال :

نظرت الى دار الاحبة قفرة
وقد كان فيها العزُّ والكرم المحضُ
فلما رأى صحبي عليها تلددي (١)
ودمعي بكى بعضٌ وعنفني بعضُ
وقالوا أفق للارض تبكي فقلت لا
ولكنني أبكي لمن وارت الارضُ

وقال :

يا دار ان بَخِلتْ على مغناكِ سارية العهاد
فلأُمطِرنَّكِ من دموعي ما ينوب عن الغوادي
حتى تعود رُبَاكِ حاليةً مفوفة الوهاد
كم حلَّ ربعكِ من غضيض الطرف ممنوع الوداد
يستوقف الابصار فهي عليه حائمة صوادي

---

(١) التلدد : التلفت يميناً وشمالا تحيرا ٠

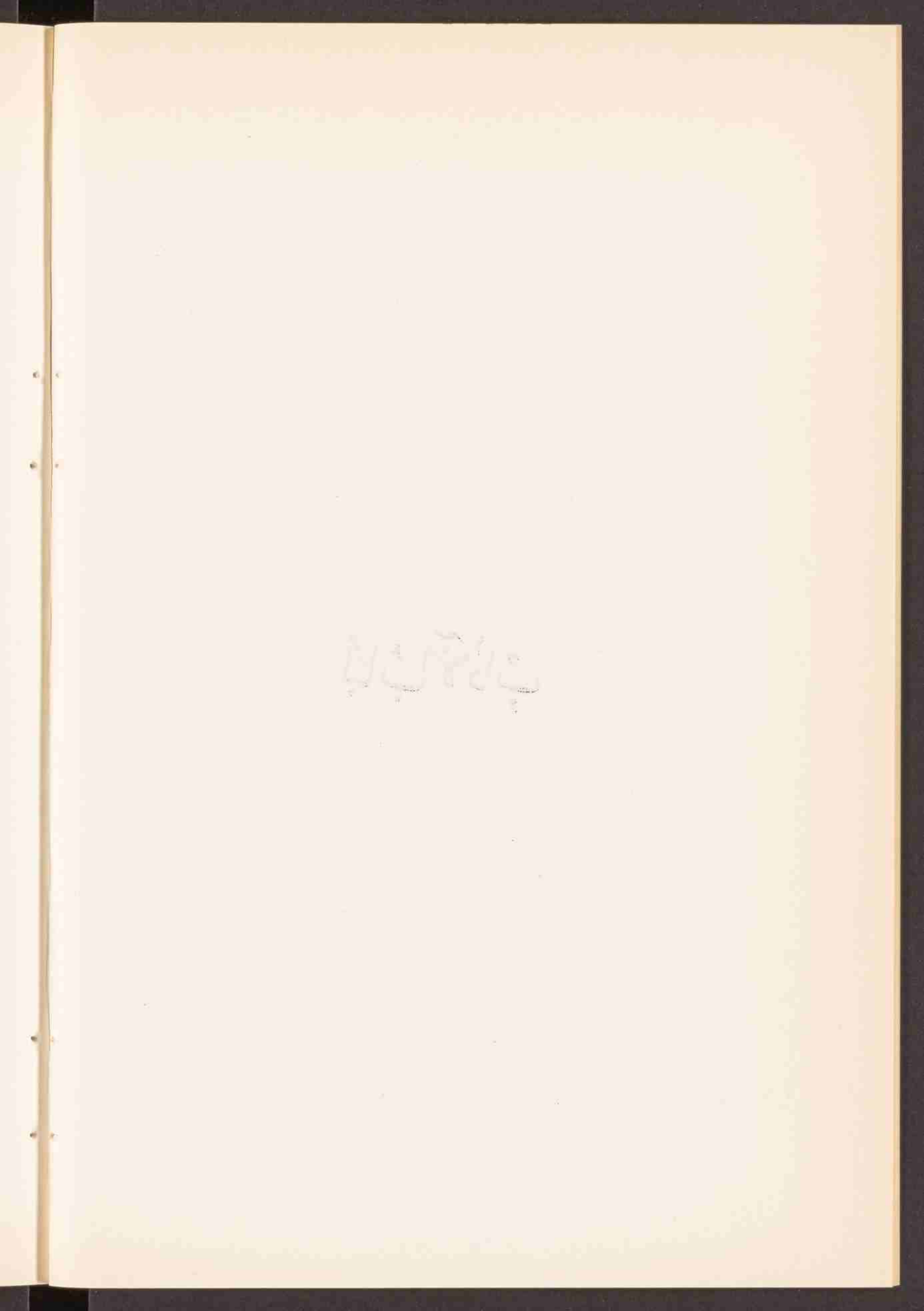
وصروف هـذا الدهر تطرق بالحوادث أو تغـادي
عاداتهـا ردّ الامـو ر من الصلاح الى الفساد
يُحسِنّ لا عمـداً ويأ تين الاساءة باعتمـاد

وكتب الى أخيه عز الدولة ابي الحسن علي بن مرشد وهو بعسكر عماد الدين زنكي باربل[1] قال :

وانّ امـرءاً اضحت بأربلَ داره
وفي شـيزرٍ إخوانُه وشـجونه
لَغَيْرُ ملـوم في الحنين اليهـم
ومعـذرة ان تستهلّ جفـونه

(١) ديوانه : ١٥١ ، واربل مدينة من مدن العراق الشمالية مركز لواء أربيل ، كان لصاحبها ولجندها اثر فى حروب المسلمين مع الافرنج ٠

لُبابُ الآداب



حققه العلامة المحقق أحمد محمد شاكر وعاونه في اخراج الكتاب أخوه الأديب الفاضل محمود محمد شاكر والاخوان من أبرز الادباء في تحقيق التراث ولهما أيادي مشكورة ومساعي مشهورة في خدمة اللغة والادب والحديث ونشره على نفقته لويس سركيس ، والمخطوطة كانت محفوظة لدى العلامة الدكتور يعقوب صروف وقد وصفها في مجلة المقتطف أيلول ١٩٠٧ المجلد الثاني والثلاثين ، صفحة ٩٥٣ - ٩٦٠ .

وهذه النسخة كتبت في حياة المؤلف اسامة سنة ٥٧٩ هـ وأهداها لابنه الامير مُرْهَف ، وقد بذل الاستاذ أحمد شاكر جهداً كبيرا حاول أن يخرجها مثالاً يحتذى في جودة الطبع ودقة التصحيح ، ولم يبخل صديقه الاديب لويس سركيس بشيء من النفقة في سبيل ذلك ، كما جاء في مقدمة الكتاب ، وقال :

« والمؤلف رحمه الله يذكر في أوائل الابواب بعض الاحاديث النبوية ولكنه لم يكن من العلماء بالسنة فيأتي بأحاديث منها الصحيح ومنها غير الصحيح ولم استجز لنفسي ان اترك حديثا واحدا من غير بحث عن أصله وصحته ، نصيحة للامة وأداءً للامانة ، وعلى الرغم من كل هذا فاني عجزت عن معرفة كثير من الاحاديث التى فيه ، ولذلك انصح كل قارئ أن لا يحتج بشيء من الاحاديث في الكتاب الا بما صرحت انه صحيح أو حسن ، واما الاحاديث التى لم اكتب شيئا عنها أو أشرت الى اني لم أجدها فانه لا يجوز الاحتجاج بها الا ان يثبت للقارىء صحتها بالطريق العلمي الصحيح المعروف عند أهل هذا الفن ، وهذا مما يجب على كل مسلم مراعاته بالدقة التامة في كل كتاب ، والحديث عن رسول الله (ص) شديد والاحتياط فيه واجب » . وقال فاني لا اظنني مغالياً اذا قلت ان هذا الكتاب من أجود كتب الادب وأحسنها ، وسيرى قارئه أنه يتنقل فيه من روض الى روض ، ويجتني أزاهير الحكمة وروائع الادب ويقتبس مكارم الاخلاق ، وفيه ميزة اخرى جليلة ان فيه أقوالا من نثر ونظم لم نجدها في كتاب غيره من الكتب المطبوعة .

طبع سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م في المطبعة الرحمانية وأعاد طبعه قاسم الرجب صاحب مكتبة المثنى في الاوفست في جملة الكتب النادرة التي أعاد طبعها ، وحظي الكتاب بمقدمة للدكتور يعقوب صروف وترجمة وافية لاسامة بن منقذ بقلم احمد محمد شاكر كمقدمة للكتاب .

والنسخة الخطية نصٌ في آخرها على ان الفراغ من نسخها « في صفر سنة تسع وسبعين وخمس مئة وأهداه الى ولده الامير مرهف » .

قال الامير مرهف « حباني مولاي والدي مجد الدين مؤيد الدولة وفقه الله هذا الكتاب الذي هو من تأليفه بدمشق المحروسة في شهور سنة : اثنين وثمانين وخمس مئة ، وكتبه ولده مرهف بن اسامة حامداً مصلياً » .

منهج الكتاب :

الكتاب مادته الادب والاخبار على غرار عيون الاخبار لابن قتيبة ومحاضرات الراغب الاصفهاني والأمالي للقالي ، يعتمد فى مادته على الاشعار والاخبار والنوادر ويبتدىء الباب بآيات من الفرآن الكريم تناسب الباب وتتلوها أحاديث نبوية ثم أقوال وحكم ومختارات من الشعر تناسب الفصل ، وقسم الكتاب الى أبواب ينطوي تحتها فصول يقدمها بأي الذكر الحكيم ويختمها بأقوال الأبيناء ممن عرفوا بالبلاغة والحكمة ، فباب في الوصايا وباب في السياسة والشجاعة والآداب والاخلاق وهلم جرا .

والباب الذي عقده المؤلف تحت عنوان : البلاغة هو اوسع الابواب واشتمل على مقتبسات من جوامع الكلم والحكمة من كلام النبوة وكلام الصحابة ، وغيرهم، ومن محاسن الشعر فى المديح والتشبيه ووصف النساء والتشبيب ، والاعتذار ، والعتاب والمراثي ، والغزل ، ومن كلام الحكماء ونوادرهم .

وعني المحقق بوضع فهارس مفصلة هى مفتاح الكتاب فجعل فهرسا لابواب الكتاب وآخر للاعلام وثالثاً للاماكن ورابعاً لايام العرب وخامسا لقوافي الشعر ، واجزم ان المؤلف كان قد وضع لبنات كتابه وجمع له مادته منذ ان كان ينتخب

ويجمع مادة كتابه (المنازل والديار) فكان كلما مرَّ بقطعة اعجبته اثناء قراءاته ومراجعاته لا تصلح ان تكون ملائمة لكتاب المنازل والديار ووجدها صالحة لتضم تحت عنوان من فصول كتابه اللباب اختارها ووضعها في القسم الذي تلائمه ، وهكذا لم ينته من كتابه الاول الا وكان قد حضَّر مادة كتابه الثاني ، ومسوداه جاهزة وكاملة ، وحين علت به السن واصبح مستطيعا بغيره كما يقول أبو العلاء عن نفسه وكما هو حال علامتنا ساطع الحصرى فى مذكراته ، اخذ يستعين بغيره بنسخ له او يملي عليه ويعود من ارتضاه مساعداً يقرأ له ما نسخه فيجرى بعض التصويبات والتصحيحات مما هو موجود فى النسخة الخطية .

بهذه الطريقة تم استنساخ النسخة التى اهداها لولده مُرْهَف قبل وفاته بسنتين اذ وافاه الاجل وفاضت روحُه سنة ٥٨٤ هـ .

ولم يقدم لها المؤلف كما فعل بكتاب الاعتبار ، والمنازل والديار وكتاب نقد الشعر ـ البديع ـ وكتاب العصا ـ فالكتاب بدأه رأساً من غير تمهيد ، بدأه بالوصايا وختمه بأقوال الحكماء من سليمان الحكيم وبرسين الحكيم وافلاطون وانهاه يقول : (قل مؤلف الكتاب غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين : ما للعلم غاية يدركها الراغب ولا نهاية يقف عندها الطالب ، هو أكثر من ان يحصر واوسع من ان يجمع ، والاعمار متلاشية مُنْتَقَصَة ، وحوادث الزمان فيها مُعترضة ، ولولا ان النفس اذا غولبت غلبت وإن زُجرت لجَّتْ وأبَتْ لكان اشتغال من بلغ من السنين أحدى وتسعين باعمال البر والثواب اجدى عليه من الاشتغال بتأليف كتاب بعدما بالغ الزمان فى وعظه فى قواه وسمعه وبصره لا بلفظه ، وأنذرْ تغيُّرُ حاله ودنو ارتحاله فهو مقيم على وفاز مَيِّت في الحقيقة حيٌّ بالمجاز مستكين لاسر رب العالمين واثق بما وَعَدَ به ابن التسعين على لسان الامين[1] صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى اصحابه البررة

(١) يشير الى حديث ورد فى الاعمار ، أوله ما من معمر يعمر فى الاسلام الخ . فاذا بلغ تسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي اسير الله فى أرضه ، وشفع لاهل بيته ، رواه احمد فى المسند رقم ١٣٢١٢ جـ ٢ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ من حديث انس بن مالك مرفوعاً .

المتقين وازواجه الطاهرات امهات المؤمنين صلاة دائمة الى يوم الدين .

في كتاب اللباب ثبتّ المؤلف مقطوعات من شعره وردت في الصفحات :
٤٧ ، ١٨٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٣٨٠ ، ٤١٨ ، ٤٢٩ ، ٤٥١

في الصفحة ٤٧ قال :

لا تحقرنّ من الضعيف عداوة
فالنار يحرق جُمرها وشرارُها
واحذر مداجاة العدو وكيده
ان العداوةَ ليس تخبو نارها

وفي ص ١٨٤ قال وهي مثبتة في الخريدة :

اِن يحسدوا في السلم منـ زلتي من العز المنيف
فيما اهين النفس في يوم الوغى يوم الصفوف
فلطالما اقدمت اقدا م الحتوف على الحتوف
بعزيمة امضى على حدّ السيوف من السيوف

وفي صفحة ١٩٥ قال :

سل بي كماة الوغى في كل معترك
يضيق بالنفس صدرُ ذي الباس
يُنَبِّؤُك بأني في مضايقها
ثبتٌ اذا الخوفُ هزّ الشاهق الراسي
اخوضها كشهاب القذف يصحبني
عضب كبرقٍ سرى او ضوء مِقباس

وقال ص ٢٠٢ :

سأنفق مالي في اكتساب مكارم
اعيش بها بعد الممات مخلدا

واسعى الى الهيجاء لا ارهب الردى
ولا اتخشى عاملاً ومهندا

بكل فتى يلقى المنية باسماً
كأنَّ له في الموت عيشاً مخلدا

وقال ص **٢٠٣** :

قلبي وصبري إلفان مُذ خلقا
تقاسما صادقين لا افترقا

أمشي الهوينا ، والخطبُ في طلبي
يُوضِعُ طوْراً وتارة عَنَقا

أحنُو ضُلُوعي فى كل حادثة
على فؤاد لا يعرف القلقا

لا يزدَهيه خَوْفُ الحِمامِ ولا
عهدته في ملمة خفقا ،

وفى ص **٢٢٥** :

تجهل فى الاقدام رأيي مَعاشر
أراهم اذا فرُّوا من الموت أجهلا

ايرجو الفتى عند انقضاء حياته
وإن فرَّ عن ورد المنية مزحلا (١)

اذا انا هبت الموت فى حومة الوغى
فلا وجدت نفسي من الموت موئلا

---

(١) الزحل بالزاي الموضع الذى تزحل اليه .

واني اذا نازلت كبش كتيبة

فلست ابالي أيّنا مات أولا

قلت وبالله التوفيق : قد اوردت فى كتابي المترجم بكتاب [الاعتبار] عجائب ما باشرته وحضرته وشاهدته من الحروب والمصافات والوقائع منذ كنت ابن خمس عشرة سنة الى ان تجاوزت التسعين وما نالني من الجراح والمكارة •

وانا القائل

الوم الردى كم خضته متعرضا

لـه وهو عني مُعرِض مُتَجنَبٌ

وكم أخذت مني السيوف مآخذ الـ

حمام ولكنّ القضاءَ مُغيبُ

الى ان تجاوزت الثمانين وأنقضتْ

بُلهْنيَةُ العيش الذى فيه يرغبُ

فمكروه ما تخشى النفوس من الردى

الذُ واحلىُ من حياتي واطيبُ

وذكرت ما شاهدته من اقدام الرجال وعجائب تعرف الاجال فغنيت بما اوردته هناك عن الاطالة هاهنا واقتصرت على ما اوردته •

وقال ص ٣٨٠ من قصيدة يعتذر فيها :

هبني اتيت بجهل ما قذفت به

فأين فضلك والحلم الذى عُرفا

ولا ومن يعلم الاسرار حلفة من

يَبرُ فيما أتى إنْ قال أو حَلَفا

ما حدثتنيَ نفسي عند خلوتها

بما تُعنّفني فيه اذا انكشفا

وقال في الصفحة نفسها في جواب عتاب وصله من اخيه رحمه الله :

ابا حسن وافى كتابك شاهراً
صوارم عتب كُلُّ صفح لها حدُّ

فقابلت بالعتبى مضيض عتابه
ولم يتجهَّمه الحِجَاجُ ولا الردُّ

وأعجبني عِيِّ لديه ولم ازل
اذا لم تكن خصمي : لي الحُجَجُ اللُّدُ

فيا حبذا ذنبٌ اليَّ نسبته
وما خطأٌ مني أتاهُ ولا عمد

ولو كان ما بُلِّغْتَهُ فظننته
لكفَّرَه حَقَّ الاخوة والودُّ

فأهلا بعتبٍ تستريح ببثّه
ويؤمنني أَن يستمر بك الحِقدُ

لقد راق في قلبي ولذَّ سماعُهُ
بسمعي « فزدني من حديثك يا سعدُ »

وفي صفحة ٤١٨ قال في الوداع :

يا عين في ساعة التوديع يشغلك الـ
ـبكاء عن لـذة التوديع والنظرِ

خذي بحظك منهم قبل بينهمُ
ففي غدٍ تفرغي للدمع والسهرِ

وقال في ص ٤٢٩ :

يهون الخطب ان الدهـــر ذو غِيَر
وأَنّ ايامـه بين الوَرَى دُوَلُ

وأنَّ ما ســرَّ أوْ ساء منتقِـــلٌ
عنَّــا والاّ فانِنَّا عنـه ننتقِـل

وفى ص ٤٥١ قال :

الناس أشباه فانِ خَطْبٌ عـرى
حَطَّ الدني وشــادَ قدر الأفضــل

كالعود مُشْتَبَهٌ فانْ حرّقْتَــه
كُرِهَ الدُّخان وطاب عَرْفُ المَنْدَل

وهذا نموذج من الباب الاول الذى افتتح به المؤلف الكتاب قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الجهاد أو الشجاعة :

عقد الامير اسامة بن منقذ هذا الباب بعد فصل الكرم لاتصال الشــجاعة بالكرم ، فهما خصلتان متلازمتان مكملتان بعضها للاخرى ، فقلما رأينا شجاعاً الا ورأيناه كريما ، وما رأينا بخيلا الا ورأيناه جبانا ، وقد روي عن الامام علي عليه السلام أنه قال : جنونان لا أخلانيهما الله : الشجاعة والكرم ، والبخــل منقصة تحط صاحبها وتحقر من يتصف بها يعيش البخيل دهره ، مهموما مكروها بغيضا حتى من أهله وأولاده ، قال تعالى « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم سيطوقون بما بخلوا به يوم القيامة » والشجاعة تمثلت عند اسلافنا بالجهاد فى سبيل الله ، والمؤلف حين يتحدث عن الشجاعة والجهاد يتحدث عنها حديث الخبير الذي عاناها منذ ان كان يافعاً حتى

غدا شيخا يدب على العصا ، وقد قدم الجهاد على سائر أنواع الشجاعة لما فيه من اعلاء كلمة الله والذود عن حياض الوطن والدفاع عن بيضة الاسلام والحفاظ على كرامة المسلمين وحريتهم من ان يذلهم فاتح او يستعمر أرضهم مستعمر وما اصاب المسلمين الضعف والوهن فى عهودهم الاخيرة ودُخِل عليهم من اقطارها الا حين ضعفت فيهم روح الجهاد ، اختار المؤلف لهذا الباب نحوا من أربعين آية من القرآن الكريم تحث على الجهاد والقتال وتحضُّ على الصبر واختار من الاحاديث النبوية ومن الشعر العربي وقصص اخبار الابطال المحاربين ما فيه اذكاء روح الحماسة فى النفوس وطبع الشباب على الشجاعة وترغيبهم على الجهاد .

اختار من سورة البقرة قوله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (١٩٠) .

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فأقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (١٩١) .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكونَ الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (١٩٣) .

« كتب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم وعسى ان تكرهو شيئا وهو خير لكم ».

ومن سورة آل عمران : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض او كانوا غُزىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم واللهَ يُحيي ويُميت والله بما تعملون بصير ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خيرٌ مما يجمعون ولئن متم او قتلتم لألى الله تحشرون) ١٥٨ .

ومنها : (ولا تحسَبنَّ الذين قُتِلُوا فى سبيل الله امواتاً ، بل احياءٌ عندَ ربهمُ يرزَقُون فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم

يلحقوا بهم مِن خلفهم الا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وأَنَّ اللهَ لا يُضيع أجرَ المؤمنين ، ١٧١ .

ومن سورة النساء : (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يَغْلِبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيما (٧٤) ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها وأجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا ، (٧٥) الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا (٧٦) ، ومنها : (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما (١٠٤) .

ومن سورة الانفال : يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُولوهم الادبار ومن يُولِّهم يومئذٍ دُبُرهُ الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئةٍ فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، (١٦) .

ومنها : يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فِئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن اللهَ مع الصابرين .

ومن سورة التوبة : (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيْمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بَدَءوكم أولَ مرة ، أتخشونهم ؟ فاللهُ أحقُ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم اللهُ بأيديكم ويجزهم ويَنْصُرْكم عليهم ويشفِ صدور قومٍ مؤمنين .

ومنها : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرَّمَ اللهُ ورسُولهُ ولا يدينون دينَ الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

ومنها : « انفروا خفافاً وثِقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون .

يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

ومنها : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة : يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والفُرقان ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .

ومنها : وجاهدوا في الله حقَ جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّةَ أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير .

ومن سورة محمد (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما مناً واما فداء حتى تضعَ الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض . والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم) .

ومن سورة الحجرات « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » .

ومن سورة الصف : (إن الله يُحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويُدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار، ومساكن طيبةً في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، واخرى تُحبونها : نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبشر المؤمنين » [1] .

---

(١) لباب الاداب من ١٤٨ ـ ١٥٥ .

ـ ومن الاحاديث ـ

واختار من الاحاديث ما فيها الترغيب والحث على الجهاد نختار منها :

عن هشام عن الحسن رحمه الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: « لغدوة[١] أو روحةٌ في سبيل الله تعالى أفضل من الارض وما عليها ، ولموقفُ رجلٍ في الصف أفضل من عبادة ستين سنة » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما « ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث ابن رَواحة رحمه الله في سرية فوافق ذلك يوم الجمعة ، فقال : اصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم الحق بأصحابي ، وقد غدا أصحابه ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال : مالكَ لم تغـدُ مع أصحابك ؟ قال : أحببت ان اصـلي معك الجمعة ثم الحقُ بأَصحابي ، فقال صلى الله عليه وسلم : لو اعتقت ما في الارض جميعاً ما أدركت فضلَ غدوتهم » .

وعن أبي هريرة رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عُـرِض عليَّ أولُ ثلاثة يدخلون الجنة من بني آدم وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول الثلاثة الذين يدخلون الجنة ـ فالشهيد ، وعبدٌ مملوك لم يشغله رِقٌّ الدنيا عن طاعة الله تعالى وفقير متعفف ذو عيال ، واما الثلاثة نفر الذين يدخلون النار فأمير مسلط ، وذو مال لا يؤدي منه حق الله تعالى . وفقير فخور .

وعن أنس بن مالك رحمه الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من عبد يموت وله عند الله خير يتمنى الرجوع الى الدنيا وإن كان له الدنيا لما يخاف من هول الموت الا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فانه يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيُقْتَـل مرة اخرى .

وعن سعيد بن جُبَيْر رحمـه الله في قول الله تعـالى (فصَعِقَ من في السموات ومن في الارض الا مَنْ شاء الله) قال : هم الشهداء متقلدوا السيوف حول العرش وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « والذي نفسي بيـده لوَدِدْتُ اني اقاتل في سبيل الله فأقْتَـل ثم أحيا فاقتل ثم احيا فاقتَـل » .

وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال « والذي نفسي بيده لا يُكْلَمُ أحدٌ في

---

(١) الغدو السفر مبكراً والرواح العودة .

سبيل الله ـ والله أعلم بمن يكلم في سبيله ـ الا جاء يوم القيامة وجرحُه يثغب[(١)] دماً اللون لونُ الدم والريحُ ريحُ المسك » .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه لما كان يوم أُحد قال : من يأتيني بخبر سعيد بن الربيع الانصاري ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فذهب الرجل يطوف بين القتلى فقال له سعد بن الربيع ما شأنك فقال الرجل : بعثني رسول الله اليك لآتيه بخبرك ، فقال : فاذهب اليه فأقرِه مني السلام واخبره اني قد طعنت اثنتي عشرة طعنة واني قد أنفذت مقاتلي ، واخبر قومنا انه لا عذر لكم إن قُتل رسول الله وواحد منكم حيٌ » [(٢)] .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : وقوف ساعة في الصف في سبيل الله تعالى أفضل من قيام ليلة القدر تحت الحجر الاسود .

وروى عنه صلى الله عنه وسلم انه سمع رجلا يقول : اللهم أسألك خيرَ ما تُسأل فاعطني أفضل ما تعطي ، فقال : إن استجيبَ لك أهريق دمك في سبيل الله » .

وعن عَسعَس بن سلامة قال : أتى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الجبل يتعبد فَفُقِدَ وطُلب ، فجيء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله ما الذي حملك على ذلك فقال يا رسول الله ، أردت أن اعتزل فاتعبد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفعل ، فان صبرَ أحدكم ساعة من النهار في بعض مرابط الاسلام خيرٌ من عبادة رجل خالٍ أربعين سنة ، وعن عبدالله بن عمرو رضوان الله عليهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أول ثلاثة يدخلون الجنة : الفقراء المهاجرون الذين تُتَقىٰ بهم المكاره واذا امروا سمعوا وأطاعوا ، واذا كان للرجل منهم حاجة الى السلطان لم تقضَ حتى يموت وهي فى صدره ، وإن الله عزَّ وجلَّ ليدعو يوم القيامة

---

(١) يثغب : بفتح الغين المهملة اى يجرى متفجراً اى يتصببُ .

(٢) رواه مالك فى الموطأ .

الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول تعالى : أين عبادي الذين قاتلوا فى سبيلي فقُتِلوا وأُوذوا فى سبيلي ، وجاهدوا فى سبيلي ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير حساب وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك ، من هؤلاء الذين أثرتهم علينا فيقول الرب عزَّ وجلَّ هؤلاء عبادي الذين قتلوا فى سبيلي واوذوا فى سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) .

وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشهيد لا يجد مسَّ القتل الا كما يجد أحدكم القرصة يُقْرَصها » .

وعن أبي عَبْسٍ رحمه الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أغبرَّت قدَما عبدٍ في سبيل الله فتمسهما النارُ » .

واورد الامام أبو الحسن يحى بن نجاح رحمه الله فى كتاب (سبل الخيرات) قال يُروىُ عن النبي قال : « الا أُخبركم بخير الناسِ منزلة ؟ رجلٌ اخذ يعنان فرسه يجاهد فى سبيل الله .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما فى قول الله تعالى : (ولا تحسبنَّ الذين قتلوا فى سبيل الله امواتاً ، بل احياء عند ربهم يُرزقون » قال ارواحهم كطيور خضرٍ تسرح فى الجنة ، ثم تأوي الى قناديل خضرٍ معلقة تحت العرش » .

واورد الامام الحافظ ابو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل الاصبهاني رحمه الله فى كتاب (الترغيب والترهيب) عن انس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله : « الشهداء ثلاثة رجال ، رجل خرج بماله ونفسه مُحتسباً فى سبيل الله تعالى ، لا يريد ان يَقْتُل ولا يُقتَل لتكثير سواد المسلمين فإن مات او قتل غفرت له ذنوبه كلها واجير من عذاب القبر ، وأومن من الفزع الاكبر وزوج من الحور العين وحلت عليه الكّرامة ، ووضع على رأسه تاج الوقار والخلد ، والثاني رجل جاهد بنفسه وماله محتسبا يريد ان يَقتُل ويُقتَل ، فإن مات أو قتل جاء يوم القيامة شاهراً سيفه واضعه على عنقه والناسُ جاثون

على الركب يقول : الا فأفسحوا لنا فانا قد بذلنا دماءنا واموالنا لله عزّ وجلّ »
قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم « والذى نفسي بيده لو قال ذلك لابراهيم خليل الرحمن او لنبي من الانبياء لتنحى لهم عن الطريق لما يرى من واجب حقهم حتى يأتوا منابر من نور عن يمين العرش فيجلسون ينظرون كيف يُقضى بين الناس لا يجدون غمّ الموت ، ولا يغتمون في البرزخ ولا تُفزعهم الصيحة ولا يهمهم الحساب ولا الميزان ولا الصراط ، ولا يسألون شيئا الا اعطوا ولا يشفعون فى واحد الا شفعوا ويُعطى من الجنة ما أحبّ وينزل من الجنة حيث احبّ .

وعن ابن عمر رضي اللّه عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الغازي فى سبيل الله والحاج الى بيت الله والمعتمر ـ وَفْدُ اللّه عزّ وجلّ ، سألوا فأعطاهم وَدَعوْا فأجابهم .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم « انه سئل : أيُّ الاعمال أفضل ؟ قال الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد فى سبيل اللّه تعالى » .

وشفع المؤلف ما اختار من الايات والاحاديث التى قدمنا جملة صالحة منهما بمباحث لغوية مما ورد فى اسماء الشجاعة (اللباب ١٦٥) .

ثم ذكر من اشتهر بالفتك فى الجاهلية ، ومن شهر بالفتك فى الاسلام وعدد جماعة ممن عرفوا بالشجاعة والقتال والصبر ، وعاد فخصّ بعض اصحاب رسول الله ممن شهروا بالجلاد والبسالة قال :

وأما من كان من أصحاب رسول الله صلى اللّه عليه وسلم ورحمة اللّه عليهم اجمعين من الشجعان وكلهم كان مقداما فى الحرب حريصاً على الشهادة ـ ولامير المؤمنين علي بن ابي طالب رضوان الله عليه التقدمة فى الاقدام والصيت الشائع فى الشجاعة .

ومن أصحاب رسول اللّه ـ بل من أهله ـ ابن عمته الزبير بن العوّام رضى الله عنه ـ المشهور بالاقدام والبأس .

روى المدائني عن مصعب بن عبدالله الزبيرى قال : اجمع اهل الاسلام أنه لم يكن فى الناس راجل" اشجع من علي بن ابي طالب ، ولا فارس" اشجع من الزبير بن العوام رضي الله عنهما » .

« ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن الجموح رحمه الله شهد بدراً قال : « سمعت القوم - يعني المشركين - وابو جهل فى مثل الحَرَجَة(١) يقولون ابو الحكم لا يُخْلَصُ اليه ، فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه فلما امكنني حملت عليه فضربته ضربةً أطَنَّتْ قدمه نصف ساقه فوالله ما شبهتها - حين طاحت - الا بالنواة تطيحُ من تحت مِرْضَخَة(٢) فضربني ابنه عِكْرِمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي ، واجهضني(٣) القتال عنها فلقد قاتلت عامة يومي واني لاسحبها خلفى ، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت عليها حتى طرحتها » ثم عاش رحمه الله الى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ومن أصحاب رسول الله ابو دُجانه سماك بن خرشه بن لَوْذان بن عبدود ابن ثعلبة بن الخزرج رضي الله عنه شهد حروب رسول الله كلها وقال النبي صلى الله عليه يوم احد قبل القتال « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقام اليه رجال فأمسكه عنهم ، منهم : الزبير بن العوام رحمه الله حتى قام أبو دُجانة رضي الله عنه فقال ما حقه يا رسول الله قال رسول الله : « تضرب به في العدو حتى ينحني ، قال : أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه ، وكان أبو دُجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكان اذا أعلم بعِصابة حمراء علم الناس انه سيقاتل فلما أخذ السيف من يد رسول الله اخرج عصابته تلك فعَصَبَ به رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ابا دُجانه يتبختر : « إنها لمشية يُبغِضها الله الا فى مثل هذا الموضع » .

---

(١) الشجر الملتف .
(٢) المرضخة حجر يرضخ به النوى اى يكسر .
(٣) اجهضني القتال اى اسرعنى واشغلنى .

قال الزبير بن العوّام رضي الله عنه فوجدت في نفسي حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دُجانة ، وقلت انا ابن صفية عمّته ومن قريش وقد قمت اليه فسألته إيّاه قبله ، فأعطاه اياه وتركني ، والله لأ نظرنَّ ما يصنع ، فأتبعته ، وأخرج عِصابة فعصب بها رأسه فقالت الانصار ، اخرج ابو دُجانة عصابة الموت وكذا كانت تقول اذا تعصب بها ، فخرج وهو يقول :

انا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدَى النخيل
أن لا اقوم الدهرَ في الكبول أضْرِبْ بسيف الله والرسول

الكَبُّول : آخر الصفوف وقيل وراء القوم ،

قال الزبير : فجعل لا يلقي احداً الا قتله وكان في المشركين رجل لايدع جريحاً الا دفَّف[1] عليه فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه فدعوت الله ان يجمع بينهما فألتقيا فأختلفا ضربتين فضرب المشك أبا دُجانه فأتقاها بدرقته فعضتْ بسيفه وضربه أبو دجانة فقتله ، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبه ، ثم عزل بالسيف عنها وقال : أكرمت سيف رسول الله ان اضرب به امرأة فقال الزبير فقلت : الله ورسوله اعلم » •

ومن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن مالك رضي الله عنه[2] حضر القتال يوم مُسيلمة الكذاب وقد قتل اكثر اصحاب مسيلمة ، والتجأ منهم نحو من سبعة آلاف الى حديقة الموت وانما سميت حديقة الموت لكثرة من قتل بها وكان اسمها قبل ذلك « أباض » فأمتنعوا فيها فقال البراء رضي الله عنه : احملوني على الجدار فحملوه فرأى كثرتهم فقال انزلوني فأنزلوه ثم قال : احملوني على الجدار فقال : افٍ لهذا جشعا[3] ثم اقتحم عليهم الحديقة فقاتلهم على الباب حتى

---

(١) دفف على الجريح ـ بالدال المهملة ـ وذفف بالذال المعجمة : اجهز عليه •

(٢) هو اخو انس بن مالك •

(٣) الجشع بفتحتين الجزع او كراهة الموت •

فتحه للمسلمين ودخلوا عليهم فقتلوهم اجمعين وقتل من المسلمين نحو من تسع مئة رجل رضي الله عنهم .

وبعد ان عدد اسامة جماعة من الصحابة الفرسان المحاربين ذكر هاشم ابن عتبة المرقال[١] وائره في حرب القادسية ، وروى خبر عمرو بن معدي كرب وكان من أمره ان الاعاجم استخدموا فيلاً في كتيبة هاجموا بها المسلمين فقال عمرو : « انا حامل على الفيل ومن معه فلا تدعوني اكثر من جزر جزور ، وإن تأخرتم عني فقدتم ابا ثور[٢] واين لكم مثل ابي ثور ؟ فقذف نفسه في وسطهم فاستلحموه وشجروه بالرماح طويلا ، ثم أفضى الى السيف ثم سقط من فرسه فتعطفت عليه رجالُهم ، ونادى المسلمون ! ابو ثور اللهَ اللهَ فانه إن هلك لم تجدوا منه عوضاً وحملوا عليهم فأخرجوهم عنه واذا هو قد طُعن من كل ناحية واذا هو جاث على ركبتيه قد ازبَد ، يضرب بسيفه يمينا وشمالا واذا سواعد الرجال واسوُقهم حوله كأنها اكاريع الغنم ، فلما انفرج عنه الاعاجم اخذ برجل فرس منهم فحركه الفارس فلم يستطع براحاً فنزل عنه الفارس وانهزم الى اصحابه وركبه عمرو فقال له رجل : فداك ابي وامي يا ابا ثور كيف تجدك ؟ قال اجدني صالحاً قال فاذا إهابه قد خرق فعصب بالعمائم وعاد الى القتال كأنه لم يصنع شيئا .

وروى ان عمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزبيدي رحمه الله قال : لو طفت بظعينة أحياء العرب ما خفت عليها ، ما لم القَ عَبْدَيْها وحُرَّيها يعني بالعبدين عنترة بن شداد ولسُليك بن السُلكة ، والحرين : دريد ابن الصِمَّة وربيعة بن مُكدَّم قال وكلاً قد لقيت واعطاني الله النصر عليه .

قال : وفي السليك تقول امه السَلكة وقد قتل :

طاف يبغي نجوة   من هلاك فهلك
ليت شعري ضله   أي شيء قتلك

---

(١) هو هاشم بن عتبة بن ابي إوقاص ابن اخى سعد بن ابى وقاص الزهري .

(٢) ابو ثور كنية عمرو بن معدي كَرِبَ .

أمريضٌ لم تُعَـــدْ أم عــــدوٌّ ختلك
كـــل شيءٍ قاتل حين تلقـــى أجلك
والمنـــايا رصـــدٌ للفتـــى حيث سلك
أيُّ شيء حســنٍ للفتـــى لم يك لك

وراح يروي لعنترة العبسي ، ولابن الخطيم ولربيعة بن مُكدَّم ولعامر بن الطفيل ولدريد بن الصِّمة ولعمران بن حطّان وللاشتر بن الحارث ويروي قصصهم ووقائعهم كما روى تمثل مصعب بن الزبير في موقفه وصبره حين تخلى عنه أصحابه وفرَّ عنه ولداه ، وهو من الفرسان المشهورين بالحرب والشجاعة ، وروى عن الفضيل بن خديج .

« قال الفضيل شهدت من مصعب بن الزبير مشهداً ورأيت منه شيئا ما علمته لاحدٍ ، اني لمعه في الوقعة[1] التي قتل فيها وقد اسلمه من اسلمه ، وقتل وجوه من بقي معه وهو لا يُكْرِه ذاذك ونسمعته ينشد :

ونحن اناس لا نرى القتـــل سبةً على أحدٍ يحمي الذمارَ ويمنـــع
بنو الحرب أرضعنا به غيرُ فحَّش ولا نحن مما جَرَّتْ الحرب تفزع
جلاد على ريب الحوادث لا تُرى على هالك عين لنــــا الدهرَ تدمع

ويستطرد الى ذكر الكثير من اخباره واخبار اهله ويجر الكلام عن وقائعه وشعره وما جرى له في شيزر والجزيرة وفلسطين وغيرها ، وهذا الفصل يطول حتى يستغرق ٧٨ صفحة ويختمه بأبيات له :

الوم الردى كم خضته مُتَعرِضاً له وهـــو عني معـــرض متجنب
وكم أخذت مني السيوف مآخذ الـ حمـــام ولكن القضـــاءَ مُغَيِّبُ
الى ان تجاوزت الثمانين وانقضت بُلهنية العيش الذي فيـــه يُرغب
فمكروه ما تخشى النفوس من الردى ألـــذُّ وأحلى من حيـــاتي وأطيب

---

(١) وقعة ـ بمسكن ـ حرب وقعت بين مصعب وعبدالملك بن مروان على الدجيل قتل فيها مصعب رحمه الله وكان من شجعان قريش وكرمائها .

باب السياسة

وددت أن انتخب للقارىء بعض مقتطفاته من هذا الباب ويريد بالسياسة حسن المعاملة ولين الجانب وشعور الفرد بالمسؤلية وانه راع ومسؤل عن رعيته ، واقتياد الجماهير وسياسة العامة بالانصاف لها والعدل بينها والعطف عليها لين في غير أهمال وشدة من غير جور ، وما احوج ساستنا ان يتدبروا معنى هذه المقتطفات قال تعالى (من سورة آل عمران) : فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فَظّاً غليظَ القلب لأنفضوا مِن حَولِكَ ، فأعْفُ عنهم ، واستَغْفِرْ لهم وشاوِرهم في الامر ، فاذا عزمتَ فتوكل على الله ان الله يُحِبُ المتوكلين [١٥٩] ومن سورة حم السجدة :

« ومَنْ أحْسَنُ قولاً ممن دَعَا الى الله وعَمِلَ صالحاً وقال انني من المسلمين ولا تستوي الحَسَنَةُ ولا السيِّئةُ ، ادفع بالَّتي هي أحسَنُ ، فاذا الذي بَيْنَكَ وبينه عداوَةٌ كأنَّهُ وليٌّ حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم [٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥] » •

ومن سورة حم عَسِق : (فلذلك فأدعُ واستقم كما أمِرْتَ ولا تتبع أهواءهم وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب وأمرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالُنا ولكم أعمالكم لا حجةَ بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) ١٥ •

ومن الاحاديث :

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ص) « يومٌ من امام عَدْلٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة ، وحدٌ يقام في الارض بحقه أزكى من مطر أربعين صباحا » •

وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي (ص) انه قال « من رفق بأمتي رفق الله تعالى به ومن شقَّ على امتي شق اللهُ عليه •

وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه « ما من الناس أعظَمُ أجراً من وزير صالحٍ مع سلطان يأمره بذات الله فيطيعهُ » •

وعن أبي رجاء العُطاردي رحمه الله قال : سمعتُ أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو على المنبر يقول : سمعت رسول الله (ص) يقول « الوالي العادل المتواضع ظلُّ الله عزَّ وجلَّ في أرضه ، فمن نصحه في نفسه وفي عباد الله عزَّ وجلَّ حشره الله في ظله يوم لا ظلَّ الا ظلُّه ، ومن غشه في نفسه وفي عباد الله خذله الله يوم القيامة ، ويرفع للوالي العادل في كل يوم وليلة عمل ستين صدّيقا كلهم عابدٌ مجتهدٌ في نفسه » .

وعن أبي سعيد الخُدْري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ احبَّ الناس الى اللهَ عزَّ وجلَّ وأقربَهُم منه مجلساً ، الامام العادل .

وعن أبي هريرة رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة درجة لا ينالها الا ثلاثة : امام عادل ، وذو رَحِمٍ وَصَولٌ وذو عِيالٍ صبُورٍ .

فقال عليٌّ رضوان الله عليه : وما صبرُ ذي العيال ؟ قال : لا يَمُنَّ على أهله بما أنفق عليهم » .

وعن أبي هريرة رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة : « عدل ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها يا أبا هريرة جَوْرُ ساعة أشدُّ وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة » (١) .

وعن عبدالله بن مُغفَّل رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله رفيق يُحِبُّ الرِّفق ويُعطي عليه ما لا يعطي على العُنف » .

وقال زياد بن أبيه : جمال الولاية شدة في غير افراط ولِينٌ في غير اهمال ،

وقال معاوية رحمه الله لعمر بن سعيد : ما بين ان تمْلِكَ الملكَ رَعيَّتُهُ وبين أن يملِكَهَا الا الحزم والتواني .

---

(١) نقله المنذري في الترغيب .

وعن المدائني قال : قال الوليد بن عبدالملك لأبيه : يا أبَهْ ما السياسة قال : هيبة الخاصة مع صدق محبتها واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها واحتمال هَفَوات الصنائع فإنَّ شُكرَها أقرب للايدي منها .

وعن عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها : من أراد الله به خيراً جعل الله له وزير صدق صالحاً إن نسيَ ذكره ، وإن ذكَرَ أعانه .

عهد بعض الملوك الى وصيّه فقال :

كن بالحق عمولاً قؤولا ، وعما جهلت سؤولا ، وافحص عن الامور تنجلِ واستبطن أهل التقوى وذوي الاحساب تزن نفسك وتحكم أمرك واياكَ وقبولَ التزكية فيما لا تَشُكُ انك فيه مكذوب فانها خدعة تَتْبَعُها صرعة ، واستبطن أهل التقوى وذوي الاحساب تَزِنْ نفسك ، وتُحكِمْ أمرك ، ولا تختص بسرك الا من يكتمه ولا تُولِّ أمرك الا من يهمه ولا تثق برجلٍ تتهمه ، ولا تعود لسانك الخنا وكثرة التألّي ولا تكلف نفسك ما لا تقوى عليه ، واذا هممت بخير فعجله ، واذا هممت بخلافه فتأنَّ فيه وارحم ترحم .

وعهد آخر الى وصيّه : اتقِ من فوقك يَتَّقيكَ من تحتك وكما تحب ان يُفعل بك فافعل برعيتكَ ، وانظر كل حسنٍ فألزمه واستكثر من مثله ، وكل قبيح فارفضه ، وبالنصحاء يستبين لك ذلك ، وخيرهم أهل الدين وأهل النظر في العواقب ، ولا تستنصح غاشاً ، ولا تستغش ناصحاً ولكل طبقة مهنة ، ولكل ذي علم بأمر فهو أولى به .

وانما رأيت آفة الملوك في ثلاثة امور ، فأحسم عنك واحداً واحكم اثنين ، اتباع الهوى ، وتولية من لا يستحق وطي أمور الرعية عن الراعي ، فانك إن ملكت هواك لم تعمل الا بالحق ، وان وليت المُستحق كان عوناً لك على ما يجب ، ولم تَضع الأمورُ على يديه ، واذا تناهت اليك الامور من امور الرعية على حقائقها ، عاش الوضيع وحَذِر الرفيع وأمسك الظلوم ، وأمِن المظلوم .

قال كسرى : اني ضبطت ملكي بأني لم أهزل في أمرٍ ولا نهي قطُّ ، وأعطيتُ للغناء لا للرضى ، وعاقبت للأدب لا للغضب ، وصدقتهم الوعد والوعيد ،

وعمَمَتُ بالعدل والانصاف ، وكففت يدي عن دمائهم وأموالهم الا بحقها .

وغضب كسرى على رجل من أصحابه فأمر بحبسه وقطع ما كان جارياً عليه ، فاقل له بزرجمهر ، ان الملوك تؤدبُ بالهجران ولا تعاقب بالحرمان ، وقَّع بعض العمال الى كسرى قُباذ في انطاكية :

للملك جماعة قد فسدت نياتهم وخَبُثت ضمائرهم وقد همُّوا بما لم يفعلوا وهم غير مأمونين على المملكة ، وهم فلان وفلان وفلان فان رأى الملك ان يعاجلهم فعل ، فوقع في رقعته :

انما أملك الاجسادَ لا النيات وأحكم بالعدل لا بالرضى وأفحص عن الاعمال لا عن السرائر .

ورُوي ان الموبذ سمع ضحك الخدم في مجلس أنوشروان فقال له : اما تمنع هؤلاء الغلمان ؟ فقال له أنوشروان إنما يهابنا أعداؤنا .

وقال بزرجمهر : عاملوا أحرار الناس بصفو المودة وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة وعاملوا السِّفلة بالمخافة صُراحاً .

قال المدائني : لما ولي زياد بن أبيه صَعِدَ المنبر بعد صلاة العصر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس اني رأيت خِلالا ثلاثاً نَبَذْتُ اليكم فيها بالنصيحة : رأيت اعظام ذي الشرف واحلال ذي العلم وتوقير ذوي الاسنان واني اعاهد الله لا يأتيني شريف بوضيع لم يعرف له شرفه على ضعته الا عاقبته ولا يأتيني عالم بجاهل لاحاه في علمه ليُهجّنه عليه : الا عاقبته ولا يأتيني كبير بصغير لم يوقر له سنه الا عاقبته» فانما الناس بأعلامهم وذوي اسنانهم ، ثم تمثل :

تُهدى الامور بأهل الرأي ما صَلَحَتْ

فإن تولت فبالاشرار تنقاد

لا يَصْلُحُ القوم فَوْضَى لا سَراة لهم

ولا سَراة اذا جهالهم سادوا

وقال الحكماء :

ان الملوك حقيقون باختيار الاعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وامورهم من غير ان يكرهوا على ذلك أحدا فان المُكْرَه لا يستطيع المبالغة في العمل ، وقالوا :

ينبغي للملك أن يجتنب السُكرَ لانه حارس المملكة ، ومن القبيح أن يحتاج الحارس الى من يحرسه •

وقالوا ان السلطان اذا كان حازماً ووزارؤه وزراءَ سوء منعوا خيره من الناس فلم يجترىء عليه أحد ولم يدنُ منه وانما مثله في ذلك كالماء الصافي الطيب الذي فيه التماسيح فلا يستطيع أحد ـ وان كان سابحاً وكان الى الماء محتاجا ـ ان يدخله وانما حلية الملوك وزينتهم أصحابهم إن يكثروا ويصلحوا •

وقالوا ويجب على الملوك تعاهد عمالهم والتفقد لامورهم حتى لا يخفى عليهم احسان محسن ولا اساءة مسيء ثم عليهم بعد ذلك ان لا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يُقِرُوا مسيئا ولا عاجزاً على العجز والاساءة فانهم إن صنعوا ذلك ، تهاونَ المحسن واجترأ المسيء وفسد الامر وضاع العمل •

وقالوا انما يؤتى السلطان من قبل ست خلال :

الحرمان ، والفتنة ، والهوى ، والفظاظة ، والزمان ، والخرق ، فاما الحرمان فان يحرم من الاعوان والنصحاء والساسة أهل الرأي والنجدة والامانة أو يقصد بعض من هو كذلك منهم •

واما الفتنة فتخرب الناس ووقوع الحرب بينهم ، واما الهوى فالاغرام بالنساء والدعة والشراب ، أو بالصيد وما أشبه ذلك ، واما الفظاظة فافراط الشدة حتى ينبسط اللسانُ بالشتم ، واليدُ بالبطش في غير موضعهما •

واما الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين والموتان [1] ونقص الثمرات والفرق وأشباه ذلك ، واما الخرق فأعمال الشدة في موضع اللين واللين في موضع الشدة •

وقال الحكيم يجب على الملك الفاضل أن يُحصن عقله من العجْب ووقاره من الكِبر وعطاءه من السرف وصرامته من العنف وحياءه من البلادة وحلمه من التهاون وامضاءه من العجلة وعقوبته من الافراط وعفوه من تعطيل الحقوق •

وقالت الحكماء : من كانت فيه ثلاث خلال لم يستقم له أمر : التواني في العمل والتضييع للفُرص ، والتصديق لكل مُخبِر •

وقد قيل أربعة أشياء لا يستقل قليلها: المرض ، والنار ، والدَّيْنُ ، والعداوة •

وقالوا إن العاقل وإن كان واثقاً بقوة عقله فليس ينبغي ان يحمله ذلك على أن يجني على نفسه العداوة والبغضاء اتكالا على ما عنده من الرأي والقوة كما ان العاقل اذا كان عنده الترياق لا ينبغي أن يشرب السم اتكالا على ما عنده •

وقال مؤلف الكتاب :

لا تَحقرنَّ من الضعيف عداوة ... فالنار يحرق جمرها وشرارها
واحذر مداجاة العدو وكيده ... ان العداوة ليس تخبو نارها

وقال العربي :

لله درك ما تظن بثائر ... حرّانَ ليس عن التِرات براقد
ايقظته ورقدتَ عنه ولم ينم ... حَنَقَا عليك وكيف نومُ الحاقد

---

(١) الموتان بضم الميم بوزن بُطلان أو بفتحها مع سكون الواو الموت الكثير او الوباء في الانفس والانعام والاغنام •

إن تُمكِن الايام منــك وعلَّها
يومـاً يكِـلْ لك بالصُـواع [1] الزائد

وقال الشاعر :

اذا المـرء أولاك الهـوان فأوله
هوانا وإن كانت قريبـاً أواصره

فإن أنت لم تقـدر على ان تهينه
فذره الى اليـوم الذي أنت قادره

وقارب اذا ما لم تكن لك قـدرة
وصمم اذا أيقنتَ انك فاقره [2]

وقال الحكيم : ما استُعين على الغرم بمثل مجانبة الهوى .

وقال آخر :

من جعل ملكه خادماً لدينه انقاد له كـل سلطان ، ومن جعل دينه خادماً لملكه طَمِعَ فيه كل انسان .

وقال آخر :

من تمام الكرم ان تذكر الخدمة لك وتنسى النعمة منك وتَفْطِن للرغبة اليك وتتغابى عن الجناية عليك .

وقال آخر : ما أقبحَ منع الاحسان مع حسن الامكان .

وقال الآخر : احسن الى من كانت له قُدامَة في الاصل وسابقة في الفضل ولا يُزهِدنَّك فيه سوء الحالة منه ، وادبار الدولة عنه فانك لا تخلو في اصطناعك

---

(١) الصواع مكيال من المكاييل ، ومنه (قالوا نفقد صُواع الملك) .

(٢) فاقره أي كاسر فقار ظهره ومنه « تظن ان يفعل بها فاقرة . »

له واحسانك اليه من نفس حرة تملك رقها أو مكرمة حسنة تُوَفي حقها فان الدنيا تجبر كما تكسر والدولة تُقبل كما تدبر .

وقال آخر : بالراعي تَصْلُحُ الرعية وبالعدل تُمْلَكُ البرية .

وقال آخر : سلطان السوء يُخيف البريءَ ويصطنع الدنيء .

وقال الحكيم : ليكن مرجِعُك الى الحق ، ومنزعُك الى الصدق ، فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين .

وقال : استعِن على العدل بخلَّتين : قلةِ الطمع ، وشدة الورع .

وقال آخر : أرفق باخوانك وأكْفِهم غرب لسانك فطعْن اللسان أشدُّ من طعن السِّنَان وجرح الكلام أصعب من جرح الحُسام .

قال العتّابي :

مما يعين على العدل اصطناعُ مَنْ يؤثر التقى ، واطراحُ من يقبل الرشا واستكفاء من يَعْدِلُ في القضية ، واستخلاف من يشفق على الرعية .

وقال الاسكندر لقوم من حكماء الهند :

أيُّما أفضل : العدل أو الشجاعة ؟ قالوا اذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة .

وقال افلاطون :

من بدأ بنفسه أدرك سياسة الناس ، وقال : اصلحوا أنفسكم تَصلح لكم آخِرتِكم .

وقال ارسطاطاليس : أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تَبَعاً لك .

وقال الحكيم : لأن تُحسِنَ وتُكفرَ خير من أن تُسِيء وتُشكر فمن أحسن بنفسه بدا ومن أساء فعلى نفسه اعتدى » اهـ .

وقد استقصى المؤلف بهذا الباب الكثير من أقوال الحكماء والفلاسفة والقادة والساسة وقد اقتبست جملة صالحة من مختاراته التي استشهد بها أو ضمها تحت هذا القسم ولو رحت اقتبس من كل باب من أبواب الكتاب لخرجت عن القصد وانما غايتي تقديم نماذج توضح طريقة المؤلف وتعرب عن مادة الكتاب وتكشف عن سعة اطلاعه وتكفي للتعريف بما اشتمل عليه كتاب اللباب من الآداب والاسم منطبق على مسماه ونصيب الادب فيه أوفر من غيره ، وفوائده لا تحصى والنفس لا تمل من قراءته وحسنُه يزيدك ملاحةً كلما عاودته نظـرا وجمالا وكلمـا تصفحته متفهما ، فأنت تتنقل بين مروج نضرة وأفاويه عبقة وعيبة متضوعة تجد فيه بلاغةً وحكمةً واخباراً وشعراً وان من البيان لسحرا ، وبرغم ان اللباب قد مضى على تأليفه نحو من ثمان مئة سنة فإن موضوعاته لم تبل جدتها وما زالت مادتها واسلوبها تستسيغها أنفسنا ويرتاح اليها ذوقنا .

البديع
فى نقد الشعر

من كتب اسامة التي اربت على العشرين كتابا كتاب ـ البديع ـ أو نقد الشعر كما سماه حفظه لنا الزمن من الضياع ، فقد وجد منه نسختان أحداهما في مكتبة البلدية بالاسكندرية والثانية مخطوطة بدار الكتب برقم ـ ٥ بلاغة ـ والنسخة الاولى كتبها ناسخها في ١٧ من شعبان سنة ٧١١ للهجرة وعن هذه النسخة صورت دار الكتب نسخة مودعة فيها بعدد ـ ١٠١٦١ ـ وقد قام الدكتوران أحمد أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد مدير ادارة التأليف بوزارة الثقافة والاشاد القومي وراجعه الاستاذ ابراهيم مصطفى عضو مجمع اللغة العربية ، ومن مقابلة هذه النسخ اخرج لنا الكتاب أقرب ما يكون الى الصواب ، وقد رجع المحققان الى كثير من الدواوين و كتب الادب لضبط النص والتحقق منه فاضفيا على الكتاب في نهجهما العلمي فوائد كثيرة .

جاء في مقدمتهما « كان دارسوا البلاغة في عصر اسامة يرمون الى هدفين أولهما دراسة بلاغة القرآن ومعرفة مظاهر فصاحته ، وثانيهما القدرة على تذوق القول الجميل والقدرة على انتهاجه ، وما بقي لدينا من كتب هذا العصر يدل في وضوح على هذين الهدفين وقد يتغلب أحدهما على الآخر في بعض الكتب فترى كتاب البديع لاسامة يغلب عليه ضرب المثل البلاغية للتذوق والاقتداء وكان اسامة ذا ذوق مرهف فاستطاع أن يجمع حشداً من الامثلة المتخيرة في معظم الاحيان » .

جمع اسامة ما كان متفرقاً في كتب المتقدمين المصنفة في البديع أو نقد الشعر وذكر محاسنه ومساوئه من حشد الامثلة لكل نوع من أنواعه .

وقف على كتاب البديع لابن المعتز وكتاب الحالي للحاتمي وكتاب المحاضرة للحاتمي أيضاً وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني وكتاب الصناعتين للعسكري وكتاب اللمع للعجمي ، فأخذ من هذه الكتب أحسن أبواب كتابه وقال : لهم فضيلة الابتداء وله فضيلة الاتباع ولم يقف عندما وصلوا اليه بل زاد عليهم واعطى أمثلة لانواع لم يذكروها في كتبهم .

فالبديع عند ابن المعتز ثمانية عشر نوعا هي : الاستعارة ، والتجنيس ،

والمطابقة ، ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها ، المذهب الكلامي ، الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، تجاهل العارف الهزل الذي يراد به الجد حسن التضمين ، التعريض ، الكتابة ، الافراط في الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم ، حسن الابتداء .

يقول ابن المعتز « قدمنا أبواب البديع الخمسة ، وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال : البديع أكثر من هذا أو قال : البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها لذلك أحببنا أن نكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ويعلم الناظر اننا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختباراً من غير جهل بمحاسن الكلام فمن أحب ان يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا الى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره » .

وكثرت أبواب البديع بعد ابن المعتز فجعلها ابن رشق القيرواني صاحب العمدة ، خمسة وستين بابا من الشعر ، وبلغ اسامة ابن منقذ خمسة وتسعين نوعاً ، وأخيراً جمع منها صفي الدين الحلي مائة وأربعين نوعا في قصيدة نظمها في مدح الرسول وكذلك فعل عبدالغني النابلسي في بديعيته التي مدح بها الرسول عليه الصلاة والسلام .

البديع في كتاب اسامة :

اشتمل كتابه على خمسة وتسعين بابا ذكر فيه جملة من أبواب البلاغة التي كانت معروفة في عصره ولم يرتبها على الابواب التي انتهت اليه ـ المعاني ، البيان البديع ـ كما فعله السكاكي في مفتاح العلوم ـ وانما اطلق على كل انواع البلاغة البديع ـ ولم يهتم للتعاريف والقواعد وانما جعل اهتمامه ينصب على الامثلة من الشعر قديمه وحديثه ، فذكر من المعاني مثلاً التتميم ، والاحتراس والتذييل والاسهاب ، والاطناب ، والمساواة ، ومن البيان ذكر أمثلة للاستعارة والكناية والاشارة والاستعارة عنده اوردها في أبسط صورها هي استعارة المحسوس للشيء المعقول ، واكثر ما مثل له يندرج تحت علم البديع .

والبديع الذي عناه اسامة في كتابه هو تلمس ما في القرآن الكريم وفي شعر الشعراء الموهوبين من جاهليين والعصور التي تلتها حتى عصر المؤلف ومن أمثلته التي أوردها نتعرف على الذوق السليم والى الجمال الفني الذي اتبعوه في استعمال البديع الذي يكسب القول زينة ويلبسه بهاء وجمالا ، وتربية الذوق عنده وعند من تقدمه يكون بالمثال الرائع من المنظوم والمنثور والاكثار من النماذج والامثلة ولا يأتي عن طريق حفظ القاعدة والتعاريف ، التي لا يخرج القارىء منها بطائل فكم من طالب وجدناه قد افنى عمره بقراءة المختصر والمطول وحفظ تعاريف السكاكي وقواعده المختصرة فاذا أراد أن يكتب رسالة قصيرة نراه لا يُبين ولا يفصح عن غرضه ، بل يعجز البعض من تطبيق القاعدة على مثال من غير أمثلة الكتاب التي حفظها نصاً •

في كتاب البديع ضرب أمثلة كثيرة للتجنيس ، والنفي ، والتذييل ، والتسهيم والتشطير ، والمقابلة ، والتطريف ، والاعتراض ، والمبادىء والمطالع ، والاواخر والمقالع ، والتخليص ، والخروج ، والاعراض ، والانسجام والفك ، والسبك ، والمخالفة والتناقض ، والانتكاث والتراجع والمساواة والالتقاط والاغراب والحشو ، والرشاقة والجهامة ، ومن أهم ما عني به الكتاب ذكر السرقات الشعرية فقد عقد في هذا الغرض فصولا عدة بين المقبول منها والمصيب ، وازن بين شعر المتنبي وافكار ارسطو وفند أقوال من زعم ان المتنبي قد أخذ جملة افكاره عن ارسطو •

وعرض الى ذكر ما ينتقص فن القول وجمال الاسلوب ويذهب بكثير من بهاء النص ، فذكر الحشو ، والغلط ، والتفريط ، والمعاضلة ، والتكليف والتقشف مما يُقلل من قيمة النص ، وهو في كل ما يعرض له يوضحه بالامثلة من القرآن أو الشعر ثم يتبعهما بأمثلة من النثر الفني لبلغاء الكتاب •

هذه طريقة القدماء في تفهم أسرار البلاغة واكتساب الاسلوب انما يأتي عندهم عن طريق الاكثار من قراءة النصوص وحفظها والاكثار من القراءة للابنـــاء من الكتاب •

مقدمة المؤلف :

بسم الله الرحمن الرحيم :

« الحمد لله الحي القيوم الدائم الديوم ، خالق العلماء والعلوم والمنثور والمنظوم وصلاته على سيدنا محمد الامين المعصوم ، وعلى آله وأصحابه ذوي النجدة والحلوم وسلم تسليما الى يوم الوقت المعلوم .

هذا كتاب جمعت فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين المصنفة في نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه ، فلهم فضيلة الابتداع ، ولي فضيلة الاتباع والذي وقفت عليه كتاب البديع لابن المعتز ، وكتاب الحالي للحاتمي وكتاب المحاضرة للحاتمي أيضا وكتاب الصناعتين للعسكري وكتاب اللمع للعجمي وكتاب العمدة لابن رشيق فجمعت من ذلك أحسن أبوابه وذكرت منه أحسن مقالاته ليكون كتابا مغنيا عن هذه الكتب لتضمنه أحسن ما فيها وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

نماذج من أبواب الكتاب :

لتوضيح طريقته في بحوثه اقتبس بعض الفصول ليتعرف القارىء على طريقة فهم المؤلف للبلاغة قبل ان يقسم الى معاني وبيان وبديع .

باب التجنيس المغاير : قال :

« اعلم أن التجنيس ثمانية اجناس « فمنها التجنيس المغاير » وهو ان تكون الكلمتان اسماً وفعلاً مثل قوله تعالى حكاية عن بلقيس (واسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقوله عزّ وجلّ « فأقم وجهك للدين القيم » وقوله تعالى « يخافون يوماً تنقلب فيه القلوب والابصار ، وقوله سبحانه : « قال اني لعملكم من القالين » وقوله تعالى حكاية عن يعقوب ، « يا أسفاً على يوسف » وقوله تعالى « فكلي من كل الثمرات » وقوله جلّ جلاله « أزفتْ الآزفة » وقوله تعالى : « اني وجهت وجهي» وقول ذي الرُّمة :

كأن البُرى والعاج عيجت متونه
على عُشَرٍ نَهَّى به السَّيْلَ أبطح[1]

وقول جرير بن الخَطفَى :

كأنك لم تَسر ببلاد نجدٍ ولم تنظر بناظرة الخياما

وقول بعض العرب في صفة فوارس « إنها لخيلٌ تختال » وحضر في مجلس الرشيد طبيبٌ فيه ندٌ غير طيب الرائحة فقال الرشيد « هذا ندٌّ عن الندّ » .

وتظلم رجل الى المأمون من عامله فقال (ما ترك فضةً الا فضّها ، ولا ذهباً الا أذهبه ، ولا بزاً الا بزّه ، ولا علْقَ مضنة الا علقه ، ولا غُلّة الا غلّها ولا فرساً الا افترسه ، ولا خلعةً الا خلعها ، لا وديعةً الا ودعها ، ولا ضيعةً الا ضيّعها ، ولا عقّاراً الا عقره ولا سبداً الا استبدّ به ولا لبدا الا لبّده ، ولا جليلا الا أجلاه ، ولا دقيقاً الا دقه ولا مالاً الا مال عليه ولا غنماً الا غنمها ولا حالة الا أحالها فهل من مُعدٍ ؟

ومنه :

ربَّ خَوْدٍ عرقت في عرفات سلبتني بحسنها حسناتي
ورمت بالجمار جمرة قلبي أيُّ قلبٍ يقوى على الجمرات
حرَّمتْ حين أحْرَمَتْ نوم عيني
واستباحت حماي باللحظات
وأفاضت مع الحجيج ففاضت
من دموعي سوابقُ العبرات
لم أنل من مِنى مُنَى النفس
خِفْتُ بالخَيْفِ أن تكون وفاتي

---

(١) ذو الرمة اسمه غيلان بن عقبة : البُرى : الخلاخل ، عيجت لويت والعُشَر شجر ذو اغصان لدنة ، نهى به السيل أي بلغ به اليه .

باب تجنيس الترجيع :

اعلم ان تجنيس الترجيع هو ان ترجع الكلمة بذاتها كما قال تعالى « ربهم بهم يومئذٍ لخبير » وقال جلَّ جلاله « ولكنّا كنّا مُرسلين » .

وقال الشاعر :

ولا مُنِعَتْ دارٌ ولا عُزَّ أهْلُها
من الناس الا بالقنا والقنابل ،

وقال المُخبَّل السعدي :

وأتَتْ عليه ومالَهُ من ماله
مما أَفَادَ وما أفاد عتاقُ

وأبو دُوُاد الآيادي قبل امرىء القيس بكثير وقد أتى في شعره تجنيسُ التركيب والترجيع والتصحيف والله العالم هل قصدَ هذا أم أتى طبعاً .

وقال الآخر :

عذيري من دهرٍ مُوَارٍ مُوارب
له حسناتٌ كلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وأبو تمام الطائي :

يَمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصم
تصولُ بأسيافٍ قَواضٍ قَواضب

وقال آخر :

آفة السرِّ من جفو نِ دوامٍ دوامع
كيف يخفى مع الدمو ع الهوامي الهوالع

وقال أبو عبادة البحتري :

تَسج الربيع بربعها ديباجةً
من جوهر الانوار بالانواء

بكت السماءُ بها رذاذَ دموعِها
فَغَدَتْ تبسَّمُ عن نجومِ سماء

ومنه قول النابغة الجعدي :

يوشك النوى من بعد انسٍ تبدلوا
ونالهُم صرف النوى والنوائب

ومنه :

واذا ظمئتُ فعنده شُربٌ من الانصاف صاف

أبو عبادة البحتري :

لئن صَدَفَتْ عنَّا فربَّتَ أنفس
صوادٍ الى تلك الخدود الصوادف .

وقال بعض الفصحاء في رقعة استدعاء :

ما جعلت المماطر الا لليوم الماطر (١)

ومنه في رياض الناظرين :

واذا هويتَ فقد تعبدك الهوى
آخضع لألفك كائناً من كانا

---

(١) المماطر جمع مفردها ممطرة وممطر : ثوب من صوف يتوقى به المطر يعرف اليوم بالمعطف أو المشمع .

إن الهوان هو الهوى نقض اسمه
فاذا هـويت فقـد لقيت هـوانا

وقال الآخر :

وسـألتها بأشـارةٍ عن حالهـا
وعليَّ فيهـا للوشـاة عيـون

فتنفست صعداً وقلت : ما الهـوى
الا هـوانٌ زال منـه النـون

ومثله لآخر :

أبى الحبُ الا أن تكون معـذباً
ونيرانـه في القلب الا تَلَهّبـا

فَوَا كبدي حتى متى أنا واقفٌ
بباب الهـوى القىُ الهوان وأنصبا

وهذا نموذج من الفصل الذي كتبه في الطباق :

باب طبقات التطبيق :

اعلم ان التطبيق هو ان تكون الكلمة ضد الاخرى كما قال الله تعالى « وأنّه هو أضحك وأبكى ، وأنّهُ أماتَ وأحيا » وقال : « لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم » « سيئاتهم حسنات » الليل والنهـار الظلمات والنـور ، الحي والميت » .

وأخفى تطبيق في القرآن « مما خطيئاتهم أُغرقوا فادخلوا نارا » .

وقال زهير بن أبي سُلمى[1] :

ليث" بعَثَّرَ[1] يصطاد الرجال اذا
ما الليث كذَّب عن أقرانه صدقا

وقال آخر يصف حصانا :

بساهم الوجه لم تقطع أباجله[2]
يصان هو ليومِ الروع مبذول

والسري الرفّاء :

ان هذا الربيع شيء عجيب
تضحك الارض من بكاء السماء

ذهب" حيثما ذهبنا ودر"
حيث دُرنا وفضة في الفضاء

وقال مسلم بن الوليد :

لا تضحكي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى[3]

وقال الحسن البصري في دعائه :

« اللهمَّ إن تبتليني بنعمةٍ فأشكر خير" من أن تبتليني بنقمةٍ فأصبر » .

وقال آخر :

لئن ساءني أن نلتني بمساءة
لقد سرني أني خطرت ببالك

---

(١) عثّر اسم موضع في اليمن

(٢) البيت كما في العمدة والصناعتين لطفيل الغنوي ، ساهم الوجه متغير الوجه ، والابجل عرق غليظ في رجل الحصان .

(٣) البيت لدعبل الخزاعي ، كما في ديوانه (صفحة/١٦٠)

جرول الحطيئة :

وأخذتَ أطراف الكلام فلم تدع
هجواً يَضرُّ ولا مديحاً ينفع

وأبو تمام حبيب بن اوس الطائي :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنِّعَمِ

وقال خالد بن صفوان [(١)] لرجل يصفه له قال فلان :

« ليس له صديق في السرِّ ولا عدو في العلانية » .

وقال آخر : « كدر الجماعة خير من صفو الفرقة » .

وقال المنصور : لا تخرجوا من عزِّ الطاعة الى ذل المعصية .

وقال بعضهم :

وسري كاعلاني وتلك سجيتي
وظلمة ليلي مثلُ ضوءِ نهاريا

وقال آخر :

فلماذا أبيعه وبروحي اشتريه ،

وقال : بعض العلماء يجعل التطبيق ان تجيء الكلمة بمعنيين كقوله :

واللؤم فيهم كاهل وسنام .

ويسمى التكافؤ

وقال آخر :

أضحى الامين محمدٌ للدين نور يقتبس

(١) خالد بن صفوان من فصحاء العرب توفي عام ١١٥ هـ .

تبكي البدور لضحكه   والسيف يضحك إن عبس

وقال آخر :

ومن البلية أن نومي موثق

عن مقلتيَّ وأن قلبي مُطلَق

وقال آخر

من النجباء يرضى السَلمُ منهم

نفوساً ليس يأباها القتال

جسوم في سروجهم خفاف

صدور في مجالسهم ثقال

ومن الطباق لفظاً ومعنى للبحترى

معشرٌ أمسكتْ حلومُهمُ الأ   رض وكادت من عزمهم ان تميدا

فاذا المحل جاء جاء سيولا   واذا النقع ثار ثاروا اسودا

باب الظرافة والسهولة :

اعلم ان اشعار العرب والمحدثين قد ورد فيها الظريف السهل كقول بعضهم :

هوى صاحبي ريح الشمال اذا جرت

واشهى لقلبي ان تهُبَّ جَنُوبُ

يقولون لو عَزيّت قلبك لآرعوى

فقلت وهل للعاشقين قلوب ؟

المسلمي :

حملني كل لائمةٍ   كل ما حملت محمول

واحكمي ما شئتِ واحتكمي

فحرامي فيك تحليل

والــــذي أرجـــو النجـــاة بــه

ما لقلبـــي عنـــــك تحـــويل

ما لداري منك موحشة ٌ وضميري منك مأهـول
واخو حُبيك في تعبٍ مطلق دهـراً ومأهول
في بنات الروم لي سكن ٌ وجهها للشمس اكليـــل

ومنــــــه :

ولا تحسبا هنداً لها العذر وحـــد ها

سجية نفسٍ كـل غانيـة هنـــد

وما خلف اجفاني شؤون بخيلة

ولا بين اضلاعي لها حجر ٌ صلـــد

وأورد المؤلف لهذا الباب امثلة كثيرة لشعراء متعددين من عصور مختلفـة اكتفى بما عرضت منها فهي تفي بالغرض ، اذ ان الغاية من عرضي لهذه النماذج هو اطلاع القارىء على طريقة البحث الذى سلكه المؤلف في كتابه .

باب التفريط :

اعلم ان التفريط هو ان يقدم الشاعر على شيء فيأتي بدونه تفريطاً منه اذ لم يكمل اللفظ او يبالغ في المعنى ، وهو باب واسع يعتمد النقاد من الشعراء وهو مثل قول حسان بن ثابت

لنـــا الجفنـــات البيض يلمعن بالضحى

واسيافنـــا من شـــدة تقطر الـــدما

فرّطَ في قوله : الجفنات لانها دون العشرة وهو يقدر ان يقول لدينـــا الجفان لان العدد الاقل لا يفتخر به ، وكذلك قوله : واسيافنا لانها دون العشرة يقدران يقول وبيض لنا ، وفرط في قوله : الغرّ لان السواد امدح من البياض

لكثرة الدهن والقرى فيها ، وفرط في قوله يَلْمَعْنَ بالضحى وهو قادر يقول : بجرين لان القطر قطرة بعد قطرة .

وقال قدامة انه اراد بقوله الغرُّ المشهورات وقوله بالضحى لانه لايلمع فيه الا العظيم اللامع الساطع النور والدجى يلمع فيه يسير النور كالحباحب ، واما اسياف وجفنات فانه يضع القليل موضع الكثير كما قال سبحانه وتعالى ، لهم جنات ودرجات ، وقوله يقطرن دما هو المعروف والمألوف ولو قال يجرين خرج عن العادة وينوب قطر عن جرى ، كما مسح سوق الابل عن اعناقها ، ومن ذلك قول الاعشى :

ويأمر لليحموم كل عشيةٍ بقَتٍّ وتعليق وقد كان يسنق[1]

قال الاصمعي في نقده : أقلُّ حمار لطحان ينال هذا

ومن ذلك قول آخر :

ومن يأمن الحجاج والطير تتقي
عقوبته الا ضعيف العزائم

ان الطير تتقي الصبيان ، وانما قول جرير الخطفى

ومن يأمن الحجاج ، اما عقابه
فمُرٌّ ، واما عهده فوثيق ،

وكذلك قول النابغة :

رقاق النعال طيبٌ حجزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباسب ،
يصونون أجساداً طويلاً نعيمها
بخالصة الاردان خضر المناكب

(١) السنق : البشم سنق سنقاً اذا أكل من الرطب حتى أصابه البشم .

تُحييهم بيض الولائد بينهم
وأكسية الأضريج فوق المشاجب

هذا كله فاسد لان العامة والصعاليك يحيي بعضهم بعضاً ذلك اليوم بالريحان والبيت الثاني فاسد لانه لا فضيلة في كونها ملونة كل جانب منها لون والبيت الثالث فاسد لانه لا تكون الثياب الا فوق المشجب ولا يكون على غيره •

باب السابق واللاحق والتناول

وهو ان يأخذ البيت فينقص من لفظه أو يزيد في معناه أو يحرره فيكون أولى به من قائله ، لكن الاول سابق والآخر لاحق ، مثل قول علي بن الجهم :

وكم وقفة للريح دون بلادها
وكم عقبة للطير دون بلادي

أخذه الشيخ أبو العلاء رحمه الله فقال :

وسألت كم بين العقيق الى الحمى
فجزعت من بعد النوى المتطاول

وعذرت طيفك في الجفاء لانه
يسري فيُصبح دوننا بمراحل

وقول الآخر :

له خلائق بيض لا يُغيّرُها
صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

أخذه الآخر فقال :

صديق لي له نسبٌ صداقة مثله تجب
اذا نفدت خلائقه تبهرج عنده الذهب

فوفّى عليه بقصر الوزن وفي تفضيله على الذهب بقوله : تبهرج الذهب

ومنه قول طَرفة بن العبد :

أسدُ غيلٍ فاذا ما شربوا وهبوا كل امون وطمِرْ

ثم راحوا عبق المسك بهم يُلحقون الارض هُدّاب الأزر

أخذه عنترة فقال :

واذا شربت فأنني مستهلك

مالي وعرضي وافر لم يُكْلمِ

واذا صحوت فما اقصر عن ندا

وكما علمتِ شمائلي وتكرمي

فاحترس مما يُطعن به على الاول وهو انهم لا يشربون فيعطون من غير عقل،

ومنه قول الافوه الأوْدي :

وترى الطير على آثارها

رأى عينٍ ثقة ان ستُمارا

أخذه النابغة :

اذا ما غزا بالجيش حلّقَ فوقهم

عصائبُ طيْرٍ تهتدي بعصائب

جوانح قد أيْقنَ أنّ قبيله

اذا ما التقى الجمعان أول غالب ،

أخذه الحطيئة فقال :

ترى عافيات الطير قد وثِقَتْ به

بشبع من الخيل العتاق منازله

أخذه حميد بن ثور :

اذا ما غـزا يوماً رأيت غمـــامةً
من الطير ينظرن الذي هو صـانع

أخذه مسلم فقال:

قد عوّدَ الطيرَ عادات وَثِقْنَ بها
فهنَّ يَتْبَعْنَهُ في كل مرتحـــل

موف على مُهَجٍ في يوم ذي رهج
كـــأنه أمل يمشي الى أجـــل

ثم أخذه أبو تمام فقال :

وقد ظُلِّلَتْ أعقابُ رايتـه ضحىً
بأقـدام طـيرٍ في الدماء نواهـــل

أقامت مـع الرايات حتى كأنهـــا
مـع الجيش الا انهـا لم تقـاتل

ثم أخذه المتنبي :

له عسكرا خيلٍ وطيرٍ اذا رمى
بهـا عسكراً لم تبـق الا جماجمه

وقال في مكان آخرَ :

وذي لجب لاذو الجنـــاح امامه
بنـــاجٍ ولا الوحش المثـــار بسالم

تمرُ عليـه الشمس وهي ضعيفة
تُطالِعُهُ من بين ريش القشاعم (١)

(١) القشاعم : النسور الكبار وأحدها القشعم .

ومنه قول قيس بن ذريح :

تداويت من ليـلى بليلى على الهوى
كمـا يتـداوى شارب الخمر بالخمر

أخذه من الاعشى اذ قال :

وكـأسٍ شـربت عـلى غـرة
واخـرى تداويت منهـا بهـا

ثم تبعه أبو نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم اغراء
وداوني بالّتـي كانت هي الـداء

باب الاستعارة

اعلم ان الاستعارة هو ان يستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول ، كما قال الله عزّ وجلّ « لا تُظلمون فتيلا » و « ولا تظلمون نقيرا » و « ما يملكون من قطمير ، والاستعارة أوكدُ في النفس من الحقيقة ، وتفعل في النفوس ما لا تفعله الحقيقة ، وقوله : وفتيلا ، أنفى للكثير والقليـل من قوله شيئا وقوله تعـالى : « واخفض لهما جناح الذُّلّ من الرحمة » « وانه في ام الكتاب » « واشتعل الرأس شيبا » و « نسلخ منه النهار » « عذابُ يوم عظيم » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« ضُمُّوا ماشيتكم حتى تذهب فحمة العشاء » .

وقال عليه الصلاة والسلام « أرغبْ راغبهم وأحلل عقدة الخوف » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« اتسع نطاق الاسلام فلا حاجة الى الكحل والخضاب » .

كتب علي عليه السلام الى الخوارج : « الحمـد لله الذي فضّ حزمتكم وفرق كلمتكم » .

وقال عبدالله بن وهب [1] الخارجي « لا خيرَ في الرأي الفطير [2] والكلام القضيب [3] ان غيوب الرأي يكشف عن محضه والفكرة مخ العمل •

واحسن الاستعارات قول ذي الرُمة :

اوردته وصدور الليل مُسنِفَةٌ[4]

والليل بالكوكب الدُرِي منحورُ

وقال ذو الرُمة أيضاً :

أقامت به حتى ذوى العود في الثرى

ولفَّ الثُريا في مُلاءته الفجرُ

وقال أبو تمام :

لا تسقني ماء الملام فانَّني

صَبٌّ قد استعذبت ماءَ بُكائي

وقال أيضاً فيها :

فسقاه مسكُ الطَلِّ كافور النَدى

وانحلَّ فيه خيطُ كلِ سماء

ومنه :

نطاردهم فنُودِعُ البيضَ هامهم

ويستودعون السمهريَّ المقوَّما

ومنه :

تحيي الروامسُ ربعَها فتجدهُ

بعد البلى ، وتميته الامطارُ

---

(١) عبدالله بن وهب من الازد كان ذا علم وشجاعة وفصاحة أمَّره الخوارج عليهم ، وقتل سنة ٣٨ هـ •

(٢) الكلام الفطير : كل كلام لم تختمر فكرته ، الفطير العجين قبل ان يختمر •

(٣) القضيب : المرتجل ، اقتضاب الكلام ارتجاله •

(٤) أسنفت الناقة اذا تقدمت الابل •

هذا بيت قد جمع فيه الاستعارة والمطابقة لان فيه البلى والجدة والاماتة والحياة

وقال أمير المؤمنين عليٌ عليه السلام لبعض الخوارج : لما فَغَرَ فمُ الباطل ، نجمت نجوم الحق •

وقال يصف الدنيا : لم يُمسِ أحدٌ منها على جناح أمنٍ الا اصبحَ منها على قوادم خوف •

ومن بديع الاستعارة في المنثور قول بعض العرب : خرجت في ليلة حندس ، قد ألْقَتْ على الارض اكارعها [1] ، فجمعت صورة الابدان فما كدنا نتعارف الا بالاذان •

ومدح اعرابي قوماً فقال اولئك غُررٌ تُضيء في المشكلات وتصغي اليهم آذان المجد ويصومون عن الفحشاء ويفطرون على المعروف •

ووصف آخر روضة فقال :

جرت بها الريح اذيالها ، وحَطَّتْ بها السحابُ أثقالها •

وقال آخر :

سأبكيك للدنيا وللدين انني
رأيت يدَ المعروف بعدك شُلَّت

العباس بن الاحنف [2] :

قد صحب الناس أذيال الظنون بنا
وفرق الناسُ فينا قولهم فِرقا

فكاذب قد رَمى بالظن غيركم
وصادق ليس يدري انه صدقا

---

(١) أي أطرافها القاصية •

(٢) شاعر أكثر شعره الغزل ولم يتكسب بشعره توفي سنة ١٩٢ حققت ديوانه ونشرته الدكتورة الشاعرة عاتكة الخزرجي • كما نشر ديوانه الاستاذ عبدالمجيد الملا •

كلمة أخيرة في الكتاب :

الكتاب برغم انه لم يختلف كثيراً عن منهج المؤلفين البديعين أو البلاغين الذين سبقوا اسامة بن منقـذ وبرغم ان المؤلف ليس لـه الا التعاريف وبعض التعليقات الا ان للكتاب أهمية كبرى انه جمع مادة غزيرة واحتوى خلاصة لكتب لم تصلنا مثل كتابي الحاتمي (الحالي ، والمحاضرة) وكتاب اللمع للعجمي ، واستقى مادته من ابن المعتز والصناعتين واقتبس خير مقالاتهم كما جاء في مقدمة المؤلف وللكتاب خاصية لا أقول انفرد بها انما توسع فيها هي هذه الحصيلة الغنية من الامثلة التي اختارها من مئات الشعراء من العصر الجاهلي الى عصر المؤلف فاستشهد لعدد كبير من الشعراء كما استشهد بكثير من الآيات والأحاديث وأقوال المنشئين ، فالكتاب صورة لثقافة اسامة من جهة ووثيقة ناطقة لوفرة المصادر الأدبية والنقد من جهة ثانية وتفهم اساليب البلاغة بالاعتماد على النص وعلى ادراك الصورة وادراك ما فيها من أبعاد ذوقية وفنية لم تقف عند التعـاريف أو الاخطاء النحوية واللغوية ، يتعداها الى ما في النص من جمال وبراعة ومعان وتجنيس أو طباق أو كناية أو مجاز أو استعارة ، والكتاب بأبوابه التي بلغت خمسة وتسعين بابا وما جمع المؤلف في كل باب من الشواهد الزاخرة بالصور الفنية الرائعة الكثيرة والاسلوب السهل في العرض والتبسيط انما يربي الذوق من جهة ويعلم أساليب البـلاغة وأسرارها من غير أن يتعب رأس المتعلم ويحشوه بالقواعـد المجردة والتعاريف الثقيلة والتي يخرج منها الدارس بعد العناء الطويل خالي الوفاض قد عتمت عليه الصورة وأبهمت على باصرتيه مد الرؤيا لهذا العلم الذوقي •

اعيد القول واعلنه عن تجربة بأن كتب البلاغة التي نهجنا في تدريسها في مدارسنا الثانوية والعالية لا تعلم ولا تربي ذوقا أدبيا ولا تفيد ملكة وخير منهـا طريقة القدماء التي تعتمد على الاكثار من الشواهد والتطبيق على النصوص شعرية أو نثرية وبهذه الطريقة يتعلم القارىء النقد ويتفهم الصورة الادبية ويحصـل على فهم مرهف للغة وأساليبها ، ومن هذه الكتب يتحسس الدارس الجمال أو القبح في ما يقرأ أو يسمع وهذه هي الغاية من تعليمنا المعاني والبيان والبديع •

كتاب العصا[1]

كتاب العصا باصطلاحنا اليوم نسميه مقالة اذ لا يخرج عن كونه مقالة أدبية جمعت مادتها من النصوص الادبية في استعمل العصا .

لم يشر الى وجوده أو طبعه أكثر الكتاب الذين كتبوا عن اسامة أو ترجموا له مع ان الكتاب قد نشره المستشرق (درنبورغ) في باريس سنة **١٨٩٣** مع مقتطفات من أخبار المؤلف وشعره وشعر عدد من سروات آل منقذ ، والفضل في ارشادي الى ذلك المستشرق الصديق قاسم الرجب الذي تفضل وأعارني نسخته النادرة مشكورا ، ولم يرها أو يطلع عليها الاستاذ عبدالسلام هارون المحقق البارع الذي نشر الكتاب في كتابه نوادر المخطوطات وقد عثر عليها مصادفة الاستاذ العلامة أحمد أمين رحمه الله ، بين أوراق وكراسات اشتراها من وراق : قال : (وأخذت اقلب فيها فوجدت أوراقا شتى من كتب لم أدرِ ما هي ورسائل صغيرة بعضها قيم ... ورأيت كراسة صغيرة كتب عليها : « كتاب العصا لاسامة بن منقذ [١] » فعهد بها الى الاستاذ عبدالسلام هارون ليقوم بتحقيقها ونشرها اسهاماً من الاستاذ أحمد أمين في احياء (نوادر المخطوطات) [٢] وصحح بذلك الوهم الذي وقع فيه الاستاذ أحمد محمد شاكر في مقدمته لكتاب (لباب الآداب) وحسب ان كتاب اسامة هو كتاب (القضاء) لا العصا ورد على فليب حتي الذي ذكر كتاب (العصا) من جملة مؤلفات اسامة بن منقذ ، والمؤلف يذكر كتابه (العصا) في مواضع كثيرة من كتبه ، فلما وقعت الرسالة بيد أحمد أمين كتب مقالا في الثقافة عرف بالكتاب تعريفاً موجزاً ولم يشر الى جهد المستشرق ونشره لها ولو عرف بذلك لذكره وقد ذكر اسامة ان الباعث له على وضع كتابه هذا قصة سمعها من والده خلاصتها ان أبا يوسف القزويني قال لابي الحسن بن بوين (وكان يرافق والد اسامة

---

(١) فيض الخاطر ج : ٤ : ١٤٣ ـ ١٤٧ .

(٢) هذه النسخة احدى نسخ ثلاث : الاولى نسخة ليدن رقم ٣٧٠ وعليها تأريخ ١٠٩٤ وهي التي نشرها درنبورغ ـ أو على صورتها ـ ١٨٩٣ ، والثانية الامبروزيانا بميلان ورقمها ١٢٥ وعليها تأريخ ١٠٦٧ ، والثالثة النسخة التي حققها عبدالسلام هارون ونشرت في نوادر المخطوطات .

الامير مرشد بن علي في زيارة العلامة القزويني) . ما أحوجك ان يكون ما في يدك فوقها ، يشير الى ان تكون العصا فوق يده التي أمسكت بكتاب من كتب القزويني من غير استئذان وكان الكتاب هو كتاب العصا - قال اسامة : « ولي منذ سمعت هذا من ستين سنة أتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر فلا أجد من يعرفه ، وكلما تعذر وجوده ازددتُ حرصا على طلبه الى أن حداني اليأسُ منه ان جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب « العصا » ولا أدري أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره ، ولا ارتاب ان مؤلف ذلك الكتاب وقع له معنى فأجاد تنميقه وتأليفه ، وأنا فاتني مطلوب ففزعت الى تجويزه وتلفيقه » وربما كان ذلك الكتاب الذي يفتش عنه اسامة هو كتاب « العصا » للجاحظ هذا ما علق به عبدالسلام هارون ، ولا احسبه كذلك فالبيان والتبيين كان معروفا لدى المؤلف وقد استقى منه كثيراً وكتاب العصا أو فصل العصا الذي اثبته الجاحظ في كتابه البيان والتبيين كان محوره مزاعم الشعوبية وطعونهم على العرب واستهزاءهم بالخطباء الذين جعلوا العصا تكأة يعتمدون عليها - وليس في حملها ما يشحذ الذهن ، ويقولون ان حمل العصا بأخلاق الغدادين أشبه وهو بجفاء العرب وعنجهية أهل البدو ، ومزاولة اقامة الابل على الطرق اشكل » [1] وقد ردَّ عليهم الجاحظ باسهاب وفنَّد مزاعمهم وأبان ما للعصا من محاسن ويسوق الامثلة والاخبار والاشعار والبراهين على عظم شأنها وكريم فضلها - [2] .

وقد نهج اسامة في كتابه نهجاً يختلف عن نهج الجاحظ اتسم تأليفه بطابعه الذي جرى عليه في أكثر كتبه هو العناية بسرد ما يعرض له في حياته من أحداث وما يجمعه من أخبار ويستشهد بطائفة من أشعاره كما هي طريقته في كتبه التي عرضت نماذج منها ، وقد حفظ لنا كتاب العصا جملة من أشعاره لم تُثبت في ديوانه كما اثبت نصوصا نادرة لشعراء كثيرين منهم أبو العلاء المعري وقد آثرت

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ١٢ .

(٢) مقدمة البيان .

ان اثبت خلاصة لهذه الرسالة بعد مقارنتها على نسخة المستشرق (درنبورغ) لندرتها واشاعة لفائدتها وهي مكملة لسيرة الامير اسامة ودالة على سعة فضله .

بعد المقدمة :

ـ فصل في تسمية العصا ـ

قال أبو بكر محمد بن دريد رحمه الله : انما سميت العصا عصا لصلابتها مأخوذ من قولهم عصّ الشيء وعَصَا وعَسَا ، اذا صلُب ، واعتصت النواة اذا اشتدت ، فانما العصا مثل يضرب للجماعة ، يقال شقّ فلان عصا المسلمين يريد المفارق للجماعة فيقتل ، وأعصّ الكَرْم اذا خرجَ عيدانُه ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا ترفع عصاك على أهلك » يريد الادب ، ويقال لعظام الجناح عِص ، وعَصَوْتُ الجرح اذا داويته ، والعِصْيَان خلاف الطاعة قال دريد بن الصِمَّة :

فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
غَوايتَهم أو انني غير مهتد

وقد سميت الهِراوة وجمعها هراوى : قال ابن فارس في كتاب مجمل اللغة هَرَوْته بالهراوة اذا ضربته بها .

قال العباس بن مرداس السُلَمي أبياتا ذكر فيها الهراوة أنا ذاكرها وموردها لحسنها وجزالتها وهي من مختار الشعر وقد اختارها أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في حماسته في باب الادب وهي :

ترى الرجلَ النحيف فتزدريه
وفي أثوابه اسدٌ مزير
ويُعجبُك الطرير فتبتليه
فيُخلِفُ ظنَّكَ الرجلُ الطريرُ

فما عِظَمُ الرجال لهم بفخرٍ
ولكن فخرهم كرم وخيرُ

ضِعَافُ الطير أطولها جسوماً
ولم يطل البزاة ولا الصقور

بُغاث الطّير أكثرها فراخا
وامُّ الصقر مِقلات نزور

بغاث الطير : صغارها وفيها ثلاث لغات : ضم الباء وفتحها وكسرها ، والمقلات التي لا يعيش لها ولد .

لقد عظم البعير بغير لبٍّ
فلم يستغن بالعِظم البعير

يُصرِفه الصبيُّ بكل وجه
ويحبسه على الخسف الجرير

وتضربه الوليدة بالهراوى
فلا غِيَرٌ لديه ولا نكير

فإن اكُ في شراركم قليلاً
فاني في خياركم كثير

ذكر أبو هلال العسكري اللغوي رحمه الله في كتاب الاوائل قال : أول من خطب على العصا وعلى الراحلة قُس بن ساعدة الايادي فمما ورد عنه من خطب قوله :

« أيها الناس اسمعوا وعُوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آتٍ آت ، ليل داج وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر وبحار تزخر ، وجبال مُرساة وأرض مُدحاة وأنهار مجراة ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضُوا فأقاموا

أم تركوا فناموا يقسم قس" بالله قسَماً لا إثمَ فيه ان لله ديناً • هو ارضى' وافضل من دينكم الذي أنتم عليه ، انكم لتأتون من الامر منكرا ، ثم انشأ يقول :

في الذاهبين الاولـين من القرون لنا بصائر
لمـا رأيت مـوارداً للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي اليَّ ولا من البـاقين غابر
أيقنت اني لا مَحَالة حيث صار القوم صاير

قال المؤلف ـ اطال الله بقاءه ـ العرب تقول ، فلان ممن قرعت لـه العصـا اذا كان يرجع الى الصواب ، وينقاد الى الحق ويستقيم عند رأيه اذا نبه ، وتقول فلان صلب العصا ، اذا كان ذا نجدة وحزامة وتقول اذا تفرقت الخلطاء واختلفت آراء العشيرة ومرج الامر انشقت ، وتقول للمسافر اذا آب واستقرت به داره القى عصا التسيار ، فألقت عصاها » •

ثم أخذ يروي مختارات من الشعر والنثر مما جاء فيها العصا من ذلك قول الحجاج • والله لاعصبنّكم عصب السَّلَمة ، ولألحونّكم لحو العصا ولأضربنّكم ضرب غرائب الابل •

والمتلمس يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا
وما عُلّم الانســان الا ليعلمـــا

وقيس بن ذريح يقول :ـ

الى الله اشكو نية شَقَّت العصـــا
هي اليوم شتى وهي امس جميـع
مضى زمن" والناسُ يستشفعون بي
فهل لي الى لبنى الغـــداة شفيع

والعرب تقول : فلان شقّ العصا ، اذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة
(صلب العصا) يقال فلان صلب العصا اذا كان جلدا قويا على السفر والراحلة .

وقال المؤلف :

ايرجو لي اللاحي من الحب مَخلَصاً
وقلبي اذا ما رضـته بالأسى عصى
ولو انّ ما بي بالحصى فلق الحصى
الى الله أشكو نيةً شقت العصـا
هي اليوم شتى وهي أمسِ جميع
أطاعت بنـا لبنى افتـراء التكـذب
وصـد التجني غير صـد التجنب
فيا لك من دهـر كثير التقلب
مضى زمنٌ والناسُ يستشفعون بي
فهـل لي الى لبنى الغـداة شفيع

وقال المؤلف (١) :

هذه الابيات من شعره الذي لم يرد في ديوانه :

رمتنـا الليـالي بافتـراق مشتت
« اشتّ وأنأى من فراق المحصَّب » (٢)
تخالفت الاهـواء وانشقت العصـا
وشَعّبنا وشك النوى كل مَشْعَبِ
وقد نثر التوديع من كل مقـلة
على كـل خـد لؤلؤاً لم يثقب

---

(١) هذه الابيات من شعره الذي لم يرد في ديوانه .

(٢) الشطر الثاني من قصيدة لامرىء القيس اولها :

خليلي مُرّا بي على ام جنـدب نقضّ لبـانات الؤاد المعـذب

وقال مهيار الديلمي من قصيدة له :

ما قَصّرت يد الزمان شدّ ما
تطول في نقصي وفي نقضي مرر(١)

عصا شظايا ومشيبٌ ذائع
ومنزل ناء وأحباب غُدُر

وصاحبٌ كالداء إن أخفيته
غوّر وهو قاتل اذا استتر

وقال المؤلف (٢) :

زدني جوىً يا حُبَهم وأضِلَني
يا مرشدي عن منهج السُّلوان

لا تنهني عنهم فانّ صبابتي
لا تستطيع تطيع مَنْ يَنْهاني

أحببتهم أزمان غصني ناضرٌ
حتى عَسَا وعَصى بنان الحاني

فارجع بيأسك لستَ أول آمرٍ
شقّ الغرام عصاه بالعِصيان

ومن شعره أيضا :

كم ذا التجني وكثرة العلل لا تأمنوا من حوادث الملل
ولا تقولوا صبٌ بنا كَلِفٌ فأول اليأسِ آخر الامل

ولست ممن يريد شقّ عصا
الذنب ذنبي والحب شُفّعَ لي

---

(١) المرر جمع مرة وهي الطاقة من طاقات الحبل كناية عن الشدة .
(٢)من شعره وهي من ديوانه .

هبوني اخطأت عامداً فهبوا
خجلة عذري ما كان من زللي

العرب تقول : « طارت عصا بني فلان شِقَقاً » •

وقال الاسدى :

عِصيُّ الشملِ من أسَدٍ أراها
قد انصدعت كما انصدع الزجاج

ويقال : فلان شق عصا المسلمين « ولا يقال شق ثوبا ولا غير ذلك يقع عليه اسم الشق » •

« القى العصا » يقال القى عصا التسيار اذا أقام وترك السفر وكأن العرب عنت بقولها (القى عصاه) أي وصل الى بغيته ومراده •

قال الاصمعي واسمه عبدالملك بن قريب :

فحطَت اليها منقيلها   وألقت عصا السَّفَر المِسعَرُ

وقال راشد بن عبدالله :

وخبّرها الرواد ان ليس بينها
وبين قرى نجران والدرب كافر

فألقت عصاها واستقرت بها النوى
كما قرَّ عيناً بالاياب المسافر

واستشهد بقول سديد الملكِ الامير علي بن مقلد جد اسامة يخاطب والي حلب :

خَيَّمتَ في حلب العواصم بعدما
قلدت خوفك نازح الاقطار

لا ترضَها دار الثَّواء ولا تقل
في مثلها تلقى عصا التسيار

استحي من أجداث قومك أن تَرى
عرض البسيطة وهي دار قرار

وراح يقصُ أخباراً عن زيارته للقدس ولبيت السلسلة ولرجل زاهد اسمه جرّار في شيزر ، وعن ذلك الامام المصلي والافرنج لم يتعرضوا له ولم يبصروه ، وقصَّ تحكيمه مع الامير مجاهد الدين بوزان في جمع من العميان وقعت بينهم وبين صاحب الوقف خصومة وكانوا نحو ثلاث مئة اعمى فتلاحوا ساعة ولم يقدر اسامة والامير صاحبه على اصلاح البين بينهم فانهالت العصي على بعضهم بعضاً .

وقص خبر جذيمة بن الابرش وفرسه العصا ، وختم القصة وتكذيبها بأبيات من نظمه : قال :

لو سرتَ في عرض البسيطة طالبا
رجلاً خبيراً بالحروب مجرَّبا
عانى الحروب مجاهراً ومخاتِلا
طفلاً الى ان عاد همّاً أشيبا
قتل الاسودَ ونازل الابطال في الـ
هيجاء واقتاد الكميَّ المِحْرَبا
لم تلق مثلي من يكاد يُريه حُسْـ
ـنُ الرأي ما قد كان عنه مُغيَّبا
وأرى مسير الألفِ تطلب وترها
ضِمنَ الغرائر فريةً وتكذبا

وقال الفرزدق يمدح بها هشام بن عبدالملك في قصيدة طويلة :

رأيت بني مروان جلّتْ سيوفهم
عَشاً كان في الابصار تحت العمائم

عصا الدين والعودَيْن والخاتم الذي
به اللهُ يُعطي ملكَهُ كلَّ قائم

عصا الدين : السيف : والعودان : العصا والمنبر .

وقال معن بن أوس المزني :

اذا اجتمع القبائل كنت رِدفا   امام الماسحين لك السبالا
فلا تُعْطى عصا الخطباء فيهم   وقد تُكفَى المقادة والمقالا

وقال آخر في عصا الخطابة :

اذا اقتسم الناس فصلَ الفخار
اطلنا الى الارض ميل العصا

تقول العرب :

ما تزال تحفظ اخاك حتى يأخذ القناة فعند ذلك يفضحك أو يمدحك ، تقول : اذا قام الخطيب والقناة بيده فقد قام المقام الذي يخرج منه مذموماً أو محموداً .

وفي حديث زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد رضي الله عنهما وقد تكلم أبو طالب وذكر رغبته فيها فقال (ورقة بن نوفل) ، « ابن أخيك الفحل لا يُقرع بالعَصا أنفه » .

وذكر المؤلف زيارته قبر يحيى بن زكريا عليهما السلام بقرية (بطينه) من أعمال نابلس وزيارته لكنيسة القرية ورؤيته لمن فيها من القسوس ووازن بين اجتهادهم واجتهاد العلماء المسلمين ثم زيارته مع معين الدين أُنر للصوفية في زاويتهم وفضل انقطاعهم للدرس والعبادة على من رأى قبلهم في تلك الكنيسة والمؤلف كلف باخبار الصالحين يروي كراماتهم بكتبه .

وقال :

يقال : « يوم اطول من ظل القناة وأحر من دمع المقلاة » ، قال عبدالله ابن الدمينة .

ويوم كظل الرمح قصّر طوله

دمُ الزّق عنا واصطفاق المزاهر [1]

ويقال رجل كالقناة وفرس كالقناة قال عروة بن الورد [2] :

متى ما يجيء يوماً الى المال وارثي

يجد جمعَ كف غير ملأى ولا صِفر

يجد فرساً مثل القناة وصارما

حساماً اذا ما هُزَّ لم يرضَ بالهَبر

ويقال للرجل اذا لم يكن معه عصا : باهل وناقة باهِل" اذا كانت بغير صرار .
وفي بديع ما جاء في عصا الكبر للمؤلف وهي لم تروَ في الديوان .

قال أسامة بن منقذ :

أسفي على عصر الشباب تصرّمتْ

أيامه لا بل على أيامي

لم أبكهِ أسفاً على مرح الصبا

ووصال غانية وشرب مدام

لكن على جَلَدِي وخوضي معركا

يرتاع فيه الموت من إقدامي

بيدي حسام كلّما جرّدْتُه

يوم الوغى أغمدته في الهام

ولصدر معتدل الكعوب حَطَمْتُهُ

في صدر كبش كتيبةٍ قَمْقام

---

(1) البيت ليزيد بن الطثرية كما في الحيوان .

(2) الصواب انه لحاتم الطائي ديوانه ١٢١ ، والحماسة ٢ : ٣٧٤ .

ونزالِ فرسانِ الهيـاج وكلُّهـم
فرقٌ لهـولِ تقحمي ومقـامي

ولقتليَ الاسـد الضـواري نحطهـا
كالرعـد قَعْقَعَ في مُتون غمـام

تَلْقَى اذا لاقيتهـا اسـداً لـه
بأسٌ يُبيح بـه حِمىً الاجسـام

لو أنَّ عينَ ابي زُبَيْدٍ (١) عاينت
فتكـاته لاقـرَّ بالاحجـام

فحملت من بعد الثمانين العصـا
متيقنـاً انذارهـا لحمـامي

وقال أيضاً في المعنى ولم تكن مروية في ديوانه ، رويت في الاعتبار :

مع الثمانين عاث الضعف في جَلَدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

اذا كتبت فخطي جِـدُ مضـطرب
كخط مرتعش الكفـين مرتعـد

وإن مشيتُ وفي كفي العصا ثقلت
رجلي كأني اخوض الوحل في الجَلَد

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً
من بعد حَطْمِ القنا في لبَّةِ الأسد

---

(١) أبو زبيد شاعر مخضرم وصاف للاسد كان يغشى مجلس أمير المؤمنين عثمان بن عفان له ديوان شعر جمعه وحققه الدكتور نوري القيسي ، وطبع ببغداد ، سنة ١٩٦٧ م ٠

فقــل لمن يتمنــى طـول مدته

هـذي عواقب طول العمـر والمدد

قال المؤلف :

دخل علي بالموصل سنة ست وعشرين وخمسمائة رجل من اهـل الموصل نصراني يعرف بابن تدرُس وهو شيخ كبير يمشي على عصا ليسلم عليَّ وانشدني والعصا بيده قبل السـلام :

احمدُ اللهَ اذ سـلمت الى ان

صـرت امشي وفي يدي عُكّازه

نعمـــة ليتني بقيت عليهـــا

خالداً لا اشـال فوق جنـازه

وقال آخر :

عصيت العصـا ايام شـرخ شبيبتي

فلما انقضى شرخ الشباب أطعْتُها

أُحَمِلُهـا ثقلي ويحسبُ كلٌّ مَنْ

رآهـا بكفي انني قـد حملتهـا

وقال اسامة رحمه الله :

حَملتْ ثقليَ فى السـهل العصا

ونَبَتْ بي حين حاولت الحزوُنا

واذا رجـليَ خـانتني فـلا

لوم عنـدي للعصـا في أن تخونا

قال المؤلف رحمه الله : انشدني الخطيب مجدالدين ابو عمران موسى ابن الخطيب قدوة الشريعة يحيى الحصكفي (١) بظاهر مَيَّافارقين في شعبان سنة ٥٦١هـ :

كبرتُ الى أن صرت أمشي على العصا
لتجبر ما اعدى الزمان على الوَهنِ
يقولون ما تشكي وهل من شكاية
اشدَّ على الانسان من كِبَرِ السنِ

وقال المؤلف رحمه الله :

اذا تقوس ظهر المرء من كبرٍ فعاد كالقوس يمشي والعصا وترُ
فالموت اروح شيء يستريح به والعيش فيه له التعذيب والضررُ

وقال رحمه الله : وهي في ديوانه :

اذا عاد ظهر المرء كالقوس والعصا
له حين يمشي وهي تقدمه وترْ
وملَّ تكاليف الحياة وطولَها
واضعفه من بعد قوته الكبر
فإنَّ له في الموت اعظمَ راحةٍ
وأمناً من الموت الذى كان ينتظر

وقال رحمه الله :

حناني الدهر وأفْنَتني الليالي والغِيَرْ
فصرت كالقوس ومن عصايَ للقوس وتر

---

(١) النسبة الى حصن كيفا الحصكفي انظر عن الحصكفي ، الاعلام (٩/١٨٣)

وقال المؤلف رحمه الله والابيات لم ترد في ديوانه :

قَصَّرَ خطوي وحتىٰ صعدتي ... مُزوِّرٌ دهرٍ خائن خاتل
وصار كفي مالكاً للعصا ... من بعد حمل الاسمر الذابل
امشي بضعفٍ وانحناء على ... عصاي مشي الصائد الخاتل
كأنني لم امشِ يوم الوغى ... الى نزال البطل الباسل
ولم اشق الجيش لا اختشي ... من الردى كالقدر النازل
فانظر الى ما فعل العُمرُ بي ... من طوله لم احظ بالطائل
يا حسرتا اني غداً ميتٌ ... على فراشي مِيتة الخامل
هلا أتاني الموت يوم الوغى ... بين القنا والاسل الناهل

وقال رحمه الله هذه الابيات ولم ترد في ديوانه :

نظرت الى ذي شيبة متهدم ... افنى وكم افنى من الاعوام
يمشي وتقدمه العصا وقد انحنى ... فكأنها وتر لقوس الرامي
ورأت سمات الاريحية والندى ... ودلائلَ المعروف والاقدام
واستخبرت عني فقلت لها امرؤ ... نائي المواطن من كرام الشام
قالت من اي الناس انت فقلت من ... اولاد مُنقِذ في ذُرى وسنام
من معشرٍ ابداً تروح رماحهم ... بدم العِدى مخضوبة الاعلام
تحمي البلاد سيوفُهم وتُبيحُ ما ... تحميه دونهم سيوف الحامي
النازلين بكل ثغر خائف ... والآمنين مَعَرَّةَ الجُرّام
واذا اناخ السائلون بجوهم ... عادوا ثقال الظهر بالانعام
كم فيهم عند الحقوق اذا عرت ... من باذلٍ متبرع بسَّام
تُغني يداه اذا هما همتا ندىً ... في المحل عن صوب الغمام الهامي
يتهللون طلاقةً ويخافهم ... لشظاهم الآساد في الآجام

قـالت فأين هـم ؟ فقلت ابادهم
دهـر" وهـل باق على الايام

ووددت لو ناهَلْتُهم كأس الردى
ووردْتُ قبلَهُم حيـاض حِمامي

فحيـاة مثلي بعـد عزٍ باذخ
ومعاشـرٍ غلبٍ ومـال نـام

ونفـاذ أمرٍ لا يردُّ ، مطيعُـهُ
فيما قضى القاضـي من الاقـوام

لا شك من غصص الحِمام وراحتي
بالمـوت غايـة مُنْيَتي ومرامي

فبكت بزفرة مُوجَعٍ لو صادفت
حجراً لذاب مـن الزفير الحامي

وقال المؤلف وهذه الابيات لم ترد في ديوانه :

غَرِضْتُ من الحيـاة فكل امري
تصـرَّم بالحوادث والخطـوب (١)

فما ظَفِرَتْ يدي بسرور يومٍ
بغـير همـوم حادثةٍ مَشـوبِ

صِباً كالسـكر أعقبه شـباب
تَقضَّـىُ بالوقـائع والحـروب

ووافى بعـده شـيب بغيض"
فـلا سـقيا لأيام المشـيب

---

(١) يقال غرض غرضاً : من باب تعِب اى ادركه الملال والضجر .

أراني طيب لـذّاتي ولهـــوي
يُعَدُّ من الجهـــالة والعيـــوب

وادّاني الى كبـــرٍ وضَعْفٍ
وأدْوَاءٍ خَفَيـــنَ على الطبيـــب

اذا رمتُ النُهوضَ حسـبت أني
حملتُ ذُرى الشناخب من عسيب (١)

فان أنا قمت بعـد الجهـد أمشي
فمشـــي حين أعجـــل كالدبيب

تُسيِّرني العصـــا هوناً وخلفـــي
مسـير المـوت كالريح الهبـوب

وأفنـــى المـوتُ اخواني وقومـي
وأتـرابي فهـــا أنا كالغـــريب

وفيمـــا قـــد لقيت ردىً وموتٌ
ولـــكن ليس قلبـــي كالقلـوب

وقال أيضاً وكتب بها في كتاب الى ولده الامير أبي الفوارس مُرْهَف الى مصر يطلب منه عصا من آبنوس ، والابيات لم ترد في الديوان « وعصا الابنوس كانت تستعمل في بلادنا ويصنع لها رأس من الفضة أو الذهب أو المينـــا » ، قال رحمه الله :

اريد عصـــا من آبنوسٍ تقلنـــي
فاِن الثمـــانين استعادت قُوى رجلي

---

(١) الشناخب جمع شنخوب وهو رأس الجبل وعسيب جبل بعالية نجد

ولو بعصـا موسى اتقيت لآدهـا
على ما بها من قوة حَمْلُها ثقلي
ولكـن تمنينـا الرجاء بباطل
وكم قَدَرٌ ما تُرجي المنايا وكم تُنلي
اذا بلغ المـرء الثمـانين فالرَّدى
يناديه بالترحال من جانب الرَّحل

وقال أيضاً والابيات لم ترد في الديوان :

الوم الردى كم خضته متعرِّضاً
له وهو عني مُعرِضٌ مُتجنِّبُ
وكم أخذت مني السيوفُ مآخذ الـ
حمـام ولكن القضـاء مُغَيَّبُ
الى ان تجاوزت الثمـانين وانقضت
بُلَهْنِيَةُ العيش الذي فيه يُرغب
وأصبحت أستهدي العَصا فتميـل بي
لضعفي عن قصـدي كأني أُنكَبُ
فَمكْروه ما تخشى النفوس من الردى
الـذُّ وأحلى من حيـاتي وأعذب

وقال أيضاً والابيات لم ترد في الديوان :

قـد كان كفـي مألفاً لمهنـدِ
تُفدى القلوب له وتُفرى الهـامِ

ولأسمرٍ لـدنِ الكعوب وجاره[1]

حيث استمرَّ الفِكرُ والاوهـام

يتزايل الابطـال عني مثـل مـا

نفرت من الأسَدِ الهصـور نعـام

فرجعت أحمـل بعد سبعينَ العصـا

فأعجب لمـا تأتي بـه الايـام

واذا الحمـام ابى معاجلَةَ الفتـى

فحيـاته لا تكـذبنَّ حِمـامُ

ولعلني اسرفت في تلخيص كتاب العصا وما حيلتي والمؤلف قد سجل فيه كثيراً من شعره ولم يثبته في ديوانه فأردت جمعه ونشره لما فيه من دلالة على حياته ويلقي ضوءً على حالته النفسية أيام أدبر شبابه ووهن عظمه واشتعل رأسه شيبا وعلت به السنون وراح يدب على العصا .

ويختم الكتاب بهذه الابيات لبعض المغاربة :

ولي عصا في طريق السير أحمدها

بهـا اقـدم في تأخيرهـا قدمي

كأنهـا وهي في كفي أهشُ بهـا

على ثمـانين عاماً لا على غنمـي

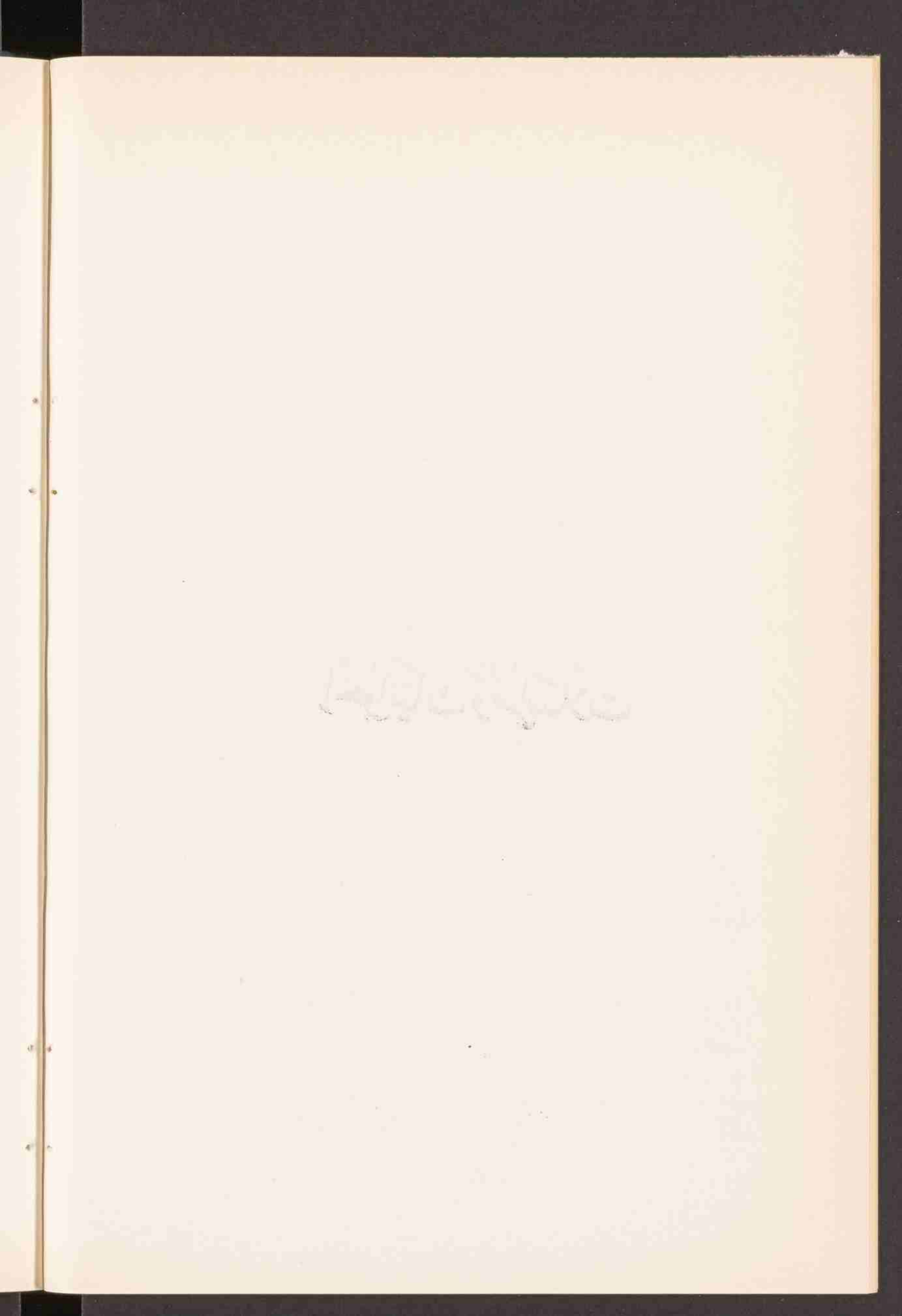
كأنني قوسُ رامٍ وهي لي وترٌ

أرمي عليهـا رماء الشيب والهرم

---

(١) الوجار : جحر الوحش والضبع .

إِخوانيّات ومُراسلات



شعر اسامة الذي اشتمل عليه ديوانه ينضح بالمودة والوفاء لأهله واخوته ويرشح بالحنين لوطنه ولاصدقائه ، والتشوق للقائهم والاحتفاظ بصداقاتهم ، يضمر لهم الحب ، ويعمر صدره بذكراهم والبر بهم والحنين اليهم ، لا يفصم عرى صديق او قريب وإن وجَدَ منهم الجفوة وإن لقي منهم الغدر لا يبدأ أحداً بقطيعة ولا يخاصم امرءاً ، طبعت نفسه على التسامح وجبلت على حب الخير واتسع صدره لحب الناس حتى الافرنج اعداؤه وقت الحرب له مع فرسانهم صداقات ومودات .

تتصدر هذه المراسلات قصائده الى أبيه الذي أحبَّه واحترمه وله في نفسه مكانة لا يدانيها أحد من الناس فهو استاذه وهو رفيقه وقت الحرب في ميادين القتال ، وفي الاحراش والغابات وراء صيد الوحش والطير .

فكان أول من هفت اليه نفسه وتسعر بحبه قلبه بعد ان غادر شيزر ، همه ان يكسب رضاه وما كان يعنيه شيء بقدر ما يعنيه ان يحصل على موافقته بالابتعاد من ذلك الجو الذي كان يحياه مع عمه وزمرته المنافقة ، فكتب اليه قصيدة قافية يستأذنه بها وهي أولى رسائله الى والده ، وقد قدمت بعض أبياتها حين بحثت أسباب رحلته الاولى من شيزر وانضمامه الى عماد الدين زنكي . قدم القصيدة بأبيات غزلية على طريقة الشعراء الذين يفتتحون قصائدهم بالغزل صفحة (٨٧) من الديوان .

ومنها :

يا ابن الاولى جمعَ الفخار لبيتهم
ما شتتوه من العطاء وفرقوا

وتملكوا رقَّ الاكارم بالذي
فكوُّا به رقَّ العُتاة واطلقوا

اشكو الى علياك هماًّ ضاقَ عن
كتمانه صدري وما هو ضيقُ

وطوارقاً للهم أقْرِيها الكـــرى
وتُلِظُّ بي صبحاً فما تتفــرقُ
لو لم أمني النفس أنك كاشـف
كُرُباتهـا عنهـــا لكادت تزهق
أنا عائذ بك من عقوق محبطٍ
عملــي فعصـــياني لأمرك مُوبق
لا تلزمنـي بالهـــوان وحمـــله
ان احتمـــال الهون ثقل مــرهق
دعني وقطع الارض دون معاشرٍ
كــل علي لغير جــرم مُحنَقُ
تَغْلي علي صـدورهم من غيظهم
فتكاد من عيــظٍ علي تَحرَّق
تعشى اذا نظـروا الي عيونهــم
حتى كأن الشمس دوني تُشرقُ
كسَدَتْ علي بضائعي فيهـــم فلا
أدبي ولا نســبي عليهم يَنْفُقُ
أعيــا علي رضــاهم فيئست من
أدراكـــه ما النجــم شيء يلحــق
إن أغشَهُمْ قالوا خَلوبٌ ماذِق
أو اجفهـم قالـــوا عـدو أزرق
قد أفســدوا عيشي علي وعيشَهُم
فأنا الشقي بهم ، وبي أيضاً شقوا

فاسمح ببعدي عنهم برضاكَ لي
ان الذي ترضىُ عليه موفقُ

فَلَعَلّ بعض العمر وهو أقلُه
ألا يكدرَ بالهموم ويُمْذَقُ

فضلُ الاقارب بِرّهُم وحُنوهم
فاذا جفوني فالاباعد أرفق

أتظنني أرجو عواطف ودّهم
اني اذا عبدُ المطامع ، أخرق

بيني وبينهم هنَاتٌ في الحشا
منها ندوب ما بقيت وما بقوا

لا تغترر برجائهم أن يُحسنوا
كم قد رأينا من رجاء يُخفِقُ

خذ ما تراه ودع أحاديث المنى
ان الاماني فيهم لا تصدق

والوشاة يسعون الى قلب الاب الحنون ينقلون اليه أخباراً مختلقة عن اسامة تجعل الشيخ يفتر في كتبه فلما وصلت أنباء هذه الجفوة الى سمع اسامة فزع لها وقلق من جرائها ونزل على نفسه غمٌ وحزن فكتب اليه قصيدة من الموصل عبّر فيها عن عواطفه الملتهبة وأعرب عن لواعج صدره تنطق بالرهبة والاشفاق من تغير قلب أبيه عليه وان كان موضعه من قلب أبيه لا يرقى اليه الواشون ولا يغيره عنه كيسه أو حمقه على حد تعبيره وبدأ قصيدته بالتشوق والشكوى من ألم النوى وما يجن جنانه من لوعة الفراق وما يكنه صدره من الحب لابيه واخوته وأصدقائه ونفى ان يكون مغتبطاً بالعيش من بعدهم أو ان الصبر والسلوان لاحبابه وأهل

بيته من خلقه اشتملت مقدمة القصيدة على أربعة عشر بيتاً تسيل رقة وتعبق بأنفاس الشوق ، موضعها من الديوان صفحة ٨٩ ثم يقول بعدها :

إيهاً ، بحقك مجد الدين تعلم أنَّ
الصبرَ عنك والسلوان من خلقي
أو أنني بَعْدَ بُعْدي عنك مُغْتَبِطٌ
بالعيش اني به لا تُكْذَبنَّ شقي
يا ويحَ قلبي من شوقٍ يقلقله
الى لقائك ماذا من نواك لقي
وناظرٍ قُرِحَتْ أجفانه أسفاً
عليك في لجَّةٍ من دَمْعِه غَرِقِ
وبعد ما بي فاشفاقي يُهددني
بشوب رأيك بالتكدير والرنق
وإنَّ قلباً قد رانت عليه من الـ
ـواشين بي جفوة يهماء كالغَسَقِ
ونافسوني في حُسنى ظنونكَ بي
حتى غدوتَ وسوء الشك في نسق
بهم تباريح أشواقي اليك وما
أجِنُّ من زفراتٍ بالنجوى نُطُقِ
أما كفاهم نوى داري وبعدك من
عيني وفرقة إخوان الصبّا الصُدُق
وأنني كلَّ يومٍ قطب معركة
درئية السمر والهندية الذُلُقِ

أغشى الوغى مفرداً من اسرتي وهم
هم اذا الخيل خاضت لجة العلق
هم المحامون والاشبال مسلمة
والمتقون الردى بالاوجه الطلق
وموضعي منك لا تسمو الوشاة له
ولا يغيره كيسي ولا حمقي
وإنما قالة جاءت فضاق لها
صدري ولو غيرك المعني لم يضق
كذبتها ثم ناجتني الظنون بأن
الدهر ليس بمأمون فلا تثق
كم قد اعص بما تمرى (١) مذاقته
ونغص البارد السلسال بالشرق
تقع الخوف ممن أنت آمنه
قد تنكأ الكلم كف الآسي الرفق
فقلت مالي وكتمي ما يخالجني
فيه الظنون كفعل المغضب الملق
ادعو لما بي صدى صوتي وموضع
شكواي وحامل ثقلي حيث لم أطق
فان يكن ما نمى زوراً وأحسبه
فعنده العفو من ذي الهفوة العقق (٢)

(١) مري الطعام فهو هنيء مريء .
(٢) العقق : العاق .

وإن يكن وأحاشي مجـــده ثلجت
عتبـاه حرٌ حشـاً بالهمِّ مُحترقِ

هو الأبي الـــذي تخشـى بوادره
ويرتجى عفـــوه في سَورة الحنق

عتبـاه تلقى ذنوبي قبـــل معذرتي
وماء وجهي مَصونٌ فيـه لم يرق

لا غيّرت رأيَه الايـــام فيَّ ولا
نالت مكانيَ منـه لعقةُ الحدق (١)

وكتب الى أبيه بعد ان أعرض عنه وأجابه بالصمت والاطراق : قال

لا تُفسـدَنَّ نصيحتي بشـــقاق
وأبيـك ما السلوانُ من أخــلاقي

حظَر الوفاء عليَّ أن أسلو فـلا
فكَّ السُلُو من الغـــرام وثاقي

لا ترجونَّ لي الشــفاء من الجوى
واليأس كـل اليأس من افراقي (٢)

كيف الافاقة لِلَديغَ أخي الهـوى
من دائــهِ والسُمُّ في الدرياق (٣)

وأغنَّ راعتنـــي النـوى بفراقـه
ولكـم فجعت ولا كـــذا بفراق

---

(١) لعقة الحدق : الاصابة بالعين .
(٢) افرق المريض اذا برىء .
(٣) الدرياق هو الترياق دواء ضد السم .

أخلو بأفكاري لتـــدني شخصـــه

خُدَعُ المنى من قلبي الخفـاق

فاذا تســامح لي الزمان بقـربه

من بعــد بَيْنَيْ فرقة وشِقاقي

باثَثْتُه وَجْدي وقلت يرق لي :

فأجــابني بالصـمت والاطــراق

ومنهـا :

إن جُرْتَ عن نهج الكلام فمُرشِدٌ [1]

لك مُرشــدٌ بمكارم الأخـلاق

فاعمَدْ لمجد لدين تلق المجــد ما

لاقيتـــه أكـــرم بــه من لاقي

فاذا وصـلت الى أغـرَّ محجب

مخلُوقةٍ كفـــاهُ للأنفــاقِ

فاربـع بربـعٍ لا يـزال نزيلَـــه

حسنُ الثنـاء ، وخشيةُ الخـلاق

وابلـغ تحيـــة نازحٍ قذفت بـه

أيدي النـوى في اسـحق الآفاق

قد كان بالشـامي يُعرف برهـة

من دهره والآن فهـو عراقي [2]

---

(١) مرشد بن علي هو والد اسامة ومجد الدين لقبه .

(٢) يشير الى اقامته بالموصل وهي جزء من العراق ، وبخطىء من يعد الموصل من الجزيرة أو من تركيا .

انضى الوجيفُ (١) ركابَه وجهادَه
فكأنَّهـنَّ قَلائـد الاعنـاقِ

وهو الجليـد على خطوب زمـانه
لا يشتكي منهـا سـوى الاشواق

ينزو (٢) لذكر أبي سـلامة قلبه
فيكاد يمرُق من حشـا وصـفاق

وأهتِفْ به : يا خير من أرجوه
للأواء او ادعـوه يومَ تلاق (٣)

بي لوعتـان عليك يضعف عنهما
جَلَدي : من الاشـواق والاشفاق

فالشوق أنت به العليم وغالبُ الا
شـفاق ممـا أنتَ فيـه ملاقِ

فكتب اليه والده قصيدة مطلعها :

اتظـن أني بعـد بعـدك باق
أجزي عن الاشـواق بالاشـواق

ويقول فيها :

أأبا المظفـر دعوةً تشفي الظمـا
مني وإن أضحى بهـا إحـراقي

لم استكِـن أبـداً لخطب نازل
الا لبعـدك فهـو غير مطـاق

---

(١) الوجيف ضرب من سير الخيل والابل .
(٢) ينزو بمعنى يهفو .
(٣) اللاواء ، المصيبة العظمى ، الخطب الجلل .

فاذا اطعتُ الوجدَ فيك أطاعني
قلبي ويُبدي إن عصيت شقاقي

فاذا ذكرتك خلتُ اني شارب
ثملٌ سقاهُ من المُدامة ساق

وقف مؤدبه الشيخ الجليل أبو عبدالله محمد بن يوسف المعروف بأبن منيرة رحمه الله على القصيدة فكتب اليه :

يا راكب الشَّدنيَّة الغيداق (١)
ومتابع الزِملان بالأعناق

في فتية وصلوا السرى حتى انبرت
أجسامهم أخفى من الأرماق

والقصيدة طويلة تجدها مثبتة في الديوان ص ١٢٠ – ١٢١ .

ومنها :

يا أيها المولى الذي ببعاده
عني قربت من الردى المعتاق

لي انة الشاكي الشجيُّ لما به
إما ذكرتَ ، ولوعةُ المشتاق

واذا الجفونُ نظرن بعدكَ نُزهةً
عاقبتهن بدمعيَ المُهراق

لا تَطلُبَنْ مني المسرَّةَ انها
عذراء قد متَّعتُها بطلاق

---

(١) الشدَنيات محركة من الابل منسوبة الى موضع باليمن او فحل والغيداق الطوال ، والزملان والاعناق نوع من السير .

أمَّـــا أبوكَ فَدَاؤه مُسْتَحْكِمٌ
ما انْ لـه بســواك من افراق

كيف السّلوُ لـهُ وأنىَ صَبرُهُ
عن مصــطفى بمكارم الاخــلاق

ذو مهجـــة تنزو اليــك ومقلة
تبكي عليـك اليـك بالاشـواق

وكتب الى والده قصيدة بدأها بالغزل والحنين والشكوى مطلعها(١) :

إن لــم تطيقـا يـومَ زامــة
أن تســعدا فَـذَرا الملامــة

ومنهــا

ابنـــي الســرى والبيــد ، لا
اغرى الزمــان بكم عُرامــه(٢)

هــل فيـكم مــن مبلـغ عني السّلامَ أبا ســلامه (٣)
وتحيــة كشــذى فتيــق المســك صُفق بالمدامـــه
تُهــدى يَضُــوعُ نسيمهـا لأغــرّ عَصَّــاء ملامـــه
مــن جـامح العــزمات لا يرضـى عـلى هُون مقامــه
وقعَّنَ غاربَـــهُ الخطــوب ولــم يـزل يأبى الظلامــه
يا ابن الخضــارمة الكــرا م اولــي المكـارم والكرامـه
مــن كــل بسّــام تسـح يــداه للعــافين ســامه (٤)
خضــل الجنــاب اذا تــرد ى الجــوُ من مَحْلٍ قتامــه

(١) تقدم اولها ص ٩٧ من الديوان .
(٢) السـرى سـير آخر الليــل وقبــل عامته ، والبيد مفرده بيداء والعرام الشدة .
(٣) كنية والده مرشد بن سديد الملك .
(٤) سامة : السام الذهب والفضة .

أأسام خسفاً ثمّ لا أبى فلست اذاً أسامه
هيهات لا ترضى المعالي صاحباً يرضى اهتضامه
وعلام يخشى الناسَ مَن لم يخشَ في حال حمامه
مَن لا تراه إثرَ شيء فائتٍ يُبدي الندامه
واذا حوى الرغبات أمضى للعلا فيها احتكامه
لو انكرت اجفانه طيف الخيال جفا منامه ،

لا يرتضي المقام في دار أو وطن يسام فيه الخسف أو يهان فان لم يردَّ الظلم او يثر على من يريد به الاهانة اذاً فليس اسامة ، وثورته ابسط اشكالها ان يهجر موطنه ويفارق اولئك الذين هضموا حقوقه .

اسامة لا يؤرخ شعره :

برغم ان اسامة قد رتب ديوانه بنفسه وقسمه على الموضوعات ووضع كل جزء من القصيدة تحت ما يناسبها الا ان النقص البارز في شعره انه اغفل تاريخ القصائد واحيانا لم يذكر الغرض الذى من اجله انشأ القصيدة ، فلما حاولت ان ارتب مراسلاته وقف هذا الانبهام من الزمن حائلا دون رغبتي ولذلك جعلت رسائله التى مع والده اولا ومع اخوته ثانيا ثم اعقبت ذلك برسائله مع اصدقائه الذين بدأهم او اجاب على رسائلهم وفق الفترات الزمنية وتنقلاته فى الاقطار التى تنقل فيها وعاشر امراءها واعيانها من العلماء والادباء والشعراء .

وفى الديوان مقطعات كتبها الى اخويه عز الدولة وبهاء الدولة والى ابنه مُرهَف وابن أخيه شمس الدولة والى ابن عمه الامير ناصر الدين محمد بن سلطان ، وقد اعياني تعين زمن هذه المراسلات لذلك يجوز ان يكون بعض ما تقدم حقه ان يتأخر ولكن ليس فى هذا التقديم او التأخير ما يغير الفكرة او يغير من الصلة وهذه المكاتبات محورها التواصل والتعاطف والتشوق والتذكر والشكوى من الفراق والنعي على الدهر الذي سعى لتشتيت الشمل وتفريق الجمع .

كتب الى أخيه بهاء الدولة ابى المُغيث منقذ رحمه الله :

أيا منقذي والحادثات تنوشني
ودافع همي اذ ترادف بعثُه

لساني عن شكري ، اياديك مُقْحمٌ
وانت فأعلى من ثناء أبثُه

تحملتَ عني كل خطبٍ يؤدني
وناهلتني عيشي وقد بان خُبْثُه

فِدىً لك يا طوع الاخاء أمينه
على غَيبةٍ مُستكرهُ الوُدّ رثُه

نسيٌ لما يُولي وما طال عهده
ملول لمن يهوى وما دام لَبْثُه

وما اشتكي شوقي اليك تجلداً
على انه بَلْبَالُ قلبي وبَثُه

وقاسمني قلبي على الصبر عنكم
ولا عجب ان بانَ بعدكَ حِنثُه

وما زال يَثنيه اليك حفاظه
وغدرُ صروف الدهر عنك تحثُه

وما ضعضعَتني الحادثاتُ وانني
كعهدك وَعْرُ الخُلق في الخطب وَعْثُه

جَرِيءٌ على الاهوال والموت مُحجمٌ
مَرِيرُ القُوى والدهر قد بان نكثُه

كظُومٌ على غيظٍ يَضيق به الحَشا
فلست وإن آدَ اصطباري أبثُه

ولم أرث الصبرَ الجميـل كلالة(١)
ولكنـه عن مرشـدٍ لي ارثـه

عن الممتري أخلافَ دهرٍ تشابهت
اطايبـه الا عليـه ، وغثُـه

نداهُ ربيعٌ يُنعش الناس سَيْبُه
اذا اخلف الوسميُّ جَادَ مُلِثُّه(٢)

يضاعف داء الحاسدين كمـاله
على أنـه يَشفي من الداء نفثُـه

وكتب الى أخيه عز الدولة :

يا ثانيـا للنفس وهو لناظـري أعزُّ ثالث
ونجيَّ فكري دون سا ئر من اناجي أو احادث
أشكو فراقك فهـو او جع ما لقيت من الحوادث
شكوى مشـوق يستريح اليـك والمصدور نافث
والوم دهـراً جـدَّ في تشتيت شملي وهو عابث
اني علقت من اصطبا ري عنـك أسباباً رثائث
عاهـدته الا تضعضـعه النـوى وأراه ناكث
وكأنَّ قلبي حين يخطر ذكركم في كف ضابث(٣)
وبَقاي بعـد فراقكم خطب لعمـر أبيك كارث

وكتب الى أخيه بهاء الدولة :

يا من هـواه على التـنائي والتـداني في ازدياد
أصبحت مُغتَرباً لبعـدك بين أهلـي في بلادي

---

(١) الكلالة : للميت ان لا يرثه والد ولا ولد .
(٢) اللث دوام المطر والندى واللث المطر دام أياما لا ينقطع .
(٣) ضابث : قابض عليه بكفه .

مستوحشاً مع كثرة الخلا ن وحشة ذي انفراد
وأقل ما لاقيت بعدك من تباريح البعاد
شوقٌ اليك أباح فيض مدامعي وحمى رقادي

وكتب الى أخيه عز الدولة :

أبا حسنٍ وافى كتابك شاهراً
صوارم عتب كل صفح لها حدُ

فقابلت بالعُتبى مضيض عتابه
ولم يتجهمه الحجاج ولا الجحد

وأعجبني عِيٌّ لديه ولم أزل
اذا لم تكن خصمي لي الحجج اللدُّ(١)

فيا حبذا ذنبٌ الي نسبته
وما خطأ مني أتاه ولا عَمدُ

ولو كان ما بُلِّغْتَهُ فظننته
لكفَّره حقُّ الاخوة والود

فأهلا بعتب تستريح بثه
ويؤمنني ان يستمر بك الحقد

لقد راق في قلبي ولذَّ سماعه
بسمعي « فزدني من حديثك يا سعد »

وفي الديوان أكثر من مقطوعة الى اخوته وكلها تنضح بالاخوة والشوق والشكوى .

وكتب الى ابن أخيه شمس الدولة وقد سيَّره الى مصر الى الملك الصالح قال :

---

(١) عجز بيت لابي فراس الحمداني .

أيا غائباً يُدنيه شوقي على النـوى
لأنت الى قلبي مـن الفـكر أقرب

وما غاب من اقفـاه عيني وخاطري
له مطلـع من ذا وفي تلك مغرب

غبطتـــك نعمَـى فزت دوني بنيلهـا
وفخرا ، له ذيل على السحب يسحبُ

جوارك من يحمي على الارض جاره
ويطلب منـــه جوده كيف يطلب

هو البحر تروى الارض عند سكوته
وتَغْرَقُ في تيـــاره حين يغضب

فمن لي لو كنت الرسول ببـابه
لتبـــرد رؤياه حَشَـى تتلهـب

وابلـغ ما انفقت في أملي لـــه
من العمـــر عشراً كلها لى مُتعِبُ

فما رقّ لي فيهـــا نسيم أصائلي
ولا راق لي فيهـــا من الهمّ مشرب

ولولا رجاء الصـالح الملك الـذي
به طال واستعلى على الشرق مغرب

وكتب الى ولده مُرهَف وقد تملك نفسه الاسى لما يجد من الحنين الى ولده

مُواصلتي كتبــي اليــك تَزيدني
اليك اشتياقا بل عليـك تأسـفا

ولي اسوةٌ في الناس لو نفع الأسى
فمن قبلنا يعقوب فارق يوسفا

ولكنَّ نفسي قد تملكها الاسى
وقلبي اذا سكنته بالاسى هفا

وما أحسب الايام تقنع بالنوى
ولا أنَّ صرف الدهر بالفرقة اشتفى

وكتب الامير مرهف الى أبيه رقعة مع مستميح يطلب نداه وكان الامير مؤيد الدولة اسامة يعيش منقطعا عن الناس معتزلا الحياة العامة في حصن ناءٍ في الشمال الشرقي من جزيرة ابن عمر لا انيس له غير ما يكتبه أو يقرؤه فكتب الى ولده هذه الابيات والاسى يحز نفسه والألم يعصر وجوده كله لأنه لم يجد ما يسعف معتفي نداه وقد اضطر ان يقبض يده بعد ان عود الناس بسطها بالجود فقال

ابا الفوارس ما لاقيت من زمني
أشد من قبضه كفي عن الجود

رأى سماحي بمنزور تجانف لي
منه وجودي فاجتاح موجودي

فصرت إن هزني جان تعوَّد ان
يجني نداي رآني يابسَ العود

وكتب اليه بمناسبة مماثلة :

أبا الفوارس إن انكرت قبض يدي
من بعد بسطتها بالجود والكرم

فالذنب للموت أرجاني الى زمنٍ
غلَّتْ أكفُ الندى بؤساه بالعدم

كفى بنا فرقةً ريب المنون كفى :

وجد اسامة من أخيه عز الدين جفوة واستمر هجره له وأعرض عن الرد على رسائله ولم يكن منه ما يستوجب هذه القطيعة فأثار هذا التجافي كوامن نفسه فهرع الى قريحته فنظم اليه هذه القصيدة الغراء وقد عبر فيها عن هواجسه ونوازع نفسه واستعتب فيها أخاه واستل سخيمة صدره ومنحه الرضا ، بدأها بهذا العتب المحبب :

أطاع ما قاله الواشي وما هَرَفا
فعاد يُنكر منا كل ما عَرَفا

وصدَّ حتى استمرَّ الهجرُ منه فلو
ألمَّ بي منه طيفٌ في الكرى صَدَفا

يجني ، وعندي لـه العُتبى فوا عجبا
من مُعْتِبٍ ما جنى جُرماً ولا اقترفا

ملكتـه طائعاً قلباً تعسَّفَه
وقلما يملك الاحرارَ من عسفا

لي منه ما ساءني : من هجره ، وله
مني الرضا بقَضَاياه وإن جَنَفا

مالي أرى بيننا والدار جامعةٌ
قريبة ، من تجنيكم نوىً قَذَفا(١)

لا تعجلوا بفراقٍ سوف يُدركنا
كفى بنا فرقةً ريب المنون كفى

صلوا فؤاداً اذا سكّنتُ رَوْعَته
هَفا ، ودمعاً اذا نهنهتُه وكَفا

---

(١) النوى القذف : البعيدة .

لكم هواي ، وإن جرتم وجوركم

مُستحسَنٌ منكم لو لم يكن سَرَفا

كذاك حظي من الاحباب : مَنْ سكنت

نفسي اليه حباني الهجرَ والشنفا

حتى لقد غيَّر الجَدُّ العثورُ فلا

لعاً له ، ماجداً ما كان مُطَّرفا

وابتزني رأي عز الدين مُستلباً

من بعد ما عمَّني احسانُه وضَفا

أضافني عتبُه هماً شجيت به

أبان عن ناظري طيبَ الكرى ونفى

أتته عني أحاديثٌ مُزخرفَةٌ

ما إن بها عنه وهو الألمعيُّ خَفا

لكنها وافقت من قلبه مللاً

لم يَسْتَبِنْ صحة الدعوى ولا كشفا

وما الرِّضا ببعيدٍ من خلائقه

وهي السلافة راقت رقةً وصفا

ومنها :

أريتني بعد بِشر هجرة وقِلىً

وبعدَ برٍّ ولُطفٍ قسوة وجَفا

فعدت صفر يد مما ظفرت به

كأن ما نلته من كفّي أختُطِفا

هبني أتيت بجهلٍ ما قذفت به
فأين حلمُك والفضل الذي عُرفا

ولا ، ومَن يعلم الاسرار حِلْفَةَ مَنْ
يَبرّ فيما أتى إن قال أو حَلفا

ما حدثتني نفسي عندَ خَلوتِها
بما تُعنفني فيه اذا انكشفا

لكنّها شِقوة حانتْ وأقضية
حبتني الهمَّ مُذ عامينِ والاسفا

تداولتني أمور غيرُ واحدةٍ
لو حُمِّلَ الطَوْدُ أدنى ثقلها نُسِفا

وأقصَدَتني سهام الحاسديّ على
فوزي بقربك حتى قرطسوا الهدفا

وبعدَ ما نالني إن جدت لي برضا
فقد غفرت لدهري كلّ ما سلفا

وذاك ظني فإن يَصْدُق فأنت لما
رجوتُ أهل ، وإن يُخفق فوا أسفا

حاشاك تغدو ظنوني فيك مُخْفِقَةً
أو ينثني أملي باليأس مُنصرِفا

وجُنّتي من زماني حسن رأيك لي
أكرم بها جنة لا البيض والزغفا (١)

---

(١) البيض السيوف ، والزغف الدرع اللينة المحكمة .

الفت منك حنواً منــذ كنت وقد
فقدته ، وشديد فقدُ ما أُلِفــا

فعُــدْ لاحسن ما عوّدتَ من حسن
يا مــن اذا جاد وفى أو أذمّ وَفى(١)

ورسائله الى والده وولده واخوته وبني عمومته كثيرة اكتفى بما قدمت منها في مواضع مختلفة من الكتاب وفيها الغَنَاء للدلالة على ما كان بين اسامة وعشيرته من المودة وصلة الرحم وحبه الشديد لاهله ووفائه لوشائج القربى فاذا رث حبل منها من أحد منهم بادره بالعتاب وباشره بالتشوق اليه وجدد العهـد معه ، وفي الديوان أمثلة كثيرة لالتزام اسامة لأهل بيته وانتقل الى مكاتباته مع أصدقائه وأقدمها قصيدته الى معين الدين أُنَر حاكم الشام وقد تقدم بعضها في بحثي عن أسباب هجرته الى مصرَ سنة ٥٣٩ هـ والقصيدة طويلة تقع بأكثر من خمسين بيتاً قدمها بغزل رقيق وعتب صديق عفيف •

قصيدته الى معين الدين ا'نر قال (٢) :

أقصــر ، فلومي في حبهــم لَمَمْ
وناصــحُ العاشــقين متُهــم

ومنها :

فوّضت أمــري اليهــمْ ثِقَــةً
بهــم فلمّــا تحكموا ظلمــوا

وما كــذا تحفظ المواثيــق في الـ
حب وتُمحى العهــودُ والذمم

فيــا لهــا هفــوة ندمت علــى
ما كان منهــا لو ينفــع النــدم

---

(١) اذم له عليه أخذ له الذمة ، أي اجاره •

(٢) كان وزيراً لحاكم دمشق شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري توفي سنة ٥٤٤ هـ •

ومنهـا :

يا راكبـاً تقطع البيـداء همتـه
والعيش تعجزُ عمـا تُدرك الهمـم

بلّغ أميري : معين الدين مالَـةً
من نازح الدار لكن وُدُّهُ أمَمُ

وقل له أنت خيرُ الترك فضلك الـ
حيـاء والدين والاقـدام والكرم

وأنت أعدل من يشكى اليـه ولي
شكيَّة انت فيهـا الخصـم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولتـه
وعـدل سيرته بـين الورى علَمُ

تضييع واجب حقي بعد ما شـهدت
به النصيحةُ والاخلاص والخـدم

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من
ودٍّ ، وإن اجلبَ الاعداء ينصرم

لكـن ثقـاتك ما زالوا بغشـهم
حتى استوت عندك الانوارُ والظلم

باعوك بالبخس يبغون الغِنى ولهم
لو انهم عَدِموك ، الوبل والعـدم

والله ما نصحُوا لمـا استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي متهـم

كم حرفوا من مقـــال في سفارتهم
وكم سَعوْا بفســادٍ ضَلَّ سعيهم

ومنهـا :

ولستُ آسىً على الترحال عن بلدٍ
« شهب البزاة سواء فيــه والرخم »

تَعلَّقَتْ بحبال الشمس منه يدي
ثم انثنت وهي صفرٌ ملؤهـا ندم

لكـن فراقُك آســاني وآســفني
ففـي الجــوانح نار منـــه تضطرم

فأسلم فما عشتَ لي فالدهر طوع يدي
وكـــل ما نالني من بؤســه نِعَمُ

يعزو اسامة انقطاع ما بين معين الدين وبينه الى كيد الحساد وسعي الوشاة الذين وثق بهم معين الدين أُثَر وهم ما زالوا يسعون بغشهم حتى افسدوا قلبه وما نصحوه في ما أشاروا به ، وقد حرفوا المقال وبدلوا الحقيقة وفق خطة دبروها للايقاع بين الاميرين فقال يعاتبه :

وما ظننتـــك تنسى حق معـــرفتي
« ان المعارف في أهـــل النهى ذمم »

فوقعت الجفوة وتألب الخصوم على اسامة فهجر الشام وولىَّ وجهه الى مصر بعد خدمة دامت ثماني سنين ، ولم يأس الا لفراق صديقه الذي وثق به وقد اخلص له اخلاصا لايرقى اليـــه الشـــك ولاتحوم حوله الظنون وان اجلب الاعـداء وكاد الكائدون .

جربهم مثـل تجريبي لتخبرهم فللرجـال اذا ما جـــربوا قيم

هل فيهم رجــل يُغني غنَاي اذا

جلا الحوادث حــدُ السيف والقلم

أم فيهمُ مَنْ له في الخطب ضاق به

ذرْعُ الرجال يَداً يسطو بها وفم

لكنَ رأيكَ أدناهــم وابعــدني

« فليت انا بقــدر الحب نقتسم »

هــم الاعــادي وقاك الله شــرهم

وهــم بزعمهــم الاعــوان والخدم

اذا نهضتَ الى مجــدٍ تؤثلــه

تقاعدوا ، واذا شــيدته هــدموا

وسمع اسامة بأنتصارات صديقه الامير معين الدين أُنر على الافرنج فكتب اليه مُهنئاً ومُثنيا ، وفيها يظهر أسفه اذ حرم من أجــر المشاركة في هذه الحروب التي كان واياه شفعاً في حربهم وهو اليوم وتر وكان حظه من تلك الحروب ذكراً معطراً ثم هو اليوم ماله فيمن يجاهد ذكر ، قال :

كــل يوم فتــح مبين ونصــرُ

واعتــلاء على الاعادي وقهــرُ

صدق النعت فيــك أنت معين الــ

ــدين إن النعــوت فألٌ وزجرُ

بك زاد الاســلام سيفه المخــ

ــذَمَ عزاً وذل شرك وكُفرُ

ومنها :

كل ذخر الملوك يَفْنَى وذخراك همـا الباقيان : أجرٌ وشكرُ

للندى مالك المبـاح وما مالك الا جُرْدٌ وبيضٌ وسُمرُ

عمَّ أهلَ الشآم عدلك لكنّـا بَعُـدنا وغاية البعد مصرُ

فحرمنا من بينهم رَيْعَ ما كنا زرعنا ، ونال زيد وعمرو

أمن العدل اننا في بلاد الكفر شفعٌ وأنت في الغزو وتر

كان حظي من ذاك ذكـراً شَفيعاً

ثـم مالي فيمن يجـاهد ذكـرُ

بين الامير اسامة والملك الصالح طلائع بن رُزيك صاحب مصر (١) :

كان بينهما ودٌ وإخاء ، أعجب كل واحد منهما بصاحبه وكان طلائع يرغب رغبة صادقة ان يوسد الى صديقه اسامة ولاية اسوان أو غيرها وان يشركه في الحكم إن عاد الى مصـر ولـكن الاحداث التى عرضت لاسـامة وهو في مصـر ايام الوزير عباس بن باديس والدسائس التي كانت تحاك في البـلاط الفاطمي من الخليفة لوزرائه ومن الوزراء للخليفة وتدخل النساء في الحكم وفساد الجند وتعدد ثوراتهم كل ذلك زهده بمصر والحكم فيها أو مجرد التفكير في العودة اليها ، وقد مر بنا ان الملك العادل نور الدين قد نصحه بالبقاء بجواره ، وتوالت بينهما الرسائل وتداولت القصائد وتتابعت هدايا الملك الصالح . فكان من حقها الشكر ومن حقها الاعلان والذكر ، قرأ الملك الصالح طلائع رقعةً بعث بها اسامة الى صديقه الوزير نظام الدين فيها الابيات التالية :

وما سكنت نفسي الى الصبر عنـكم

ولا رضيت بَعْدَ الديار من القرب

ولكـــنَّ أيامي قضـت بشـتاتنا

ففارقكم جسـمي وجاوركم قلبي

(١) طلائع بن رزيك قتل ٥٥٦ هـ .

ولو جمعتنا الدارُ بعـــد تفرقٍ
لكنتم من الدنيـا ونعمتها حســبي

فوقف طلائع على الابيات فأجاب عنها بقصيدة طويلة منها :

من اليوم لا اغترُّ ما عشتُ بالحب
ولا أطلب العتبى من الخِل بالعتب

ولا ارتضي بالبعـد من ذي مودة
واقنــع منــه بالرســائل والكتب

أخلاي لو رمتـم دنواً لمـا أبى
سُرى العيس بل ركض المطهمة القبِّ

ولكنــكم بعتـم وفاءً بغــدرةٍ
غـداة اشتريتم وحشة البعـد بالقرب

والقصيدة طويلة وفيها يبرىء ساحة اسامة من الاشتراك بتلك الاحداث التي انتهت بمقتل ابن السلار ، الوزير الملقب بالملك العادل ، وقتل الخليفة من قبل عباس بن باديس وابنه المظفر ٠

وحاشاكم ما خنتم العهــد مثله   ولا لكم فيما جرى منه من ذنب

ويقول له فيها :

وكنتــم الى قلبي اذا ما لقيتــكم
على ظمأ اشهى من البارد العـذب

واني على ما قــد عهدتم محـافظ
على الود منكم في بعـاد وفي قرب

أحِن الى أخـلاقكم وأعُدُّكـم
بلا مِرية من جملة الاهل والصحب

اسـامةُ لي منـه اعتزام اسـامة
ومرهف فيه هِزّةُ المرهف الرحب

وكتب اليه طلائع بخط يده ومن شعره قصيدة مطلعها :

أيها المنقذ أنت على البعـد صديق لنا ونعم الصـديقُ
ليس فيما تأتيـه من برٍّ أفعالك للطالب الحقوق حقوقُ
فلهـذا نرى مواصلة الكتب تباعا اليـك ممـا يليـق
ونناجيـك بالمهمـات اذ أنت بالقائهـا اليك خليق
وأهم الامور أمر جهـاد الكفر فاسمع فعنـدنا التحقيق
واصَلَتْهُم منـا السرايا فأشجاهم بكورٌ منّا لهم وطروقُ
وأباحت ديارهـم فأباد القـوم قتـل ملازم وحـريق
وانتظرنا بزحفنـا بُرءَ نور الدين علما منـا بان سيفيق
ما لهذا المهم مثلك مجدَ الدين فانهض بـه فأنت حقيـق
قل له لاعداه رأي ولا زال لـديه لكل خـير طريق
أنت في حسم داء طاغيـة الكفار ذاك المرجو والمرموق
فاغتنم بالجهـاد اجرك كي تلقى رفيقا له ونعم الرفيـق

وهذه الدعوة الى توحيد خطة الهجوم والحرب المشتركة ضد الافرنج قد توالت في رسائله وقصائده والملك العـادل نور الدين كان يتخوف من دسائس البلاط الفاطمي وكانت له خطة تجاه الخليفة ظهرت بعد طلائع ولكن الفكرة التي نادى بها ابن رزيك قـد نمت بذرتها وأتت أكلها على يد صـلاح الدين ابن أيوب بطل حطين وفاتح القدس .

فأجابه اسامة :

كم الى كم يُلحىُ المحب المشوق
وهو من سـكرة الهوى لايفيـق

حمـــلوه وهو الضعيف من التعـ

نيف فيهـم واللـوم ما لا يُطيـق

شجعوه على القطيعة والصمتُ من الصـدّ والفراق فروق

والابيات التي أجاب عليها اسامة لم نجد فيها لاتصريحا ولا تلميحا للفكرة التي نادى بها طلائع ، فعاد وكتب اليه :

أيها السائر المجدُ الى الشـــام تباري ركابُه والخيـول

خذ على بلدة بهـا دار مجـد الدين لاربع ربعها المأهول

وتعرف أخبـــاره واقرِه منـا سلاما فيــه العتـاب يجول

قل له : أنت نعم ذخر الصديق اليوم لكنك الصديق الملول

لا كتـــاب ولا جواب ولا قول به لليقين منـا حصـــول

غير انا نواصل الكتب اذ قصّر منك البُر الكرام الوصول ،

وراح يعدد حروبه ويُشيد بما فتح الله على جنـده من النصر وما صنعه اسطوله وما ناله من الافرنج برغم قلتــه فأسر وفتح في عكا وطرطوس وأخيراً يتوصل الى غرضه :

فابلغن قولنـــا الى الملك العادل فهـــو المرجو والمأمـول

قل له : كم تماطل الدين في الكفار فاحذر ان يغضب الممطول

سر الى القدس واحتســـب ذاك في الله فبالسير منك يشفى الغليـل

فأجابه بقصيدة على نفس الروي :

وعاد فكتب اليه قصيدة ميمية طويلة منها :

فقولوا لنـور الدين لا فلّ حـــده

ولا حكمت فيــه الليالي الغواشـم

تجهز الى أرض العدو ولا تَهن
وتُظهر فتوراً إن مضت منك حارم (١)

فكتب اليه اسامة بهذه القصيدة التي بلغت ستة وستين بيتاً ، منها :

لك الفضل من دون الورى والمكارمُ
فمن حاتم ما نال ذا الفخر حاتِم

وصلت فأغنيت الانام من الحيا
وصُلتَ فخافت من سطواك الصوارم

تكفلتَ للاسلام انك مانعٌ
حماه ، مُبيحٌ ما حمَى الكفر هادم

فأصبحت ترعى سرحة بصريمةٍ
من العزم لم تبلغ مداها العزائم

رميتَ العدا بالأسد في اجم القنا
على الجرد تقتاد الردى وهو راغم

بمثل أُتيِّ السيل ضاق به الفضا
وضاق على الاعداء منه المخارم

يبارين شهب القذف يحملن مثلها
من الحتف للباغي الرجيم رواجم

والقصيدة على طولها لم أجد فيها الا بيتاً واحداً يشير الى نور الدين وأنه في حرب مع الافرنج :

وقد شمر الملْكان في الله طالِبيْ
رضاه بعزم لم تعقه اللوائم

(١) حارم مدينة بالشام غزاها نور الدين مرات ،وحاصرها حتى فتحها .

بجدٍ هو العضبُ الحسامُ وحدُّه
لعادية الاعداء والكفر حاسم

وقاما بنصر الدين والله قائم
بنصرهما ما دام للسيف قائم

وكتب اليه قصيدة هي من غرر الشعر قال العماد « لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها وان خواطر المبتكرين لتقصر على مثلها على ان الشعراء المحدثين ما منهم الا من نظم على رويها ووزنها واستمد خصب خاطره من مزنها » مطلعها :

أجيرة قلبي إن تدانوا وإن شطوا
ومُنية نفسي انصفوني أو اشتطوا

عصيتُ اللواحي فيكم وأطعتم
مقالهم ما هكذا في الهوى الشرط

ولو علموا مقدار حظّي منكم
وهمي بكم زال التنافس والغبط

اذا كان حظي منكم في دنوكم
صدود وهجر فالتداني هو الشحط

ومنها :

ومَنْ عَلِقتْ بالصالح الملك كفُّهُ
فليس له دونَ العُلا والغِنى شَرط

ومن دونه إن رابَ خطبٌ ذوابل
وبيض وجردٌ لا القتادة والخُرط (١)

انارت جدودي مذ علقت بحبله
وكان لها في خطب عَشوائها خبط

---

(١) اقرأ القصيدة فى باب المختارات من شعر اسامة ٠

له نائل يســري الى كــل آمــل
« اذا جيرة سيموا النوال فلم يُنطوا» (١)

على كــل وجــه نضرةٌ من نواله
وفي كل جيــد من صنائعه فرطُ

وكم آملٍ جَعْدٍ أتى اليأس دونه
تلقــاهُ من أنعامه نائل ســبط

وكنت أرجي منــه ما دونه الغنــى
اذا ما غــدا في كفه الرفع والحط

فلمــا ورى زند المعــالي بكفــه
وقال نداه للوفود : الا حطــبوا

نأت بي الليالي عنه لكنَّ جُودَه
اتاني ولم يحجزه نأي ولا شَطُ

كذا الغيثُ يسري طالباً كل طالبٍ
فكلٌ لــه من فيض وابله قسطُ

فأنزرُ حظي من مواهبه الغنــىٰ
وايسرُ تخويلي العشيرة والرهط .

يشير اسامة الى صنيع طلائع والى أياديه في تسفير أهله وعشيرته وكانوا زهاء خمسين بين تابع ومتبوع ، آواهم بعد فتنة الوزير عباس بن باديس وأجرى عليهم الرزق الوافر وهيأ لهم سفينة بعد الحصول على أمان بلدوين الثالث بطلب

---

(١) القتاد شجر صلب له شوك ، والخروط الدابة الجموح تجتــذب رسنها والذوابل : الرماح ، والجرد الخيل القصيرة الشعر .
(٢) الشطر الثاني من بيت لابي العلاء المعري :
لمن جبرة سيموا النوال فلم ينطــو
بظلهــم ما ظــل ينبتــه الخط

من الملك العادل نور الدين زنكي فلما سمع بانتهاب أموال اسامة من قبل الافرنج وقد ذكرت خبرها ، اسف لما حصل لاسامة فأرسل اليه مالاً كان انزر حظه من مواهبه الغنى حباه نقدا وعينا وأنفساً ونوّله ما لم يُنل ملك قط مثل نواله ، كما يقول :

حباني نفوساً لا نفيساً من اللهى (١)
ونولني ما لم يُنلْ ملكٌ قط

وما الناس الا آل رُزّيك إنهم
همُ الذادة الشبان والسادة الشُمط

بنو الحرب في يوم الوغى وبنو الندى
اذا ما بلاد الناس جرّدها القحط

والقصيدة بطولها يجدها القارىء في الديوان ص ٧٨ - ٨٠ وتتمتها في ص ١٧٤ - ١٧٥ .

فأجابه طلائع بقصيدة من نفس الروى والقافية ، وفيها يحرضه على الجهاد ، مطلعها :

هي البدر لكنّ الثريا لها قُرطُ
ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

وفيها يعرض بالهدنة التي عقدها الافرنج مع نور الدين ويحذره من كيدهم وخياناتهم وعدم تمسكهم بالمعاهدات والعهود الا اذا كان فيها مصلحتهم ، ومنها :

فقولوا لنور الدين ليس لجائف الـ
جراحات الا الكي في الطب والبَطُ

---

(١) اللهى بالضم العطايا مفردها لهوة .
(٢) الشمط مفردها اشمط بياض يخالطه سواد كناية عن الكهول .

فدع عنك ميــــلا للفرنج وهدنة
بها أبداً يُخطي سواهم ، ولم يخطوا
تأمل ، فكم شرط شرطتَ عليهم
قديماً وكم غدرٍ به نُقضَ الشرط
وشمر ، فانَّا قد اعنـَّا بكل ما
سألت وجهزنا الجيوش ولم يبطوا
ودونك مجد الدين عذراء زفَّهـا
اليك الوفاء المحضُ والكرم السبطُ
هَديّاً (١) تهادى بين حسن وفائنا
وانعامنا ذا التاجُ زان ، وذا القرط
على انها تشـتطُ إن هي ساجلت
« اجيرة قلبي إن تدانوا وإن شطوا »

اسامة يستلف من التجار على بيت مال مصر :

كان لاسامة راتب في ديوان مصر بصفته أحد امراء الاجناد فاستلف المبلغ من تجار من الشام وكتب لهم رقعة بصدرها هـذه الابيات ، أرسلها الى الملك الصالح قال :

يُلطُ بالدين من مولاه مَسْلَمَة
حتى يخلصـه السلطان والحـكم
لكن مولاي يقضي ما استدنت ولا
يلقى سؤالي منـه الصـدُ والسأم

---

(١) الهدي : العروس .

فكفه البحر لكن موجه بدرٌ
وجوده الغيث لكن وَبْلُهُ نِعَمُ

فأمر الملك الصالح بتجديد التوقيع ووفاء التجار واستمرار الاطلاق ، وكتب اليه ، قصيدة من نظمه وبخطه :

أقسمت بالجود منا انه قسم
وبالمودة منكم انها رَحِمِ

إنا لنحفظ فيكم معْ بعادكم
شريعةً سنها في ديننا الكرم

وكلما رام واشٍ نقض مذهبها
أضحت تؤكده الأخلاق والشيم

لسنا كقومٍ ولا نزري على أحد
وَلُوا ، فلما رجوتم عدلَهم ظلموا

لم يعرفوا لكم قدراً وإن كرمت
أخلاقهم وعرفنا قدر فضلكم

وليس ذاك لشيء غير انهم بالطبع لا تنفق الآداب عندهم

والعرب أقتل داء يهلكون به
ان تملك الحكم في أعناقها عجم

بل عندنا إن سألتم واثقين بنا
في حاجة نِعَمٌ ، جوابها نَعَمُ

اسامة يسترفد طلائع بن رُزيك :

وكتب اسامة الى طلائع بعد النكبة التي نكبه اياها بلدوين بنقضه عهده وانتهابه لعشيرته وأهله ولم يترك لهم من أموالهم ومقتنياتهم الا ما يتبلغون به في وصولهم الى الشام وكان مع والدته من النقد والاموال مايقدر بثلاثين الف دينارا وأشد

ما أحزنه وملأ صدره غيظا انتهابهم لكتبه التي زادت على اربعة آلاف مجلد ، فأرسل الى الملك الصالح هذه الابيات الشاكية ولأول مرة نجد اسامة يفارق اباءه ويخالف طبيعته فيطلب العون ويجهر بالشكوى وهو الذي يرى مجرد الشكوى ذلة وضراعة ، قال :

غرني لامع السراب وهذا البحر دوني عذب المياه شروب
سرت استقرىء المحول وفي أرضي مرعى عين وواد قشيب
سوء حَظي أناى عن الملك الصالح والحظ يَنتهي ويثوب

ومنهـا :

أنا أشكو اليك دهراً لحا عو دي وأعراه فهو يَبْس سَلِيب
وخطوباً رمى بها حادث الد هر سوادي وكلهن مصيب
أذهبت تالدي وطارفيَ الطا ري فضاع الموروث والمكسوب
فهو شطران بين مصرٍ وبحر (١) ذا غريق فيء وذا منهوب
وابائي أراه عن حملة المنّ ضعيفاً وهو القوي الركوب ،

فأجابه بقصيدة طويلة وفيها الدعوة والترحيب ان نشط اسامة للسفر الى مصر ، وفيها حث الامير على تحريض نور الدين لحرب الافرنج وتوحيد الهجوم قال فيها :

يا أخلاي بالشآم لئن غبـ ـتم فشوقي اليكم لا يغيب
غصبتنا الايام قربكم منـا ولابدّ أن تُردَّ الغصوب
ولكم إن نشطتم عندنا الاكرام والرفدُ والمحل الخصيب

---

(١) في ثورة الجند على الوزير عباس بن باديس نهبت دار اعوانه ومنها دار الامير اسامة فنهبوا امواله وخيله وسلاحه ومائتي بقرة والف شاة وغلال هذا ما يشير اليه الشطر الاول في مصر والشطر الثاني كان في البحر حين نهب الافرنج السفينة التي حملت امه وزوجه وأتباعه ، وما زالت صلته بنور الدين جديدة وان كان لم يقصر في مد يد العون له في ادرار الرزق عليه وانزاله داراً وأقطعه أرضا يغلها والواقع تعريض طلائع بنور الدين دافعه الحسد حين يقول :

والعرب اقتل داء يهلكون به أن تملك الحكم في اعناقها العجم

ومنها :

واذا ما حرضت فالشاعر المفلـ ـقُ فيما تقـوله والخطيب
واذا ما أشرت فالحزم لا يُنكر ان التـدبير منك مُصيب
قصدنا ان يكون منا ومنكم أجـل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضـاق بأدناهم الفضـاء الرحيب

وليس ما قدمته من الشعر هو كل ما كان من المراسلات بين اسامة وطلائع بل الاكثر هو الذي لم اقتبس منه أو أشير اليه فقد استمرت المراسلات بينهما زمنا طويلاً الى أن قتل بمؤامرة من قبل الخليفة العاضد الذي تزوج ابنة طلائع وبرغم هذه الصلة وبرغم اخلاص طلائع للمذهب الفاطمي وصدقه في الخدمة وجهاده للافرنج وحب الناس له لما رأوا من عدله واصلاحاته كل هذا لم يمنع الخليفة من اغتياله ليعاني بعده استبداد شاور وضرغام وخياناتهما ، واستعانتهما بالافرنج ولم يكن الخليفة بأحسن منهما سريرة حتى قضى أسد الدين شيركوه وصلاح الدين على الحكم الفاطمي .

وطلائع بن رُزِّيك من أصل أرمني عراقي كان متحمساً للمذهب الفاطمي انفرد بحكم مصر بعد الوزير عباس وبعد ثورة الجند عليه ، أخلص في الجهاد ولم يهادن الافرنج كانت اساطيله تغزو الساحل الشامي وجيوشه البرية تحارب الافرنج في قطاع غزة وعسقلان وغيرها ، فقد اسامة بقتله صديقاً محباً براً به تأتيه هداياه وأمواله من غير طلب وقد ازدهرت الآداب مدة حكمه وقصده الشعراء وازدحموا في بلاطه .

ولاسامة مراسلات نثرية وشعرية كثيرة مع أعيان البلاد الذين عرفهم في اسفاره وهجرانه فممن كاتبهم : الوزير نظام الدين في مصر تبادلا الرسائل والقصائد منها في صدر رقعة :

نظـام الـدين لا سقيا لخطب
رمانا بالنـوى بعـد اجتمـاع

عـدا حتـــى على حسن اصطباري
وضَـــنَّ عليَّ حتـــى بالوداع

ولو أمَّلْتُ أن القـــاك حتـى
أبثـــك مضمر القلب الشـعاع

لسـرتني الامـاني أو لسـرت
جوى قلبي لبعـــدك والتيـاعي

وكتب اليه أيضاً أبياتا منها :

وما سكنت نفسي الى الصبر عنكم
ولا رضيتْ بُعـد الديار من القرب

ولكـــنَّ أيامي قضـت بشـتاتنا
ففـارقكم جسـمي وجاوركم قلبي

ولو جمعتنا الـدار بعـــد تفرق
لكنتم من الدنيـا ونعمتها حسـبي

وكتب اليه :

نظـــام الدين كم فارقت خِـلاً
وكم صَلِيتْ حشاي لظى اشتياقي

فلم أجزع لِفجْئَـات التنـائي
ولم أفْـرَق لروعـات الفـراق

وها أنـذا لبعـــدك إلْف هَمٍّ
تفيض لـه النفوس من المـآقي

أمنّي قلبـيَ الخفـاقَ شـوقاً
اليـك بقرب أيام التـلاق ،

وكتب الى السيد النقيب ضياء الدين نقيب الموصل وكانت بينهما مراسلات ومساجلات شعرية ، يعتذر بهذه الابيات اليه لتأخير كتبه عنه ، والكتاب في ورق أصفر .

قَصَّرتُ في خدمي تقصير معترف
وما كذا يفعلُ الاخوانُ والخدمُ

حتى تعصفر لون الطرس من وجَلٍ
فانِ صفحتَ جرى في وجنتيه دمُ

ولو تجافت لي الايام عن وطري
لناب عن قلمي في سعيه القدم

وبعد عذري فقد اقرحت من أسف
جفني وأدمى بناني بعدك الندم

اطعت حكم الليالي في فراقيَ من
« وجداننا كل شيء بعده عدم »

لمْ لا تصاممت عن داعي الفراق وما
بالي صَلَيْتُ لظاهُ ، وهو يحتدم

فانِ تقلني الليالي عثرتي وأفز
بالقرب منك فميعاد اللقّاء الرَّدَم [٢]

وكتب اليه ضياء الدين نقيب الموصل :

أبا المظفر أشواق مبرحة   وما استقلت بكم للبين أحمال

---

(١) ضمن بيت المتنبي في سيف الدولة .

يا من يعز علينا ان نفارقهم   وجداننا كل شيء بعدكم عدم

(٢) الردم موضع بمكة .

وأنتم حيثُ إطـلالِيَّ بينـكم
وما نأت دار من يُبـديه اطلال

فكيف بي إن غدا الهرماسُ مشربكم (١)
وحال من دونكم مرتٌ وأحبـال (٢)

اذاً تخبرك الركبـان عن كبـدٍ
تدمىُ وعينٍ لها سَـحٌ وتهمـال

وعن مودع قلب قـد رحلت بـه
يعتـاده لكمـا همٌ وبلبـال ،

فأجابه اسامة :

يا خـيرَ من علقت كفي مودتـه
وصُدِقَت ليَ في عَليـاه آمـال

ماذا أقول ، وقلبي قد تخلف عن
جسمي وزُمّتْ لوشك البين أجمال

وكم فجعت بردعات الفـراق ولا
كهـذه لم يرعني قطُ ترحـال

وقبل وشك النوى قد كنت أحذرها
كأن ذاك التـوقي قبلهـا فال

فإن تمادت بنـا أيام فرقتنـا
وكل ساعات بعدي عنـك آجـال

---

(١) الهرماس نهر ٠

(٢) مرت" : المرت المفازة بلا نبـات أو ارض لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها ، الحبل من الرمل المجتمع الكثير العالي ٠

فاحفظ فؤاداً مقيمـاً في ذراك ولا
تُسلمه للشوق ان الشوق قتـال

وكتب الى الشريف النقيب ضياء الدين نقيب الطالبيين بالموصل :

ضياء الـدين ما شـوق دعـاني
فاسَمَعني بمصرَ من العـراق

بمحـدودٍ ، فأشرحـه ولا في
قوى الاقـلام تسـطير اشتياقي

ولكنـي سأرجئـهُ وأرجـو
مشـافهتي بـه عنـد التـلاقي

اذا ما كنت جارك ذا اشـتياق
اليـك فكيف بي بعـد الفـراق

ولي شـكوى من الايام أضحت
لهـا نفسي تردّد في التـراقي

اكلف من أذاهـا فوق وُسـعي
وأحمـل كارهـاً غير المطـاق

ويلزمني الاباء الصبرَ فيمـا
ينـوب ، وطعمـه مرّ المذاق

ومَغْفُورٌ لهـا ، إن أسعفتني
بقـربك ما لقيتُ ، وما الاقـي

وكتب اليه القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد بن علي بن الزبير من مصر افتتحه بهذه الابيات :

أأحبابنـا ما مصرُ بعـدكم مصرُ
ولكنهـا قفرٌ اليـكم بها فقـر

وإن تخلُ يوماً بُقعةٌ من شُخوصكم
فلم يخلُ يوماً من مودتكم صَدْرُ

وإن تُنئكم عنا المهامه والسُرى
تقربكم منا المودة والذكر

رحلتم فعاد الدهر ليلاً بأسره
وليسَ له الا بأوْبتكم فجر

تُرى فاضَ ما القى من الهمِّ والأسى
لبعدكم فاسودَّ من صبغه الدَّهرُ

وكيف الوم الليل إن طال بَعْدكم
وقد غاب عني منكم الشمسُ والبدر

فكتب اليه اسامة هذه الابيات جواباً عنها :

تُذكِّرُهُ أحبابه الأنجم الزهر
فيا ويحه ماذا به صنَع الذِّكرُ

همُ مثلُها : بعداً ونوراً ورفعةً
ولكنْ لها إن شُبِهَتْ بهم ، الفخر

وقد كنت أشكو هَجرهم في دنوهم
فمن ليَ لو دام التداني والهجر

سقى مصرَ جودُ الصالح الملْكِ إنه
هو الوابل المُحيِّ البرية لا القطر

ففيها كرام أسعروا بجوانحي
بعدهم جمراً به يُحرَقُ الجمر

ومن عادتي الصبر الجميلُ وليس لي
على بعدهم لا درّ درُّ النوى صبرُ

اذا ما « أمين الدين » عَنَّ ادّكاره
ذهلت كأني خامرتْ لبيَ الخمر

يُذكّرُنيه الفاضلون وإن غدوا
جداول إن قيسوا به وهو البحرُ

اذا حضر النادي فرضوى رجاحةً
وإن قال فالدُّر المنظم والسحر

ويعجبني منه تَدفُقُ علمه
وأعجب منه كيف يجمعه صدر

تناءتْ بنا الداران والود مُصْقِبٌ (١)
فللقرب شطرٌ والبعاد له شطر

كأن الليالي اذ قضت بفراقنا
ففي جورها إن ليس تجمعنا مصرُ

أحُلُّ بها إنْ غابَ عنها وإن أغِبْ
يحلُّ بها فاعجب لما صنع الدهرُ

فليت تلاقينا ، ولو بعض ساعة
يَحمُّ وشيكا قبل أن ينفذ العمرُ

لأحضىُ برؤياه واشكر مَنَّهُ (٢)
وإن لم يقم عني بواجبه الشكر

---

(١) أصقبت دارهم دنت وقربت ·
(٢) المن : الانعام ·

وكتب في صدر كتاب :

لأشكرنَّ اهتمـــاماً منــك يذكرني
في البعـــد حتى كأني مصقب الـدار
بَعُدتُ عنه فما أنكرت خلَّتَـه (٣)
مع التنائي وكم أنكرت من جـــار

وكتب الى ابن عمه الامير ناصر الدين ابي عبدالله محمد بن سلطان حاكم شيزر ، يستعينه في فكاك أخيه نجم الدولة محمد بن مرشد من اسر الافرنج وقد مرَّ خبره والابيات تُعد من أبلغ الشعر وأروعه فلم يحركه الشعر ولم يثر نخوته هذا الدعاء المثير ولا حرك شهامته قول ابن عمه :

أنا ابن عمك فاجعلني بفـك أخي
من أسره لك عبداً ما مشت قدمي
فملك مثلي لا يغلو بمـــا بذل الـ
ـمبتاع فيـــه ولا يُستام بالقيـم

وقوله :

هذا ابن عمك في أسر الفرنج له
حول تجرَّمَ في الاغـلال والظلـم
يدعوكَ ، لا بل أنا الداعي نداك له
يا خير من علقته كفُّ معتصـم ،

لو كان الامير ناصر الدين مُعِماً مخولا لاستجاب لنداء الدم ولكن الام (١) السلجوقية التي غذته غرست في صدره الغلَّ لابن عمه اسامة ولاخوة اسـامة

(٣) الخُلة بالضم الصداقة ، وبالفتح الطبيعة .

(١) هي خاتون بنت تاج الدولة تتش امير حلب وعمها ملك شاه صاحب اصبهان وكانت شديدة الاعتزاز بعشيرتها .

وجعلته يحقد عليهم لما وقر في نفسه ان اسامة يزاحمه على الأمرة ويسعى لخلعه وطرده وكان لهذه الاميرة التركية اليد السوداء في تغير الامير سلطان على ابن أخيه بعد ان كان يحبه ويقدمه على جميع شباب آل منقذ الشجعان ٠

والعربُ أقتل داء يهلكون به
أن تملك الحكم في أعناقها عجم

اسامة يكاتب عماد الدين الكاتب :

كان عماد الدين الاصفهاني الكاتب كثير الاعجاب باسامة لا يفارقه اذا حلّ في الشام فاذا رحل مع الناصر صلاح الدين في اسفاره وحروبه كان يكاتبه ويواصله ويستشيره بأمر من صلاح الدين ٠

وفي شوال سنة ٥٧١ رحل مع السلطان الى حلب فكتب اسامة اليه هذه الابيات :

عماد الدين أنت لكل داع
دعاك لعونه خير العماد

تقوم لنصره كرماً اذا ما
تقاعد ذو القرابة والوداد

قضى لك بالعُلا كرمُ السجايا
وما أوتيت من كرم الولاد

أبثك وحشتي لك واشتياقي
اليك وما لقيت من البعاد

واني في دمشق ومَنْ حوته
لبعدك ذو اغتراب وانفراد

ومثلك إن تطلبه خبير
بهذا الخلق ليس بمستفاد

أنار بك الزمـــان فلا علتــــه
لفقـــد علاك أثواب الحـــداد

وكتب اليه :

يا عمـــادي حين لا معتمـــد وصدى صوتي في الخطب الملم
والـــذي بؤاني من رأيـــه في أعالي ذروة الطـود الاشـم
منـــذ فارقتـك انسي نافـر وسنى صبحي كليل مدلهـم

وفي آخر الرسالة تحية يهديها الى صلاح الدين قال :

خادم المجلس العالي يخدم بالثناء والدعاء ويومي بالتحية من بعيد كما يومي باصبعه الغريق ، وعنده من الشوق مع قرب العهد الى شهي رؤيته ، والوحشة لخدمته ما يعجز الاقلام شرحه ويحرق الطرس لفحه ، وهو ينحرف عن مقـام الاشتكاء الى مقام الدعاء ويرغب الى الله ان يكلأه بحفظه في سفره ومقامه ويجزل حظه من فضله وانعامه :

اسامة يراسل السلطان صلاح الدين :

اذا حلّ السلطان الناصر دمشق كان اسامة من أقرب المقربين اليه يدني مجلسه ويؤنسه ويذاكره ويسمع لرأيه ويشاوره في أمور الحرب واذا مضى الى الغزو كاتبه وأخبره بوقائعه وكان مشغوفا بقراءة ديوانه وتأمل أفكاره واستحسان قصائده ولا يفارقه ديوانه والمكاتبات بينهما متداولة بقلم ابن العماد الاصفهاني ، واسـامة الـذي كان يتبرم من ثقـل الايام ويكره ان يدعى لـه بطول العمر وكان يقول :

واذا دعوت بطول عمـرٍ لامرىء
فاعلم بانك قـد دعوت عليـــه

صار يقول :

حمدت على طول عمـري المشيبا
وإن كنت أكثرت فيـــه الذنوبا

لأنـي حييـت الى ان لقيـتُ
بعـد العـدو صـديقاً حبيبـا

قال العماد الكاتب وصلت من اسامة الى الملك الناصر صلاح الدين في صفر سنة اثنتين وسبعين (يريد ٥٧٢ هـ) قصيدة فقال لي القاضي الفاضل خذها واوردها في الخريدة والجريدة ، وهي[1] .

لا زلت يا ملك الاسلام في نعم
قَرِينُها المسعدان : النصرُ والظفر

تردي الاعادي وتستصفي ممالكهم
وعونُك الماضيان : السيفُ والقدرُ

أعدت للدهر أيام الشباب وقد
أظله المهرمان : الشيب والكبرُ

وجاء غيثُ نداك المسلمين فمن
سحابه المغنيان : الدُرُ والبِدَرُ

وسيرة عدل في الانام كما
قضى به الصادقان : الشرع والسُوَرُ

ففق بنصرٍ على الكفار انهم
يُرديهم المرديان : الغدر والاشرُ

ثناهم إذ رأوا اقبال ملكهم
اليهم المزعجان : الخوف والحذر

وما الفرار بمنجيهم وخلْفَهُمُ
من بأسه المدركان : العمرُ والبتر

وسوف يعفو غداً منهم بصارمه
وجيشه المخبران : العين والاثر

---

(١) مما روي في الخريدة الجزء الاول ص ٥٤٥ قسم الشام .

ولَوْ رَقَوْا في ثُرى ثهلان اسلمهم
لسيفه العاصمان : الحِصنُ والوزر

قضى بتفضيله عمن تقدمه
ما استودع المُخبران : الكتبُ والسِيرُ

مكارم جُمِعَتْ فيه توافق في
تفضيلها الاكرمان : الخُبْرُ والخَبَرُ

فاسلم وعش وابق للاسلام ما
جرت الافلاك والنيران : الشمسُ والقمر

بنجوة من صروف الدهر يقصر عن
منالها المفسدان : الخطب والغِيَرُ

وكتب في آخر الكتاب معتذراً عن تخلفه من اللحاق بالناصر صلاح الدين « المملوك لبعده عن خدمة مولاه قد انكر الزمان فما هو الذي كان وأوهت الايام ما ابقته من يسير قوته ، واسترجعت ما اعارته من ضعيف نهضته ، واذاقته طعم الاغتراب وادخلت عليه الهمّ من كل باب ، فهو في زاوية المنزل عن كلمات الناس فيه بمعزل :

أنا في أهل دمشق وهمُ
عدد الرمل وحيدٌ ذو انفراد

ليس لي منهم اليف وَشَجَتْ
بيننا الالفة أسباب الوداد

يحسبوني إن رأوني وافدا
قد اتاهم من بقايا قوم عاد

وانفرادي رَشَدٌ لي والهوى
أبداً يصرف في سبل الرشاد

وسجل له العماد : رسالة كتبها جوابا على كتاب بعث به اليه القاضي الفاضل كبير كتّاب عصره ورئيس وزراء صلاح الدين ، اتخذها العماد نموذجا لنثره بعد ان اختار له كثيراً من شعره ، وقد بدأ بتسجيل رسالة القاضي الفاضل : قال العماد : « وأردت ان اوردَ من نثره ما يُزهرُ فجره ويبهر سحره فوجدت له جواب كتاب كتبه القاضي الفاضل ابن البيساني اليه من مصرَ عند عودته اليها ونحن بدمشق سنة احدى وسبعين واثبت اولا الرسالة الفاضلية وهي أدبية غريبة وصنيعة بديعة ، جامعة للدرر لامعة بالغرر تجدها[1] .

قال العماد : وجواب مؤيد الدولة قرأته عليه فسمعته :

وصل الكتاب انا الفداء لفكرة
نظمت نفيس الدر فيه اسطرا
وفضضته عن جَوْنَةٍ فتأرَّجتْ
نفحاته مسكاً وفاحتْ عنبرا
وأعدتُ فيه تأملي متحيراً
كيف استحال اللفظ فيه جوهرا

الخادم يخدم المجلس العالي الأجلى الاوحد الصدر الفاضل ، فضّلهُ الله برفع درجاته في الجنان كما فضله بمعجز البلاغة والبيان ، وبلّغهُ من الخيرات أمله وختم بالحسنى عمله وجمّل ببقائه نشره ويراوحه ، ودعاءٍ لا يحجب عن الاجابة صالحه ، وثناء يضيق عن حصر فضائله مادِحه ، وما عسى ان يقول مطريه ومادحه والفضل نغبهً من بحره الزاخر وقطرة من سحابه الماطر ، تفرّد به فما له فيه من نظير وسبق من تقدمه في زمانه الاخير ، فتَّق من البلاغة اكماماً

---

(١) في الخريدة الجزء الاول ص ٥٣٨ ـ ٥٤١ .

تَزيَّنَتْ الدنيا منها بالاعاجيب ، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تتلى في المحاريب اذا استنطقت ازدحمت عليها العقول والاسماع ، ووقع على الاقرار بأعجازهـا الاتفاق والاجماع ، فسبحان من فضله بالبلاغة على الانام ، وذلل له بديع كلام ما كأنه كلام ، تعجز عن سلوك سبيله الافهام وتحار في ادراك لطف معانيه الاوهام وهو سحرٌ لكنه حلال ، ودُرٌ الا ان بحره حلوٌ سلسال ، ولا يظن أدام الله بقائه الزمان وأهله ويسرّ له اظهار مكتوم فضله ، ان الخادم يسلك سبيل النفاق في مقاله ولا اعارة شهادة في وصف كماله ، لا والله ما ذاك مذهبه ، ولا هو مراد المجلس العالي ولا أرَبُه ، ولكنها شهادة ولا يحل كتمها ، وقضية جرى بقول الحق فيها حكمها ، ولولا ان الخادم قد بقي فيه اثر من اقدام الشباب لأحجم عن اصدار كتاب أورد جواب لكنه على ثقة من كريم مُساهلة المجلس العالي وحسن تجاوزه ويقين ان فضله جدير بستر نقص الخادم وسد معاوزه ، وهو يضرب ما عنده من الشوق الى كريم رؤيته والوحشية بمحبوب خِدمته ويقتصر على ما قاله زهير :

ان تُمسي دارهم مني مُبَعَّدَةً

فما الأحبة الا همْ وإن بعدوا

فأما ما أنعم به من ذكر الخادم في مطلعاته فهو كذكر موسى أخاه هرُون عليهما السلام في مناجاته ولا سواء موسى من ذكر شقيقه ، والمجلس العالي ذكر رفيقه ، وهذه اليد البيضاء مضافة الى سالف أياديه مقابلة بالاعتراف بالمنّة لمناعيه ، فلقد شرفه بذكره في ذلك المقام العالي ، وإن كان لا يزال على ذكر الأنعام المتوالي تقريب رِقّه ، واكرامُه قد شرفاه وأنعامه قد أغناه عن الخلق وكفاه إن سأله أجاب سؤاله بما يحقق رجاءه وآمالَه ، وإن أمسكَ عن غنى فضله بفضله ، فاجأه بتبرع مواهبه وبذله ، فالخادم من تشريف رِقّه ذو تاج وسرير ، ومن غزير أنعامه في روضة وغدير ، ذلك ببركات المجلس العالي ويُمن نقيبَته وجميل رأيه في الخادم وحسن نيته ، ولكنْ يشوبُ ما هو فيه من انعام لم تبلغه أمانيه ، أسفٌ قد اقضّ لينَ مهاده ، وسلك من القلب حَبَّةَ سواده ، على ذاهب عمره

وقوة أسْره اذ لم يكن أبلاها في خدمة مالك رِقّه ، وبذل رأسه بين يديه إبانة عن صحة ولائه وصدقه ، والخادم يتسلى عما فاته من الخِدَم في المهم بخدمته بصالح دعائه في الليل المدلهم ، والله سبحانه يتقبَّلُ من الخادم فيه صالح دعائه ، وينصره على جاحدي نعمائِه بمحمد وآله .

اما ما أنعم من ذكر اصغر خدمه مُرهَف [1] فهو يخدم بتقبل قدمه والخادم يقول ما قاله أبو الفتيان ابن حيوس [2] عن خدمة أبي الحسن رحمه الله لحمود ابن صالح :

على أنه لا فُلَّ غربُ لسانه

مدى الدهر لا يحتاج مني مترجما

وهو يقوم بالجواب عن شريف الاهتمام وجزيل الانعام وأمّا ما تطوّل من ذكر كتاب « العصا » [1] وشرفه حتى توهم انه أحسن فيما صنَّفه ، وعند وصوله من ديار بكر لا يُلقي عصا تسياره الا بمصرَ يقتص اثر عصا الكليم الى جنابه الكريم الا انه آية اقراره بالربوبية لفضله .

وأفضاله ساجد سجود الشجرة لتعظيمه واجلاله ، يتلقف من انعامه حسن التجاوز عن نقصه ويعود بكرمه عن منافثة علمه وفحصه وتشريف الخادم ولو بسطرٍ واحدٍ عند خلو البال والفراغ من مبهم الاشتغال يرفع من قدره ويوجده انه بالمكان المكين من حسن ذكره ورأيه أدام الله أيامه »

---

(١) مُرهَف بن اسامة . وكان من جلساء صلاح الدين وفرسانه .

(٢) محمود بن نصر بن صالح بن مرداس صاحب حلب .

(٣) أبو الحسن يريد علي بن منقذ الملقب بسديد الملك جد اسامة .

(٤) محمد بن حيوس الغنوي أحد شعراء الشام المجيدين كان منقطعا الى بني مرداس ولد بدمشق سنة ٣٩٤ وتوفي سنة ٤٧٣ .

(١) كتاب العصا كتاب صغير أشبه برسالة أو مقالة الفه اسامة بن منقذ كان القاضي الفاضل قد رأى نسخة منه فأطراه وأحب ان يتملاه فوعده اسامة ان يقدم نسخة اليه عند وصول النسخة الاصلية من ديار بكر .

وبعد : فاني لم أرَ حاجة لتسجيل رسالة القاضي الفاضل وهي تستحق ان تكتب بماء الذهب وفيها من الادب والتوقير لاسامة ما فيه شاهد على علو منزلته ومكانته الرفيعة لدى الكبراء والامراء والادباء وعامة الناس ، لأنه بقية من سيوف الجهاد وصفحة من كتاب الفروسية العربية والجلاد ، وديوان أدب وقصص وذكريات وسلالة من بيت كريم قال فيهم :

قومٌ اذا عُدَّتْ مناقبهم
كادت لهنَّ الشمسُ تنكسف
لو حاولوا الافلاك ما قَصُرت
عنها أكفُهُم ولا ضعفوا
لا عيبَ فيهم غير أنَّهمُ
في جودهم لعُفاتهم سَرَفُوا
أُثْني بِعلمي فيهُمُ وهمُ
فوقَ الثناءِ وفوقَ ما أصِفُ

مُنتخباتٌ مِنْ شِعْرِهِ

قدمت الكثير من شعره لأني أرى سيرته وشعره متلازمين وأرى ملامح شخصيته مفتاحها شعره ، وقد استشهدت بصور كثيرة منه وفي أغراض شتى في علاقاته الرسمية وصداقاته الشخصية ، في نوازعه وخلجات صدره ، في سلمه وحربه ، في أيام عسره ويسره ، في ملله من العيش وسأمه من الحياة في شبابه وشيخوخته ومع ذلك فبقي الكثير من هذا الشعر يصلح أن ينشر مع سيرته لانه مكمل لها ، لذلك آثرت ان اختار بعض المنتخبات من ديوانه وشعره في الواقع كله منتخب وقد اصطفاه ونخله بنفسه وهو القائل عنه :

كلما رددت في شعري النظر
بان ضعف العيّ فيه ، وظهر
ليس يرضيني ولا يمكنني
جحد ما قد شاع منه واشتهر
فأجيل الفكر في تقليله
فاذا قلّ اختصرت المختصر
وبه فقر الى ذي كرم
إن رأى ما فيه من عيب ستر

آثرت ان اقتبس بعض القصائد والمقطعات استكمالاً لتلك الملامح التي رسمت خطوطها العريضة واضفيت عليها الكثير من الظلال الزاهية من شعره وفي الديوان كما قلت قصائد تفيد الدارس وتفتح أمامه أفاقاً واسعة للبحث والمعرفة والاستنتاج لذلك العصر الذي عاشه اسامة . ولو ان ديوانه ميسرٌ للناس لأحلت عليه الا انه قد اصبح نادراً وغير موجود الا في المكتبات العامة أو الخاصة القليلة والناس ما زالت الكثرة الكاثرة منهم لا يعرفون مراجعة المكتبات العامة .

واذن فاقتباسي لشعره فيه فائدتان مزدوجتان : خدمةٌ لسيرته وخدمةٌ للقراء بنشر عيونه .

قال : واصفاً وحدته وصبره :

أصْبَحْتُ كالنسر خانتـه قوادمُه
لا تستقلُ جنـاحاه اذا نهضـا

أروحُ من نائبـات لا تَغِبُ ومن
هموم عيشٍ كما لا اشتهي غرضـا

لكنني قد حلبت الدهر اشـطرَهُ
فما يراني لخطب نابَ مُنْقَبِضَا

القىُ الحوادثَ بالصبر الجميـل و
مقـدور القضا بتسليم لـه ورضا

علماً بتغيير أحوال الزمان فـكم
رأيتُ مُبْرَم أمرٍ عاد مُنْتَقِضا

وقال في التجمل واحتمال الاحداث :

استر همومك بالتجمـل واصطبر
ان الكـريم على الحوادث يصبر

كالشمع يُظهـر نوره متجمـلاً
خوف الشمـات وفيـه نار تَسْعر[(١)]

وقال في المعنى نفسه :

الـقَ الخطـوبَ اذا عرضـن
بقلـب مُحتَسِـب صـبُوَر

فَسَيَنْقَضـي زمن الهـمو
م كمـا انقضى زمن السـرور

(١) مما روي من شعر اسامة في المسالك ج ١ : ٥٠٨ .

وقال :

تلقَّ ذوي الحـاجات بالبشر إنَّهُ
الى كُرَماء الناس أشهى من الجَدا

عسى من يرجّى سيبَكَ اليوم يغتني
فتُصْبِحَ فيمن ترتجى سَيْبَهُ غدا

وقال :

ما كفَّ كفيَ عنْ جودي بموجودي
نوائبٌ وملمـات لَحَتْ عودي

في اليُسرِ أبذل ميسوري وابذل في
عسري لطالب رفدي شطر موجودي

وقال :

نزهت نفسي عن مَنِّ الرجال وإن
علَتْ بهم رتبُ الدنيا وإن شمخوا

اذا المطامع قادتنـي الى طمـع
يزري فماذا أفادَ الشيب والشَيَخُ

وقال :

أيحسـبُ دهـري اني جزعت لما نال نشـبي وانتهب
فقـد اخلصتني أحـداثُه وبالنار يبـدو خلاص الذهب

وقال :

لأصبِرَنَّ لدهـري صبرَ مُحتسب
حتى يرى غيرَ ما قد كان يحسبُهُ

واستميت لمـا تأتي الخطـوب بـه
ليعـلم الخطب أني لست أرهبـه

إن غالبتني على وهري نوائبـــه
فحسن صبريَ في اللأواء يغلبـــه

او أبْعَدَتْني عن أهلي وعن وطني
فأبعدُ الفرَجِ المرجُوِّ أقربُه

والدهر يهدم ما يبني ويُخمِدُ ما يوري ويبعد ما يدني تقلبه

وفي الفراق قال :

لا تستَعِر جلدا على هجرانهـم
فقواك تضعف من صدود دائم

واعلم بأنك ان رجعت اليهـم
طـوعاً والا عُدْتَ عودة راغِم

وقال :

شكا ألمَ الفراق الناسُ قبلـي
ورُوِّع بالنوى حـيٌّ وميْتُ

واما مثلَ ما ضمِّتْ ضلوعي
فـاني ما سـمعتُ ولا رأيت

وقال :

انظر الى حسن صبر الشمع يظهرُ
للرائين نوراً وفيـه النار تستعر

كذا الكريم تراه ضاحكاً جَذِلا
وقلبُه بدخيـل الهمِّ منفطـر

وقال في الاباء :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جَذِلٌ
طَلْقٌ وقلبي كئيب مُكمـدٌ باك

وراحة القلب في الشكوى ولذتها ،
لو امكنتْ ، لا تساوي ذلةَ الشاكي

قال اسامة في كتاب الاعتبار :

« ولم أدر ان الكبر عام يعدي كل من أغفله الحمام ، فلما توقلتْ ذروة التسعين وابلاني مرُّ الأيام والسنين صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالارض ودخل من الكبر بعضي في بعض ، حتى أنكرت نفسي وتحسرت على أمسٍ قلت في وصف حالي » :

لما بلغت من الحياة الى مدى
قد كنت أهواه تمنيت الردى [1]

وقال في اصطراع الاقوياء :

شاهدت نملاً قد تجاذب زهرة
ذا قد تملكها وهذا يَسْلِبُ

مثل الملوك تجاذبوا الدنيا فما
حصلت لمغلوب ولا من يغلب

وقال يا آلف الهم :

يا آلف الهم لا تقنط فأيأس ما
تكون يأتيك لطف الله بالفرج

ثق بالذي يسمع النجوى ويُنجي من
البلوى ويستنقذ الغرقى من اللجج

وقال :

الضُرُّ في أيامنا هذه
كالليل يغشى سائر الناس

---

(١) الاعتبار ص ١٦٠ ــ ١٦١ مرّ ذكر الابيات .

وكلهم راضٍ وفوق الرضا
بِبُلْغَةِ الطاعم والكاس
ودون ما يرجونه مانع
يلقى وجوه الناس باليأس

هذه بعض المقطعات وهي في ديوانه كثيرة ومنثورة في مؤلفاته ، ومنها :

قوله :

إن خانَ عهدك مَنْ تَوَدُّهْ
ونأى فلا يحزنك فقده
واهجره هجرك من تُحب
اذا قضى وحواه لحده

واذا سئلت علام تهجره فقل ما صحَّ عهده
وعلام أرغب في ملول خائن قد بان زهده
واحذر مقالة من يقول : الحبُّ تخضع فيه أُسده
إن راع قلبك هجره فغداً يلين له أشده
والصبر سُمٌّ ناقعٌ لكنَّ منه يشار شهده
واذا صرفت القلب فهو كأسٍ لا يُستطاع رده
غالطتَ نفسك فيه والمشغوف يَعْزُب عنه رشده
وظننته قصدَ ازديارك في الهوى وسواك قصده
وأنا الفداء لباخلٍ بالوعد ، والاحلام وَعْدُهُ
أرضى بباطله ويقنطني تجهمه ورده
لدن القوام يُعلِّم الاغصان كيف تميس قده
يفترُّ عن عذب المقبل يُضرِم الاحشاءَ بَرْدُهُ
لاشك لؤلؤ ثغره من عقده أو منه عقده

واختار له صاحب المسالك أبيات من القطعة التالية (المسالك ١٠ : ٥٠٢) وهي من الرجز في الخيال العائد :

ما هاج هــذا الشوقَ غيرُ الذكْرِ
وزورة الطيف سرى من مصْــر

من بعــد طول جفــوة وهجــر
كم خاض بحــراً وفَلا كبحــر

يَجوبُه الليــــلَ حليف ذُعْر
حتى أتى طلائحــاً في قفــر [١]

قد انطوين من سُرى وضُمر
حتى اغتــدين كهــلال الشهر

يحملن كــل ماجــدٍ كالصــقر
كأنــه مُهنَــــدٌ ذو أثْــرِ

بعيــد مهــوى همــة وذكــر
للجــد يسعى لا لكســب الوفــر

فأمَّ رحلي دون رحــل السَّفر
يُذكِرُني طيب الزمــان النضــر

واهــاً لــه من زمن وعمـــر
ما كــان الا غــرة في الدهــر

اذ الصِّبا عند التصــابي عذري
وغــاية المنيــة ام عَمْــرو

غراء أبهى من ليــال البــدر
بعيــدة القرط هضيم الخصــر

(١) طلائح جمع طليح وهو المهزول ٠

أحسن من شمس بغب قَطر

تلعب بالالباب لعب الخمر

تبسم عن مثل نظيم الدُر

كأنه لآلىء في نحر

اذا انثنت قبل نَموم الفجر

تنفست عن مثل ريا الزهر

كأن فاها جونة [(١)] لعطر

وإن مشت مثقلة بالبُهرِ [(٢)]

مشي النسيم بمياه الغُدْر

رأيت سحراً أو شبيه سحر

راكد ليل تحت شمس تسري

ضدان فيما اتفقا لأمر

يا لائمي ان الملام يُغري

هيجت أشواقي ولست تدري

لا بك ما بي من جوى وفكر

اذا أراح الليل همَّ صدري

أبيت أرعى كل نجم يسري

كأنما حَشِيَّتي من جمر

كيف العزاء وصروف الدهر

تقرف قرحي وتهيض كسري [(٣)]

كأنها تَطْلبني بِوَتر

والصبرُ لو خبرته كالصبر ،

---

(١) الجونة السفط . (٢) البهر التعب وانقطاع النفس من الاعياء .
(٣) تقرف تنكأ وتفرع .

وقال : من قصيدة كتبها الى الملك الصالح قدمها بهذه الابيات الغزلية :

ما خَطَرَ السلوانُ في بالي
فما الذي أطْمَعَ عُذالي

وجدي بهم في اليوم كالأمس ما
غيَّرهُ ما حال من حالي

أهوى وما حظي منهم كما
أهوى ولا قلبي بالسّالِ

لجاجة في الحب ما تحتها
سوى صباباتي وبلبالي

لي القلى منهم ومن لائمي
فيهم طويل القيل والقال

وما ابالي بالذي نالني
لو انثني منهم على بال

يا قمراً في غصن بانٍ على
نقا مَهُولٍ غير مُنهال (١)

ميَّلكَ الواشي فما حيلتي
في أهيف القامة مَيَّال

مُستهترٍ بالهجر القاه في الا
حلام وهو المعرض القالي

ناظره الفتاك لا ناظر
على تعديه ولا والي

---

(١) النقا من الرمل : الكثيب أو القطعة تنساب محدودبة .

يحـكم في أرواحنـا طـرفه

حكم أبي الغارات في المال [1]

وقال والشيء اذا زاد تناهى :

قل لمن أوحش بالهجر جفوني من كراها
والذي أوهم عيني ان في النوم قذاها
يا ملولاً فلما استرعى عهوداً فرعاها
يا ظلوماً كلما استعطفته صدَّ وتاها
زدت في تيهك والشيء اذا زاد تناهى
تنقضي دولة الحسن وإن طال مداها
راحتي لو سمع الشكوى اليه ووعاها
غير ان الصُّمَّ لا تسمع نجوى من دعاها
وهو لو نادى عظامي رِمَّةً لبَّى صداها
مُتلِفٌ بالهجر نفسي واليه مشتكاها
مُستقلٌ كل ما تلقاهُ فيه من أذاها

وقال سر المحب علانية :

يا سائلي عمَّا بيه سرُّ المحب علانية
انظر الى جسدي لتخبرك العظام العارية
من مهجة بالهجر قد تَلِفَتْ وعين جارية
وصبابة لا استطيع أبثُّها هي ما هيه
ولِمن الوم ، وانما عيني عليَّ الجانيه

(١) أبو الغارات يريد به ابن رُزيك .

وقال [1] :

ولوا ، فلما رجونا عدلَهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مرَّ يوماً بفكري ما يُريبهمُ
ولا سعت بي الى ما ساءهم قدمُ
ولا اضعتُ لهم عهداً ولا اطَّلعتْ
على ودائعهم في صدري التُهَمُ
فليتَ شعري بما استوجبتُ هجرهم
ملُّوا ، فصدهم عن وصْليَ السأم
حفظتُ ما ضيَّعوا ، أغضيْتُ حين جَنوا
وفيتُ إذ غدروا واصلت اذ صَرموا
محاسني مُنذ ملوني بأعينهم
قَذىً ، وذِكريَ في آذانهم صَمَمُ
وبعدُ ، لو قيل لي : ماذا تحبُ وما
مُناكَ من زينة الدنيا ؟ لقلتُ همُ
همُ مجالُ الكرى من مُقلتيَّ ، ومن
قلبي مَحلُّ المنى جاروا أو اجترموا
تبدَّلوا بي ، ولا ابغي بهم بدلا
حسبي همُ انصفوا في الحكم أو ظلموا [2]

وقال [3] : وفيها يتحدث عن وفائه لأحبته وصبره على النكبات التي لم تفل من عزمه ولم تضعف من بأسه ، فكم نكبة ظن العدا انها القاضية فاذا بها تسمو به وتعلي بين البرية شأنه ، فما هو ممن يستكين لحوادث الدهر ولا يملأ الهول

---

(١) وقد رويت القصيدة في الخريدة ج ١ : ١٠٧ ، ومعجم البلدان ٥ : ١٠ والروضتين ١ : ١١٣ .

(٢) تمام القصيدة ص ١٤٦ من الديوان وقدمنا قسماً منها في أسباب هجرته الى مصر .

(٣) رويت هذه القصيدة في تأريخ دمشق لابن عساكر ٥ : ١٧٤ .

المخوف جنانه ، والدهر وإن غال وفره وما جمع من مال الا انه لم يغل ذكره ولم يخمل صيته وقد شاع بين الناس كرمه والثناء عليه :

اليكِ فمـا تثني شؤونك شأني
ولا تملك العِينُ الحسان عنـاني

ولا تجزعي من بغتة البين واصبري
لعلّ التنـائي مُعْقِب لتـداني

ولا تحملي همّ اغترابي فلم أزل
غريب وفـاءٍ في الورى وبيـان

وفياً ، اذا ما خـان جفنٌ لناظرٍ
ولـم ترع كفٌ صحبةً لبنـان

فللأسْدِ غيلٌ حيثُ حلّتْ وانمـا
يهاب التنـائي قلبُ كل جبـان

ولا تسـأليني عن زمـاني ، فانني
أُنزِه عن شكوى الخطوب لسـاني

ولكن سـلي عني الزمـان ، فانه
يُحدث عن صبري على الحـدثان

رمتني الليـالي بالخطوب جهـالةٌ
بصـبري على ما نابني وعـراني

فما أوهنت عظمي الرزايا ، ولا لها
بحسن اصطباري في المُلِمِ يدان

وكم نكبة ظن العـدا انها الردى
سَمَتْ بي ، وأعلتْ في البرية شاني

وما انا ممن يستكين لحادث
ولا يملأُ الهولُ المخوف جَناني

وإن كان دهري غال وفري فلم يغل [1]
ثنائي ولا ذكري بكل مكانِ

وما كان الا للنوال وللقرى
وغوثاً لملهوف وفدية عان [2]

حمدت على حالي يسارٍ وعسرةٍ
وبَرّزتُ في يوميْ ندى وطعان

ولم أدخر للدهر، إن ناب أو نبا [3]
وللخطب الا صارمي وسناني

لأنّ جميلَ الذكر يبقى لأهله
وكل الذي فوق البسيطة فانِ

وفي هذا المعنى ـ قال :

كم تَغُضُّ الأيام منّي وتأبى
همتي ان تنال مني مناها

أنا في كفّها كجذوة نار
كلما نُكِّسَتْ تعالى سناها

وقال : كتم الجوي :

كتم الجوى القلبُ القريح   فأذاعه الدمع الفضوح
إنّ الدموع لها لسانٌ   بالاسىء لَسِنٌ فصيحُ

---

(١) يغل من غال اذا اتلف وعدم .
(٢) عان : العاني الاسير .
(٣) ناب بدل ، ونبا عثر .

واذا الدموع نزحن فالزفرات بالشكوى تبوح
أحبابنا ، كم ذا يُشتِتُ شملنا البين الطروح (١)
وكم التفرق ؟ آنَ أنْ تدنو الديارُ وأن تروحوا
ماذا يجنُّ من الحنين اليكم القلب القريح
أنا بعدكم كالورق في أغصانها أبداً تنوح
لكنها غاضت مدامعها ولي دمع سفوح
مزجته بالدَّم مقلةٌ انسانُها أرِقٌ جريح
يا لائمي فيهم سهرتُ ونام عن ليلي النصيح (٢)
يلحىٰ المُروَّع بالنوى وهو الخلي المستريح
يالي من الحسرات كم تغدو عليَّ وكم تروح
لم يبق من لِدَتي وأتراب الصِّبا خلٌ نصوح
غالتهم الدنيا وصَدَّعَ شملهم زمن نطوح
أنا بعدهم ميت ولي من جسمي البالي ضريح
فيه ذَمَا روح منيَّتُها غَبُوقٌ أو صبوح (٣)
ولقلما تبقى ، وكم تبقى مع التعذيب روحُ
أفلا لقاء يذهب الحسرات أو موت مُريحُ

وقال عليك بالصبر :

عليك بالصبر يا قلبي وإن خفيت
سبيله عنك فاسأل عنه من فقدا
فلن ترى واجداً في الناس فارق من
يهوى فأجدى عليه ان قضى كمدا
بالامس راعك بينٌ ما احتسبت به
عسى اللقاء الذي لم تحتسبه غدا

---

(١) طرحه : رماه وأبعده . (٢) في هامش الديوان (ياناصحي) .
(٣) الذماء ، بقية النفس .

وقال :

هبْ ان مصرَ جنانُ الخلد ما اشـ
تهت النفوسُ فيها من اللذات موجود

ماذا انتفاعي اذا كانت زَخارِفها
موجودة ، وحبيبُ النفس مفقـود

وما الحيـاة لمـن باتت احبتـه
رضا ولا هو في الاحيـاء معدودُ

قال ابن الاثير (في) هذه السنة (١)

جمع نور الدين محمود زنكي بن أقسنقر صاحب الشام العساكر في حلب وسار الى قلعة « حارم » وهي للافرنج غربي حلب فحاصرها وجدّ في قتالها فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من فرسان الافرنج ورجالهم وشجعانهم الخ .

وممن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ الكناني وكان من الشجاعة في الغاية فلما عاد الى حلب دخل الى مسجدها وكان قد دخله في العام الماضي سائراً الى الحج فكتب على حائطه :

لك الحمد يا مولاي كم لك منَّة
عليَّ وفضل لا يحيط به شكري

نزلت بهـذا المسجد العـام قافلاً
من الغزو موفور النصيب من الاجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأديتُ مفروضي واسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري (٢)

---

(١) يريد سنة ٥٥٧ الكامل ج ١١ ـ ١٢٥ .

(٢) فيكون حجه قد وقع سنة ٥٥٦ وهو ينص على ان حجه كان في ٥٥٥ هـ .

وقال ببغداد وهو متوجه الى مكة سنة ٥٥٥ هـ ولم يرها من قبل :

وصفوا لي بغـداد حيناً ، فلمـا
جئتهـا ، جئت أحسن البـلدان

منظـرٌ مُبهِـجٌ وقـوم سَـراة
قـد تحلوْا بالحسن والاحسـان

ليس فيهـم عيبٌ سـوى ان في كل بنـان عِلاقَة الميزان
وسمعنا وما رأينـا سـوى أمٍّ ظلوم فيهـا من النسـوان
وهي جنيـةٌ كأقبح ما شَوَّهَهُ ربنـا من الغيـلان

ان فيهـا من الصبايا شـموساً
في غصـونٍ تهتـز في كثبـان

شغلتنا السبعون والحجُّ عنهن فقلنا بالسمع دون العيـان

وقال في الحنين الى أهله وأصدقائه والقصيدة من أوائل شعره بعد نزوحه من شيزر وتعد من غرر الشعر تصلح للغناء :

يا ناقُ شَطَّتْ دارهـم فَحِنّي
وأعلني الوَجْـدَ الـذي تُجِنّي

ما ارزمتْ (١) وَهْناً لفقد إلفَهـا
الا رمـتْ جوارحي بِوَهْـنِ

تَذكّـرت ألافَهـا فَهيّجتْ
لاعج شـوقي وذكـرت خِدْني

أبكي اشتياقاً ، وتَحِنُ وحشـةً
فقـد شجاني حُزنُهـا وحُزني

---

(١) أرزمت الناقة حنت على ولدها .

حسبُكَ قد طال الحنين والأسى
وما أرى طولَ الحنين يُغني
ولا تملي من مَسيرٍ وَسُرى
في مهمهٍ سَهْلٍ ووعرٍ حزْنِ
حتى تُناخي تحتَ بانات الحمى
سقى الحِمى والبان صوب المزن
أهوى الحِمى وأهلَه وبانه
وإن نأيت ، وتناءوْا عنّي
شطوا وشطّت بيَ داري عنهم
وهُمْ الى قلبيَ أدنى مِني
لم يُذكروا لي قطُّ الا امتلأتْ
بالدمع اجفاني ، وقالت قطني
وهم اعزُّ إن نأوْا وإن دنوْا
مما حوى خِلْبي (١) ، وضمّ جفني
نفسي فداءٌ من أورّي بالحِمَى
والبان عن اسمائهم وأكْني
همُ اذا قلتُ سقى أرض الحمى
وبانه صوبُ الحيا مَنْ أعني
ضناً بهم عن ان يطورَ ذكرهم (٢)
بمسمع وهم مكان الضنِّ
أحبتهم من قبل ينجابُ دجى
فَودي عن الصبح ويَذوي غصني

---

(١) الخلب : لُحَيْمة" رقيقة تصل بين الاضلاع .

(٢) طار يطور حام ودنا .

حبّاً جرى مجرى الحياة من دَمي
أصمُّ عن كل نصيحٍ أذْني

فلو تعوضتُ بهم عصر الصِّبا
لبان في صَفقةٍ بيعي غبني

فارقتُهم اشغف ما كنت بهم
وعدتُ قد ادمتْ بناني سني

ألْزِمِ كَفيَّ فؤاداً ماله
من بعدهم رَوْحٌ سوى التمنّي

لكنّني أدعو لجَمعِ شَملنَا
مُسيّرَ الشُهبِ ومُجري السُفْنِ

وقال في الحنين والشوق (١) :

أعلمتَ ما فعلتْ به أجفانه
سحّتْ فباحت بالهوى أشجانه

نمت على حسراته زَفَراته
وكذا ينم على الضرام دخانه

وأخو الهوى مثل الكتاب : دليل ذا
ك عيانه ودليل ذا عنوانه

تحكي البروق فؤاده فضرامها
أشواقه وخفوقها خفقاته

ضمن الهوى الا يزال أخا ضنىً
وضمانة (٢) فوفى بذاك ضمانه

(١) اختار صاحب المسالك لاسامة من هذه القصيدة بعض أبياتها ٠
(٢) الضمانة ، المرض ، ضمن تعهد ٠

يا مدعي السلوان عن أحبابه
أين السُلوُ وأين منك أوانه

شَطَتْ ديارك عنهم وهفا بك الشو
ق المبرح والتَّظَتْ نيرانه

وأبانَ بينمُ هواك فما عسى
بك فاعلٌ هذا الهوى وبيانه

كاتمتَ واشيكَ الهوى قبل النَوى
فبدا له من بعدها كتمانه

وعصاك دمعُك عندَ خطرة ذكرهم
وبقدر طاعتك الهوى عصيانه

فاذا تبادر من جفونك خلته
عقداً وهيَ مرجانُه وجُمانه

لو أيقن الحنق الحسود عليهم
حظي لحالت رحمةً أضغانه

بين المحب وبينهم من هجرهم
بينٌ طويل برْحُه وزمانه

ابدوْا له ملل القريب مع النوى
وتناسيَ النائي ، وهم جيرانه

وتَخلّق الطيف الطروق بِخُلْقهم
فاذا ألمّ يَروعني هِجرانه

وهم الصبا : أيامُه محبوبةٌ
وإن اعتدى في غيّه شيطانه

وجَمـــــالهم كَفّــــارة لملالهــم
والهجـــر ذنبٌ يرتجـى غفـــرانه

أويعلمـــــون مكانَهمْ ما أضْرَموا
قلبـي بهجرهــم وهم ســـكّانه

ولجهلهم طرفوا بطـول صدودهم
ومَلالِهـــم طرفي وهـم انســـانه

قال رحمه الله -

ما يُريد الشَوْقُ من قَلْبٍ مُعَنّى
ذكرَ الألافَ والوصـــلَ فحَنّـا

حَسْبُه ما عندَه ، من شَـوْقهِ
وكَفَـاهُ من جَوَاهُ ما أجنّـــا

كلّما شــاهدَ شَمْلاً جامِعـاً
طـار شوقاً وهفَـا وَجْـداً ، وانّـا

عاضَهُ الدهـرُ من القرب نَوَى
ومن الغِبْطـةِ بالأحبـابِ حزْنـَا

فرثىَ من رَحْمَـــةٍ عاذلـــهُ
ورأىَ الحاسـدُ فيــه ما تمنّـــى

وَيْحَـهُ من زفـرة تعتَــادُهُ
وهمـومٍ جمّـةٍ تطرقُ وَهْنَــا

بازمـــانَ القربِ سقيا لكَ مِنْ
زمنٍ لو كــان قربُ الدار اغنى

لم تكــن الا كَظِـــلٍ زائــلٍ
والمَســراتُ تَلاشَى ، ثم تَفْنَى

سـاءنا ما سـرّنا من عيشـنـا
بعـدَ ما راقَ لنا مرأى ومَجنى

فافترقـنـا بعـد ما كنّـا صَدىً
إن دعونا ، وكَفَانا قولُ : كنّا

وكـذا الأيامُ : من عَادَاتِهـا
أنها تَقْلبُ سهلَ العيشِ حَزْنا

خُلُقٌ للدهـر ما أولى إمـرءاً
نعمَةً منـه فَمـلاهُ وهنّـا

وكـذا الباخلُ ، ما أسدى يداً
قطُّ الاكـدّر المـنّ ومنّـا

قل لأحبـابٍ نأتْ دارُهُـم
وعلى قربهـمُ أقرعُ سِـنّا

ساء ظنـي باصطباري بعـدكمْ
ولقـد كنت به أُحْسِنُ ظنّـا

لا صفا لي العيشُ من بعُـدكم
ما تَمـادَتْ مدةُ البينِ وعشنا

وعجيـبٌ والتنـائي دُونكـم
أنّكم مِنّي الى قلبـيَ أدنى

حيثُ كنتـمْ فَفُؤادي دارُكـم
وعلى أشـباحكم أُغمِضُ جَفْنَـا

وقال :

لا تَقربَنْ باب سلطان وإن ملأَتْ
هبـاته غير مأمون بهـا الطرُقَا

فإن أبوابهم كالبحر راكبه
مُروَّعُ القلب يخشى دَهْرَهُ الغرقا

وقال واذا قضاء الله أخرني :

لم تترك السبعون في اقبالها
مني سوى ما لا عليه مُعوَّل
حتى اذا ما عامُها عني انقضى
ووطِئْتُ في العام الذي يستقبل
حطمت قواي وأوهنت من نهضتي
وكذا بمن طلب السلامة تفعل
كم قد شهدت من الحروب فليتني
في بعضها من قبل ذلك اقتل
والقتل أحسن بالفتى من قبل ان
يَبلى ويفنيه الزمان وأجمل
وأبيك ما احجمت من خوض الردى
في الحرب يشهد لي بذاك المُتصل
واذا قضاء الله أخرني الى
أجلي الموقت لي فماذا افعل

وكتب على حائط مسجد بظاهر مَنْبِج وهو متوجه الى الحجاز وذلك سنة ٥٥٥ هجرية متخذاً طريقه الى بغداد ليرافق أمير الحاج فقال :

نزلنا به حتى اذا يومنا انقضى
رحلنا على العيسِ النجائب والجرد

نؤمُ بهـا البيت العتيـق ونبتغي
من النار عتقاً جاء في سابق الوعـد

فيا من قصـدنا بيتـه ونبيَّـهُ
بك العـون يا مولاي من خيبة القصد

رثاء أهله الهالكين :

وقف اسامة على أطلال وطنه وربوع أهله وهي أول أرض مس جلده ترابها ، فلم يعرف بيته ولا بيوت أبيه وأعمامه بعد تلك الزلزلة العظمى التي أتت على شيزر وقضت على بني منقذ فأنشأ يبكيهم ويندبهم بهذه القصيدة المعبرة عن حزنه والمعربة عن حدة الحسرة التي تعتلج بين جوانحه وتفصح عن عظيم حبه لبني عشيرته والوفاء لبني عمومته .

والقصيدة وحدة متماسكة تعين الناقد على الموازنة لشعر اسامة وغيره من شعراء عصره ، والحكم على شاعريته التي أحلته منزلة الزعامة بين شعراء زمانه وقد فضله نقاد كثيرون وعدَّه آخرون من فحول الشعراء ، قال :

حيّا ربوعَك من ربىً ومنـازل
ساري الغمـام بكل هـام هامل

وسقتك يا دار الهـوى بعد النوى
وطفـاء تسفح بالهتـون الهـاطل

حتى تُروض كـل ماحٍ ماحـلٍ
عافٍ وتُروي كـل ذاوٍ ذابل

أبكيكِ ، أمْ أبكي زماني فيك أم
أهليك أم شرخ الشباب الراحـل

ما قدر دمعـي أنْ يُقسِّمه الأسى
والوجـدُ بين أحبـةٍ ومنـازل

أنفقتُه سَرَفاً وها أنا ماثِل
في ماحلٍ أبكي بجفنٍ ماحل

واذا فَزِعْتُ الى العزاء دعوت مَن
لا يستجيب ورُمت نصرة خاذل

أين الظباء عهدتُهُنَّ كوانساً
بك في ظلال السمهري الذابل

من كلِّ مكروهِ اللقاء مُنازلٍ
رَحبِ الفِناء لطارقٍ أو نازل

مُتمنعٍ صعبٍ على أعدائه
سهل المقادة للخليل الواصل

عَزَّوا على الدنيا وخالف فِعْلُهم
أفعالَها فبَغَتْهُم بغوائل

حتى اذا اغتالتهم بخطوبها
وَرَمَتْهُمُ بِحَوادِثٍ وزلازل

درست منازلهم وأوحش منهم
مأنوس أندية وعزّ معاقل

واهاً لهم من عالِم ومَعالِم
ومُمَنَّعات عقائل ومعاقل

كانوا شجىً في صدر كل معاندٍ
وقذىً يجول بعين كل محاول

غوثاً لملهوفٍ ، وملجأ لاجىء
وجوار ربّ جرائرٍ وطوائل

ذهبوا ذهاب الأمس ما من مُخبِرٍ
عنهم وزالوا كالظِلال الزائل

وبقيت بعدهم حليف كآبة
مستورة بتجمل وتجامُل

سَعُدُوا براحتهم وها أنا بعدهم
في شقوة تُضني وهمٌّ داخل

فاعجب لشقوة متعبٍ بمقامه
من بعد اسرته وراحة راحل

دع ذا فأنت على الحوادث مروةٌ
تلقَى الرزايا عالماً كالجاهل

واصبر فما فيما أصابك وصمة
كل الورى غرضٌ لسهم النابل

وله في البكاء على أهله ووطنه بعد تلك النكبة قصائد باكية بليغة وأشهرها قصيدته النونية التي قالها حين ترشحت اليه أخبار النكبة وكان يومئذ مع نور الدين محمود ٥٥٢ ـ وقد قدمت منها أكثرها في بحثي لتلك الزلازل التي اجتاحت البلاد الشامية ومحت أكثر معالمها وكشفتها للعدو لولا الجهود الجبارة التي قام بها الملك العادل نور الدين زنكي فقد أسرع بعمران جميع الاسوار واعادة الحصون والقلاع كما كانت ولا سيما التي على الثغور وأختم هذه المختارات من شعر اسامة بلون جديد أقدم منه نموذجاً سماه المسمط : وهو نوع من النظم شاع استعماله في العصور الاخيرة وذلك ان ينظم الشاعر ثلاثه اشطر ثم يأتي بالبيت من القصيدة التي يرغب الشاعر في تسميطها ، وتجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الابيات التي من القصيدة المختارة وهي الأصل :

القصيدة لقيس بن ذريح العذري وهو من كنانة أي من القبيلة التي منها بنو منقذ : ومطلعها :

سقى طلَلَ الدار التي أنتم بها
حَناتِمُ (١) وَبْلٍ صَيِّفٌ وربيعُ

التسميط :

كعهدكَ بانات الحمى فوق كثبها
ودار الهوى تحمي العِدا سرح سربها
أقول وسمر الخطّ حجبٌ لحجبها
سقى طلَلَ الدار التي أنتم بها حناتم وبل صَيِّفٌ وربيع

بدارك مابي من بلى الشوق والهوى
وبي ما بها من وحشة البين والهوى
سأروي ثراها من دموعي إن ارتوى
وخيماتكِ اللاتي بمنعرج اللوى بَلينَ بلىً لم تبلَهُنَّ ربوع

وما الجور عن نهج السلو أعاجني
على ذي أثافٍ كالحمام الدواجن (٢)
ولكن وفاءٌ ورِدْءُهُ غير آجن
ولولم يهجني الظاعنون لهاجني حمائم وُرْقٌ في الديار وقوعُ

هواتِفُ يُذْكِرْنَ الشَّجى أخا الجَوى
زمان التداني قبل رائعة النوى
وطيب لياليه الحميدة باللوى
تداعين فاستبكين من كان ذا هوى نوائحُ لم تَذْرف لهن دموع

اذا ما نسيم هبَّ من جانب الهوى

---

(١) الحناتم السحائب السود ·
(٢) اثاف : جمع أثفية وهي الحجر يوضع عليه القدم ·
(٣) الاجن الماء المتغير ·

أقول وأشواقي تزيد تضرما
عسى وطنٌ يدنو بهم ولعلما
وان انهمالَ الدمع ياليل كلما ذكرتُكِ وحدي خالياً لَسريع

ولو عاد يوم منك يا ليلَ قد خلا
بعُمْريَ أو شرخَ الشبيبة ما غلا
وقد عزفت نفسي عن الهجر والقلا
وسوف أسلّي النفس عنك كما سلا عن البلد النائي المخوف نزيع (١)

أيرجو لي اللاحي من الحب مَخْلَصَا
وقلبي اذا ما روّضتُه بالأسىُ عصىُ
ولو ان ما بي بالحصى فُلِقَ الحَصىُ
الى الله أشكو نيةً شقت العصا هي اليوم شتى وهي أمس جميع

أطاعت بنا ليلى افتِراء التكذب
وصدُ التجني غيرُ صدِّ التعتب
فيالك من دهر كثير التقلب
مضى زمن والناس يستشفعون بي فهل لي الى لَيْلَى الغداة شفيع

الا نغْبَةٌ من بَرد انيابها العُلىُ (٢)
وردُ زمان كالأهلة يُجتلىُ
فقولا لها جادتك واهيةُ الكُلَى (٣)
اراجعة يا ليلُ أيامنا الاولى بذى الرمث أم لا، مالهن رُجوع

أعاذلتي مالي هُدِيتِ ومالِك

(١) النزيع الغريب كالنازع ·
(٢) النغبة الجرعة ·
(٣) كلية السحاب أسفله ·

لقــــد ســاءني اني خطــرت ببالك
ذريني ، فَلَوْمي ضَـلَّةٌ من ضلالك

لعمْركِ ، اني يوم جرعاء مالك لعاصٍ لأمر العاذلاتِ مُضَيِّعُ

أعِدْ ذكرها ، أحببْ اليَّ بذكرها
ودع ذنبهــا في حالي وفائي وغدرها

اذا أمرتني العاذلات بهجرهـا هفَت كبدٌ عما يَقُلْنَ صديع

يزيد هوىً ليــلى رضاها وعتبُها
وبعــدُ نواها إن تناءت وقربهــا
ولم ينهني صدق اللواحي وكذبهــا

وكيف أطيع العاذلاتِ ، وحُبُّها يؤرقني والعـاذلاتُ هجوعُ



الخاتمة

عجم اسامة الحياة وذاق حلوها ومرها ونعم بنعيمها وصبر على بأسائها ، وخاض الحروب وانتصر في مواقع وهزم في مواقع ، وقاد الجيوش وغزا بهم الافرنج وحارب في شيزر وافامية وكفرطاب مع عمه وتحت قيادة أبيه ، وحارب تحت قيادة الامراء عماد الدين ومعين الدين ونور الدين ، وأعان صلاح الدين بمشورته يوم علت به السن ولم يقوَ على الحرب ، فاكتسب صفات أصيلة يرى ضرورة توفرها بالقائد والجندي ويوجبها فيمن ندب نفسه للجهاد ، ويراها قوام الظفر ومن أسباب النصر ، ومن أولى هذه الصفات الثقة بالنفس ، فاسامة شديد الثقة بنفسه كبير الاعتزاز بشجاعته كثير التحدث عن مواقفه في ميادين القتال :

فسلْ كماة الوغى عني لتعلم كم
كربٍ كَشفتُ وكم ضيقٍ قد انفسحا
أخوضها ، كشهاب القذف مبتسماً
طلقَ المُحَيا ووجه الموت قد كلحا

وثاني هذه الصفات الصبر فاسامة شديد الاعتزاز بصبره وثباته افتخر بصبره على المكاره ووقوفه في ميادين القتال بعزيمة أمضى من السيوف ولطالما أقدم اقدام الحتوف على الحتوف وما اكتسب منزلته المرموقة المحسد عليها الا لانه يرخص نفسه في القتال ويهينها يوم الوغى ، ولم يتغلب على لأواء الحرب وينتصر على أعدائه الا بالصبر والثبات :

اذا ما عرا خطب من الدهر فاصطبر
فان الليالي بالخطوب حواملُ
فكل الذي يأتي به الدهر زائل
سريعاً فلا تجزع لما هو زائلُ

الطريق المحفوف بالمكره ولكنه السبيل المأمول لنيل الآمال والظفر بالامان :
الطريق المحفوف بالمكاره ولكنه السبيل المأمون لنيل الآمال والظفر بالاماني

اصبرْ تنلْ ما ترتجيهِ ، وتفضْلُ مَنْ

جاركَ شأوَ العُلا سَبْقاً وتبريزا

والصفة الثالثة التفاؤل بالنصر وبالحياة ، فاسامة كثير التفاؤل لا تراه عابساً ولا متشائماً في أحلك المواقف ونظرته للحياة انها : مرةً لك وتارة عليك اكتسب هذه النظرة للحياة بعد التجارب الطويلة حصيلة الحياة المريرة التي زاولها في أسفاره وغاراته ومطاردته للوحوش ومعاناته لصحبة اقوام لا يعرف رطاناتهم ومن الصعب احتمال طباعهم الغليظة ، خرج من هذه المعانات والتجارب رجلاً متفائلاً لا يرى الشر ضربة لازب ، واثقاً ان الشدائد تزول فلا داعي لليأس وليس من الرجولة القنوط والغم :

يا آلفَ الهم لا تقنطْ ، فأيأس ما

تكون ، يأتيك لطفُ الله بالفرج ،

والصفة الرابعة حضور الذهن عند الملمات فهو حاضر الذهن على استعداد دائم للحرب يدرك ما يفعل ويعقل ما يقرر لا يترك لليأس أو الخوف سبيلاً الى نفسه وقد رأينا كيف كان عمه يمتحن حضور ذهنه في الخطوب والحروب .

فاذا دعا داعي الوغى لباه وهو على أهبة حسنة واستعداد وقلب شجاع :

وكنت إن ثَوَّبَ داعي الوغى

لَبَّيْتُه بالطعن والضرب

أشق بالسيف دُجى نقعها

شق الدياجي مُرسل الشهب

انازل الاقران يُرديهمُ

من قبل ضربي هامَهم رعبي

والصفة الرابعة : رباطة الجأش ، واسامة يلقى رزايا الحرب رابط الجأش مجتمع اللب ما خانه عزمه ولا ندّ عنـــه صبره ولا يغلبـه الروع ولا يرتاع قلبه لكثرة :

القى الرزايا رابط الجـــأش في
احداثهـــا مجتمـــع اللـــبّ
ما خانـــي عـزمي ولا غــرني
صـبري ولا ارتاع لهـا قلبـي

واسامة كثير الفخر بنفسه وبقومه وبني عشيرته كتب شعاره على طوق خوذته :

أنا تاج فرسان الهيـاج ومن بهم
ثبتت أواخي ملـك كل متوجي (١)
قوم اذا لبسوا الحديد عجبتَ من
بحـــر تدافع من لظّى مُتوهـج
صُبرٌ اذا ما ضـاق معترك القنـا
فرَجَتْ سيوفهم مضيق المنهـج
واذا رجوتهـم لنصـر صَّدقوا
بعظيم بأسـهمُ رجـاءَ المرتجي

والاباء والشمم والاعتزاز بالمواهب من أخلاق اسامة التي لم تفارقه قط لا في حالي رضاه أو سخطه ولا في حالي غناه أو بؤسه فلم يره اعداؤه الا صلباً قوي الشكيمة لا يضرع لنكبة :

---

(١) الهياج بالكسر القتال ، واواخي جمع اخية بالتشديد وتخفف ، وهي عود في حائط أو حبل يدفق في الارض وبرز طرفه تشد فيه الدابة .

متى رآني الشامتون ضرعاً
لنكبة تعرقني عرق المدى

هم يعلمون أنني اصلب من
صُمِّ الصفا ، فما عدا مما بدا

والكرم صفة ملازمة له ورثها عن آبائه لا يرد سائلاً **فاذا أعسر** شاطر مسترفدي نداه ما يملك يتصدق بفك أسرى المسلمين كلما واتته الفرصة فكان ماله مباحاً للنوال :

إن أجمعوا المال فأوعَوْا أتلفت
يدي طريف ما حوت والتبلدا

همُ يَرون المال ذخراً باقياً
وانما ذخر الفتى ان يُحْمدا

وله عزيمة صارمة لا ينال منها خطب مهما بلغ :

وعندي على ما راب من حدثانها
صريمة عزم ما لما عقلتْ نشط

تُهوِّنُ عندي الخطبَ ، والخطبُ هائل
وتقبض عني كفَهُ ولها البسط

وشجاعته وصبره الفَان ما افترقا فلا يطمع الدهر ان يذله ولن تراه ضرعاً لأهواله .

قلبي وصبري الفان مذ خلقا
تقاسما صادقين : لا افترقا

ما يطمع الدهر ان أذِلَ ولا
تملأ قلبي أهوالُه فرقا

أحنـــو ضلوعي في كل نائبـــة

على فــؤاد لا يعــرف القلقــا

لا يزدهيـــه خوفُ الحِمـــام ولا

عهـــدته في ملمـــةٍ خفقـــا

ينعى اسامة على حساده والشانئين الذين يرمونه بالجهل في الحروب لاقدامه وهجومه وسط الاعداء ، وجوابه لهم ان الفرار عن ورد المنية لا ينجيه عن وردها إن حُمَّ القضاء وهو شديد الايمان بالقضاء والقدر فليس له منجىً عنها ولا مهربا وهو ان خاض الحروب وجال وصال في حوماتها فلأنـَه لا يرى من الموت موئلا ولن ينجيه الا رباطة الجأش والاقدام واذا نازل كبش كتيبة فليس يبالي أيهما مات أولا كما يقول :

يُجهـِّـلُ في الأقدام رأبي معاشرٌ

أراهم اذا فروا من الموت أجهـلا

أيرجو الفتى عند انقضاء حيـاته

وإن فرَّ عن ورد المنية مزحلا (١)

واسامة ثبت العزائم اذا هال وقع الظبا في الجمائم :

اذا ضاق بالخطي معتـــرك الوغى

وهال الردى وقع الظبا في الجمـاجم

سلْ الموتَ عني فهو يشهد انني

على خوضه في الحرب ثبت العـــزائم

ومن صفات الجندي المحارب ان يكون صبوراً ثابت العزائم لا يتسرب الخوف الى قلبه ولا يداخله الرعب اما الهزيمة فلا تخطر على باله ولا يعبأ بأمر

---

(١) مزحلا : زوالا ، دفعاً .

مشكل لا يستكين لحادث من نكبة ويجعل من النكسة حافزاً للنصر يلقى الخطوب بقلب شجاع وعقل واع اذا دجت أهوالها لاقاها بالبسالة والصبر واعدّ العدة لجولة ثانية :

لا يستكين لحادث من نكبة
طرقت ولا يعيا بأمر مشكل

يلقى الخطوب اذا دجتْ أهوالها
بالصبر حتى تضمحلَ وتنجلي

تنجاب عنه الحادثات اذا عرت
عن قُلَّبٍ ثبتِ العزائم حُوَّل

قد جرّب الايام حتى خلته
يبدي له الماضي خفي المقبل

هذه صفات القائد المؤمن بالله المجاهد والواثق بنصر الله الذائد عن حمى أوطانه الناصر لدين الله ، هذه هي الصفات المتمثلة في نفوس القادة الميامين من أمثال خالد وأبي عبيدة وسعد والمثنى ومسلمة وعقبة وموسى بن نصير وطارق وهرثمة ويزيد بن مزيد وصلاح الدين يقودون جيوشهم الى النصر ونفوسهم مشبعة بالايمان مخبته لعظمة الله مجردة عن الزهو والخيلاء يعدون العدة قبل النزال ويسبرون قوى العدو قبل خوض المعركة شعارهم لا غالب الا الله ، يرجون منه تعالى الفوز بالشهادة لهم دوي بالقرآن لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل الحرب ولا ترهبهم كثرة الاعداء وما النصر الا من عند الله .

ومن صفات القائد ان يكون يقظاً حذراً فلا يترك غرةً يهتبلها العدو ولا يهمل فرصة يستفيد منها الخصم وقد تكون السبب في الخذلان وتغير ريح المعركة، يقرر الماوردي « على القائد أن يتبع المكامن ويحوط سوادهم بحرس يأمنون به على أنفسهم ورحالهم ليسكنوا في وقت الدعة ، ويأمنوا ما وراءهم في وقت المحاربة ، وان يوفر ما يحتاجه الجيش من عدد الحرب ليكونوا على الحرب أوفر وعلى

منازلة العدو أقدر ، وان يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليها ويتصفح أحواله حتى يخبرها ويسلم من مكره ويلتمس الغـرّة في الهجوم عليه ، وان يرتب الجيش في مصاف الحرب والتعويل في كل جهة على من يراه كفؤاً لها ، ويتفقد الصفوف من الخلل فيها ، ويراعي كل جهة يميل العدو عليها بمدد يكون عونا لها ، وان يقوي نفوسهم بما يشعرهم من الظفر ويخيل اليهم من أسباب النصر ليقلّ العدو في أعينهم فيكونوا عليه أجرأ وبالجرأة يتسهل الظفر ، قال تعالى : « اذ يريكهمُ اللهُ في منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الامر » ، والمشورة لأهل الرأي ، وان يلتزم الجيش بما أوجبه الله تعالى من حقوقه وأمرَ به من حدوده حتى لا يكون بينهم تجور في دين ولا تحيفٌ في حق ، فانِ مَنْ جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه ، والفصل بين حلاله وحرامه ، وقد روى حارث بن نبهان عن ابَانَ بن عثمان عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« انهوا جيوشكم عن الفساد فانه ما فسد جيش قط الاقذف الله في قلوبهم الرعب ، وانهوا جيوشكم عن الغلول فانه ما غلّ جيش قط الا سلط الله عليهم المَوتَان » (٢) .

ملحوظة :ـ

اننا وجدنا ناحية الشعب أو حياةالجماهير خافتة لا أثر لها في حياة اسامة ولا سيما بعد مبارحته شيزر ، فقد برزت حياة الحاكم وظهرت علاقاته بالامراء الذين عمل معهم ، واختفت حياة الجماهير من حديثه ولم تبرز مظاهر المجتمع الشامي أو المصري في شعره أو أحاديثه وإن حفل كتاب الاعتبار بمظاهر شتى عن المجتمع اذي عاشه اسامة في شيزر وتعدى ذلك الى التحدث عن العلاقات التي كانت سائدة بين المسلمين وبين الفرنجة ومرد ذلك فيما أحسب يعود الى الزمان والى

---

(١) الغلول : الطمع ، وجمع الغنائم واخفائها عن القيادة .

(٢) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٤٣ انظر شروط أمير الجيش وما يجب أن يكون من الثقافة العسكرية العربية وراجع مختصر سياسة الحروب للهرثمي صاحب المأمون دونها خبرات العسكريين العصريين .

العرف والنظام اللذان كانا سائدين يوم ذاك ، توارتْ ارادة الجماهير وكأنهم قد عاشوا بمعزل عن الاحداث وإن وقع عليهم الغرم وللحكام الغنم ولهذا لم نتبين أي أثر للشعوب التي عايشها اسامة لا في شعره ولا في كتبه لم نلمح ملامح المجتمع الشامي ولا المصري ولا الموصلي ، وقضى في حصن كيفا نحواً من عشرة سنوات والف فيها كتباً كثيرة فلم نجد وصفا لذلك الحصن ولا لتلك المكتبات التي جمعها الارتقيون والتي أمدته بمصادر كتبه ، وما ذلك الا لان التفكير كان محصوراً بين الفرد وحكامه وهذا ما نجده بارزاً في كتب التأريخ الا ما ندر منها ، وهذه الظاهرة نجدها بارزة في دواوين أكثر الشعراء من عهد الحسن بن هانيء وقبله وبعده ، وليس اسامة ببدع عنهم ، وانما يمتاز اسامة عنهم انه قليل الاكتراث بالامراء وعني أكثر ما عني بالحديث عن علاقاته بأصدقائه أكثر مما تحدث عن عماد الدين والخليفة الحافظ والظافر وابن السلار وابن باديس ولكنه لم ينس نور الدين وشكر أيادي معين الدين وابن رزيك والسلطان صلاح الدين لما بينه وبينهم من مودات وعواطف وصداقات تنضح بالاحترام والتقدير .

الملحوظة الثانية :

يحسن أن نبحثها لانها تثير التساؤل هي امارة شيزر فلماذا لم يولّ نور الدين اسامة حصن آبائه وهو الذي أبلى بلاء حسنا بالدفاع عنها والذي رافق نور الدين في حروبه وانتصاراته والجواب على ذلك ان نور الدين كان من خطته توحيد المنطقة فلا يفسح المجال لاعادة التمزيق والتفريق وهو الذي سعى للقضاء على الامارات القائمة قبله والتي كانت تتعرض لغزو الافرنج ولم تقوَ على الدفاع بمفردها، وان كان اسامة قد تطلع الى حكم شيزر والعودة اليها ولمّح في شعره عن رغبته ولم يصرح ، أقول هذا ولعل الايام تظهر لنا بعض مؤلفاته فتحيطنا علما بما نجهل عنه .

مُناقَشات

كتب عن اسامة مؤرخون ومترجمون قدامى ومحدثون رأيت استكمالا للبحث ان اناقش بعض آرائهم •

١ ـ قال ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج :٥ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٢ في وفيات سنة ٥٨٤ ـ

« وفيها توفي اسامة بن مرشد بن علي بن نصر بن منقذ الامير الكبير مؤيد الدولة أبو المظفر الكناني (الشيرازي) » وقال :

وكان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم له تصانيف عديدة في فنون الادب والاخبار والنظم وفيه تشيع ، وباقي أخباره نقلها عن الخريدة وعن ابن خلكان والمصدران لم يقولا : فيه تشيع ولم يذكر حجته في ذلك ولم يورد بيتاً أو قولا له فيه ذكر لهذا النعت •

أقول : اني لا أرى معنىً للنص على تشيعه فليس فيه ما ينقصه وهو المجاهد المسلم ولا في سيرته ما يدل على غلوه أو تعصبه والتعصب هو المذموم من أي كان وليس من ورائه الا الكراهية والانقسام •

٢ ـ وقد وهم في نسبته فقال (الشيرازي) ومعنى ذلك انه نسبه الى شيراز وشيراز في أرض فارس ، وانما هو من شيزر والنسب اليها شيزري •

٣ ـ قال صاحب النجوم : في ترجمته وسنة وفاته « وفيها توفي الامير أبو الحارث مؤيد الدولة مجد الدين الكناني ، مولده بشيزر في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وكانت له اليد الطولى في الادب والكتابة والشعر ، وكان فارسا شجاعا عاقلاً مديراً كان يحفظ عشرين الف بيت من شعر العرب الجاهلية وطاف البلاد ثم استوطن حماة فتوفي فيها في شهر رمضان وقد بلغ ستاً وتسعين سنة وله ديوان شعر مشهور ، وكان السلطان صلاح الدين مغرى بشعره ، ج : ٦ : ١٠٧ •

أقول ان الامير اسامة لم يستوطن حماة وقد حلَّ بها أيام الغزو والحرب مع عماد الدين زنكي ، فقد عاش أيام صباه الى ان جاوز الخامسة والعشرين من عمره وهو في شيزر ، ثم توطن الموصل والجزيرة وجاب مدنا شتى تبعاً لميادين

القتال التي كان يخوضها مع عماد الدين زنكي ، الى سنة ٥٣٢ وعاد الى شيزر ليشارك عمه وبني عمومته في حربهم للروم ، وغادرها الى دمشق الى سنة ٥٣٩ عاشها مع الامير معين الدين أُنر ثم بارحها الى مصر ومكث فيها الى سنة ٥٤٩ أي عشر سنين قضاها بصحبة الحافظ والظافر ووزيريهما ابن السلار وعباس بن باديس الصنهاجي التميمي ، وبعد فتنة عباس وقتله الظافر واخويه يوسف وجبريل ، وانتفاض الجند على عباس رجع اسامة الى الشام واستمر في خدمة نور الدين محمود يرافقه في حروبه حتى ملّ الحياة مع السلاطين والامراء فهجر الشام بحدود سنة ٥٦٠ وانزوى في حصن كيفا وأقبل على العبادة والقراءة والتأليف ، وفي سنة ٥٧١ قفل راجعاً الى دمشق برغبة من السلطان الناصر صلاح الدين الذي أكرمه واعاد اليه اقطاعاً له في المعرة وجالسه وشاوره وكاتبه ، وكانت وفاته في رمضان سنة ٥٨٤ ودفن بسفح جبل قاسيون بالشام ، وذكر ابن خلكان انه زار تربته وقرأ شيئاً من القرآن على روحه وذكر انّ ديوانه كان متداولا ، لا كما قال صاحب الشذرات انه استوطن حماة ومات ودفن في تربتها .

تفنيد أقوال ابن خلدون :

في ص ١٥٧ من الجزء الرابع ، قال : « كان لعباس ولد اسمه نصير (كذا) استخصه الظافر واستدناه ويقال كان يهواه ففاوض العادل عباساً في شأن ابنه عن مخالطته للظافر فلم ينته ابنه فنهى العادل جدته عن السماح للولد ان يدخل الى بيته فشق ذلك على نصر وعلى أبيه ، وتنكر للعادل ، وقال :

« وفاوض الظافر في قتل العادل وحضر معهم مؤيد الدولة الامير اسامة بن منقذ أحد امراء شيزر وكان مقربا عند الظافر وصديقاً لعباس فاستصوب ذلك وحث عليه » وتم لنصر قتل العادل .

وقال : « ولما وزر عباس للظافر وقام بالدولة كان ولده نصير من ندمان الظافر وكان يهواه كما تقدم ، وكان اسامة بن منقذ من خلصاء عباس وأصدقائه فقبح عليه سوء المقالة في ابنه وأشار عليه بقتل الظافر فاستدعى ابنه وقبح عليه في شناعة الاحدوثة فيه بين الناس وأغراه باغتيال الظافر ليمحو عنه ما يتحدث به الناس .

ورواية ابن خلدون قريبة من رواية ابن الاثير وكلاهما لا سند لهما فيما رويا وبنيا الخبر على السماع والحقيقة هي ما قصها اسامة في كتابه الاعتبار •

خلاصتها ان الخليفة الظافر أغرى نصراً وأباه بقتل ابن السلار الملك العادل الرجل الحازم والذي كان زوج ام عباس ابن باديس ، ولم يكن لاسامة يد أو رأي في هذه الجريمة وتم لنصر قتل العادل وولي الوزارة والده على كره من الخليفة الظافر وراح من جديد يغري نصراً بقتل أبيه ليكون وزيراً مكانه وراحت الهدايا تتوالى من الخليفة على نصر ورسله يداورون نصرا ويحبذون اليه تحقيق رغبة الخليفة واطلع اسامة صدفة على ما يكيده الظافر فقبح الفعل ونهى نصراً ان يقدم على مثل هذا المنكر وانه سوف لا يَهْنَأ بعيش اذا أقدم على قتل أبيه وان هـذا يختلف عما قام به من اغتيال للعادل وان كان شنيعاً •

واطلع نصر أباه فأتفقا على قتل الظافر الخ •••

انظر رواية اسامة في الاعتبار •

في ١٠٧ من النجوم الزاهرة الجزء السادس ، قال ان اسامة استوطن حماة فتوفي فيها وهذا وهم من المؤلف وقع فيه آخرون والصواب انه توفي في دمشق ودفن فيها •

٣ ـ جاء في كتاب أعيان الشيعة لمؤلفه محسن الامين العاملي ج : ١١ : ص : ٣ ومابعدها الطبعة الثانية ١٩٦٠ بعد ذكر ترجمته قال :

« وسرُ عدّ صاحب الطليعة له (أي لاسامة) في شعراء الشيعة وقول ابن العماد الحنبلي فيه تشيع ـ وقوله انه من بيت تَشَيُّع ، الشعر المنسوب الى جده وذكر الابيات :

سلام على أهل الكساء هداتي
ومن طاب محياتي بهم ومماتي

بني البيت والركن المحلق من بني
النسك والتقديس والصلوات

بني الرشد والتوحيد والصدق والهدى
بني البـــر والمعروف والصـــدقات

بهم محّض الرحمن عظم جرائمي
وضاعف لي في جبهـــم حسناتي

ولولاهم لم يزكُ لي عمــل ولا
تَقبل صــومي خالقي وصـــلاتي

محبتهـــم لي حجـــة وولاؤهـــم
الافي بهـــا الرحْمن عنـد وفاتي

ونسب صاحب الطليعة الى اسامة قوله :

يا حجج الله التـــي لا تستطاع تجحد
أنتـم لنا لبـــانة في قصدنا ومقصـد
وعنـكم لاصـــدر ودونكـم لا مورد
امكمُ فاطمـــــة وجدكم محمـــد
وحيـــدر أبوكم طبتـم وطاب الولد

ولم يعلق صاحب كتاب أعيان الشيعة على الابيات بنفي أو اثبات لانه لا يرى أهمية لها تستوجب البحث .

واني لم أجد في شعر اسامة الابيات التي نسبت اليه ولو صحت انها له فما غرابتها وما الحكم على قائلها أمثال فكرتها صدر ويصدر عن كثير من كبار علماء السنة وأي مسلم لا يحب آل البيت وأي مسلم لا يؤمن بانه قد زكا منهم الاصل وطاب الفرع واننا نتعبد بالصلاة عليهم ، فانِ قول ابن العماد « فيه تشيع » وقول صاحب الطليعة لهذا المعنى فنعم اسامة فارس متدين سليم العقيدة عف اللسان يحب الله ورسوله وآل بيته بل وقلبه اتسع لحب خصومه من فرسان الافرنج ، اما اذا قصدا التشيع بمعناه المذهبي لمجرد أبيات نسبت اليه أو لانه عمل مع الحافظ والظافر من الخلفاء الفاطميين ، فهذا حكم فيه تعسف ومجانفة لواقع اسامة .

لم أرَ في جميع كتبه التي وصلتنا ولا في شعره ما يدل على تعصب أو تطرف أو تصريح أو تلميح على ما نعته به ابن العماد ، وحكمنا عليه انه عربي مسلم متدين يوحد الله ويؤمن بالقضاء والقدر اتسع صدره لحب الجميع ويترضى عن السلف الصالح ويستشهد بأقوالهم ويقتبس من وصاياهم ومن يقرأ كتابه اللباب وكذلك الاعتبار يعرف اسامة على حقيقته .

٤ ـ ذكر في الطليعة انه بقي اميراً في مصر الى آخر أيام الملك الصالح أي الى سنة ٥٥٦ هـ ، وهذا وهم منه والصحيح انه ترك مصر قبل دخول طلائع الملك الصالح القاهرة وقبل ان يتسنم كرسي الحكم وقد فصلت أخباره مع طلائع في فصل تقدم من هذا الكتاب .

مقتل ابن السّلار ، وهل لاسامة يد في اغتياله ؟

٥ ـ يتهم ابن الأثير اسامة بتدبير اغتيال الوزير بن السَّلار قال : « في المحرم من سنة ٥٤٨ هـ قتل العادل ابن السّلار وزير الظافر قتله ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي أشار اليه بذلك الأمير اسامة بن منقذ ، ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فأمر ولده نصراً فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وكانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين وقلَّ مَن وليَها أحد بعد الافضل الا بحرب وقتل » .

أقول : اني لم أجد أحداً من المؤرخين غير ابن الاثير يوجه الى اسامة الاشتراك في قتل ابن السّلار لان الصلات بين اسامة وبين الوزير « الملك العادل » وثيقة وابن السلار يعتمد على اسامة وهو الذي ندبه لحرب الافرنج زوده بمال وفير جهز به جيشا من المتطوعين حارب في عسقلان وبيت جبريل وبقي أربعة شهور يشاغل الافرنج وينازلهم الى ان استدعاه الى مصر ليقف بجانبه خوفاً من انتفاض بعض الولاة وترك أخاه على رأس الجيش يحارب الى ان استشهد في قتال الافرنج ، وبقي اسامة يساند ابن السلار حتى قتل بيد ابن ربيبه وكان الجيش تحت امرته ويأتمنه ويعده بمثابة ولده وقد قالوا « من مأمنه يؤتى الحذر » ولنسمع راوية الاعتبار فان فيها النبأ اليقين .

قال اسامة في اغتيال ابن السلار : « واما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل رحمه الله فانه كان جهز عسكراً الى بلبيس ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس ابن أبي الفتوح بن تميم بن باديس لحفظ البلاد من الافرنج ومعه ولده ناصر الدين ابن عباس رحمه الله فأقام مع أبيه في العسكر أياما ثم دخل القاهرة بغير اذن من العادل ولا دستور فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع الى العسكر ، وهو يظن انه دخل القاهرة للعب والفرجة وللضجر من المقام في العسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ورتب معه قوماً من غلمانه يهجم بهم على العادل في داره اذا أبرد في دار الحرم ونام فيقتله ، وقرر مع استاذ من اساتذة دار العادل يعلمه اذا نام وصاحبة الدار امرأة العادل جدته فهو يدخل اليها بغير استئذان فلما نام العادل أعلمه ذلك الاستاذ بنومه فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه ومعه ستة نفر من غلمانه فقتلوه رحمه الله من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمس مئة ، وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة (الحرس) نحو من الف رجل لكنهم في دار السلام وهو قتل في دار الحرم ، فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس الى ان رفع رأس العادل على رمح فساعة ما رأوه انقسموا فريقين فرقة خرجت من باب القاهرة الى عباس لخدمته وطاعته ، وفرقة رمت السلاح وجاءوا الى بين يدي نصر بن عباس قبلوا الارض ووقفوا في خدمته » .

الخليفة يحرض صديقه نصرا لتنفيذ الجريمة ليتخلص من ابن السلار الذي كان مهيمنا على البلاط وبيده السلطة لا يترك أحداً يتدخل بادارة البلاد وكان حازما عادلا فأراد الخليفة باغتياله ان يتحرر من نفوذه فوقع بشر من ذلك وسعى لحتفه بظفره ، وكانت الصلاة بين الخليفة واسامة فاترة ويعد اسامة من حزب الملك العادل فليس من المعقول اطلاع اسامة على الخطة ولو عرف بها لنصح صديقه نصراً كما فعل حين أطلعه على تحريض الخليفة لاغتيال أبيه عباس ، هذه المؤامرات كانت تتكرر وتمثل على مسرح الخليفة في بلاطه وتحت اشرافه واعداد نساء القصر ، عاد الظافر يتآمر مع نصر على أبيه عباس وتوالت الهدايا على الابن المستهتر وأحس

اسامة بمايدبر بالخفاء فنصح الولد الا يقدم على هذه الجريمة النكراء وقال له انك ان نفذتها فسوف لا تعرف الراحة واطلع نصر أباه بما يحاول الخليفة الخليع فعاجله بالقتل ، وحامت حول اسامة التهم وانه كان له ضلع في تدبير المؤامرة اعتباطاً .

واسامة يقول عن هذه المأساة التي انتهت بمقتل الظافر واخويه يوسف وجبريل ، (وكان ذلك اليوم من أشد الايام التي مرت بي لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق ، ولو كان اسامة ممن حرض نصراً أو عباسا لما خفي امره على نساء القصر ولأطلعن طلائع بن رزيك وهو الذي يبرىء اسامة من الاشتراك فيقول له من قصيدة طويلة :

وحاشاكم ما خنتم العهد مثله [1]
ولا لكمُ فيما جرى منه من ذنب

ومن مثل ما قد نالكم من دنوه
يحاذر ان تدنو الصحاح من الجرب

تولى الوزارة طلائع وتم له الامر ولقب بالملك الصالح ودانت له البلاد وكاتب اسامة وعرض عليه ولاية اسوان بعد فترة طويلة كانت تكفي ليتحقق فيها اذا كان اسامة قد غمس يده بدم الظافر أو له مشاركة في تدبير المؤامرة ، من غير شك لو علم طلائع ان اسامة له ظلع لما أقدم على دعوته ولما أعاد الدعوة بقصائد عديدة .

اما المطاعن التي أوردها ابن الاثير لنصر وتحريض اسامة لوالده بذلك الاسلوب الرخيص فانه لا يتفق مع أخلاق اسامة من ناحية ولا يأتلف مع مجريات الاحداث ، فلو كان نصر كما وصفه ابن الاثير وكانت العلاقة بينه وبين الخليفة على تلك الحال البشعة التي حكاها صاحب الكامل لما ولي قيادة في الجيش ولما كان أهلا لصداقة اسامة ومدحه ولما ارتضاه الخليفة وزيرا بعد أبيه ، واني ليأخذني العجب كيف ارتضى ابن الاثير ان ينزلق قلمه فيسطر تلك الاتهامات

---

(١) يقصد عباسا .

السوقية » ويقبل رواياتها في كتابه قبل ان يعرضها على محك العقل ويحاكم صحتها من كذبها بفكره الثاقب ، ولكن ابن الاثير لم يكن وحده الذي يسطر مثل هذه الاخبار لمجرد الاثارة والغرابة .

وبعـد :

اذا كان هناك ما يؤاخذ عليه أبا المظفر اسامة في هـذه المأساة فيؤاخذ على سكوته ويلام على اشتراكه في مرافقة ذلك السفاح عباس الى الشام ووقوفه بجانبه مما أثار عليه سخط الجند فنهبوا داره وصادروا أمواله وجزاه الله شر الجزاء وكان خليقاً أن يثور وان ينفي عن نفسه بوائق تلك الفتنة .

ملاحظاتي :

١ ـ ملاحظتي الاولى على المقدمة القيمة التي كتبها الدكتور فليب حتي فقد ذكر في ص (ك) ان السلطان صلاح الدين قد استدعاه من حصن كيفا بعد ان تجاوز التسعين سنة الخ ...

والصحيح انه قفل راجعاً الى دمشق سنة **٥٧١** هـ فهو قد جاوز الثمانين بثلاث سنوات .

٢ ـ وذكر كتاباً من مؤلفات اسامة باسم « تأريخ البلدين » والصحيح تأريخ البدريين .

٣ ـ وذكر كتبا له وقال انها موجودة في خزائن الغرب وكان يقضي البحث العلمي أن يذكر مواطن الخزانات التي تحتويها .

٤ ـ ملاحظتي على محققي الديوان انهما انجرفا مع الآخرين من غير تحقيق فقالا (لم ينشأ اسامة في أول الامر أن يزج بنفسه في الاحداث السياسية المصرية حتى اذا ولي القى بنفسه في خضم هذه الاحداث حتى ليروي المؤرخون انه اشترك في المؤامرات التي انتهت بقتل ابن السّلار والخليفة الظـافر) ورددا ما ردده الكتاب ممن ترجموا له هذه الاتهامات ولم يكلفا نفسيهما تمحيص هذه الاقوال وما حقيقتها وما قدر نصيب اسامة في مشاركة أحداثها وفي الديوان نصوص صريحة

تلقي ضوءً واضحاً على بطلان هذه الاتهامات وكان عليهما ان يشيرا اليها من قصائد طلائع والقاضي ابن الزبير •

٥ ـ وعرفا اسم مرشد بانه جد اسامة والصحيح أبوه في قوله :

كظوم على غيظ يضيق به الحشـا
فلست وإن آدَ اصطباري أبثُّهُ

ولم أرث الصبرَ الجميـل كلالة
ولكنـه عن مرشـد لي أرثـه

انظر هامش ص ١١٩ وتكرر ذلك منهما •

٦ ـ ملاحظتي على دائرة المعارف الاسلامية انها وصفت كتاب المنازل والديار انه ترجمة كتبها عن نفسه سنة ٥٦٨ هـ أثناء اقامته في حصن كيفا •

والصحيح ان المنازل والديار لم يكن ترجمة أو سيرة لاسامة وانما هو كتاب أدب وشعر جمع فيه ما قاله الشعراء في ندب ورثاء المنازل والديار والاطلال والربع والدمن وكانت غايته التفريج والتأسي بعد الزلزلة التي قضت على أهله ودياره وارجح انه شرع في جمع مادته وهو في الشام على أثر وقوفه على أطلال دياره

٧ ـ ملاحظتي على الاستاذ العلامة أحمد أمين رحمه الله انه جعل دخول اسامة الى مصر سنة ٥٤٩ في مقاله القيم الذي كتبـه في الثقافة في الجزء الرابع من فيض الخاطر من ١٣٧ قال : دخل اسامة مصر سنة ٥٤٩ وقـد نيف على الخمسين : والصحيح ان دخوله مصر كان سنة ٥٣٩ وسنة احدى وخمسين سنة وخرج منها سنة ٥٤٩ وسنه قد تجاوز الستين •

٨ ـ وجعل هجرته الاولى الى دمشق ، والصواب كانت هجرته من شيزر الى الموصل التحق بجيش عماد الدين زنكي ولم تكن الشام تابعة له •

اما هجرته الثانية سنة ٥٣٢ فكانت الى الشام وكان حاكمها صديقه معين الدين أنر وزيراً لشهاب الدين طفتكين وبقي فيها الى سنة ٥٣٩ •

٩ ـ ملاحظتي على الاستاذ المحقق عبدالسلام هارون انه نشر كتاب العصا على النسخة التي وجدها أحمد أمين ولم يقابلها مع النسخة التي حققها ونشرها المستشرق (درنبورغ) سنة ١٨٩٣ وهي نسخة ليدن ، والمحقق الفاضل لا يجهل وجودها كان بامكانه أن يحصل عليها من باريس ولو قابلها مع نسخته لوجد فيها مواضع كثيرة للتصحيح كما فعلت في مقابلتي بين النسختين •

١٠ ـ كتب الاستاذ عبدالكريم الاشتر مقالا في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١٠ : المجلد الثاني والاربعون ، كانون الثاني ١٩٦٧ • كتب مقالا بعنوان صفحة من تراثنا الحي ، ملاحظاتي عليه ما يأتي :

(١) المقدمة كرر ما قاله فليب حتي ولم يشر اليه •

(٢) جعل هجرة اسامة الى الشام سنة ٥٣٢ والصحيح انه هاجر الهجرة الاولى الى الموصل والتحق بعماد الدين وبقي فيها الى سنة ٥٣٢ أي مدة سبع سنوات فلما حاصر الروم قلعة شيزر جاء مع جيش عماد الدين وعاد الى شيزر ودافع عنها الى ان انسحب الروم عنها سنة ٥٣٢ ورغب البقاء فيها ولكن عمه جاهره بضرورة ترك شيزر فرحل الى الشام وبقي فيها مع معين الدين أُنر الى سنة ٥٣٩ فبارحها الى مصر •

(٣) وقال ان رحلته الى مصر سنة ٥٤٠ وبقي فيها تسع سنوات والصحيح ان رحلته كانت ٥٣٩ وبقي فيها الى سنة ٥٤٩ أي عشر سنوات •

(٤) قال انه غادر مصر الى حصن كيفا وهذا خطأ • فقد رجع الى الشام والتحق بنور الدين زنكي وبقي معه الى سنة ٥٦٠ وشهد ٥٥٢ الزلزلة التي أودت بأهله •

(٥) المقال لم يخرج عما كتبه فليب حتي على مقدمة الاعتبار واعتماده الاعتبار في جميع ما اقتبسه •

ملاحظتي على الدكتور يعقوب صروف انه في مقاله الذي نشره في المقتطف في عدد مايس ١٩٠٨ ـ مجلد ٣٣ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٣ • (قال انه كان في مصر

سنة ٥٤٧ في عهد الملك العادل مع ان الملك العادل خلف الملك الصالح سنة ٦٥٥) وكلام اسامة صحيح اذ ان ابن السلار كان يلقب بالملك العادل كما ان نور الدين محمود كان يلقب بنفس اللقب .

١١ ـ ملاحظتي الاخيرة اني قرأت كل ما كتبه الاستاذ محمد كرد علي في الرسالة واحمد محمد شاكر في مقدمته على اللباب ومقالاته في مجلة الكتاب واحمد أمين في فيض الخاطر الجزء الرابع ويعقوب صروف في المقتطف وقد وقع بأغلاط كثيرة عقب عليها الاستاذ أحمد محمد شاكر فلا أرى ضرورة لاعادتها .

وفليب حتي في مقدمة الاعتبار ومجلة الكلية في جامعة بيروت وما كتبه المحققان للديوان وما كتبه الناشرون لمقدمة المنازل والديار وجدت ما كتبه الاساتذة الافاضل لا يخرج عما في الاعتبار ورددوا ما قاله وكتبه ابن خلكان وياقوت .

وبعـد :

فاني لا أدعي قد ابتدعت وانما وجدت لَبِناً فبنيت وتيسرت لي مصادر فكتبت ما كانت ميسرة يوم كتب عنه أصحاب المقالات ، ولا شك ان القارىء الكريم يقدر الفرق بين من يكتب مقالة وبين من يكتب كتابا الاول معذور ان اختصر أو طوى أخباراً وأبرز اخرى واقتصر على نواحي معينة أراد ابرازها اما الثاني أقصد المؤلف (١) فلا يعذر ان أهمل أو اقتضب من أجل ذلك جاء بحثي مفصلاً مقرونا بكثير من شعره والذي أعده مفتاح شخصية اسامة قد يتهمني البعض باني افرطت بالاقتباس منه والحقيقة اني تركت كثيراً من شعره الذي ينير للقارىء الدرب ويلقي اضواء كاشفة على حياته ولكل نهجه ووجهته في العرض والابانة والبحث ، وحسبي اني قدمت خدمة للقارىء العربي على قدر عزمي وعلمي عسى ان تحظى برضاه ومن الله التوفيق .

---

(١) كتب محمد أحمد حسين كتابا عن اسامة مختصراً نشره سنة ١٩٤٦ ونقدته مجلة الكاتب المصري سنة ٤٦ ـ ٣٣ ـ ج ـ ١٠ ونهجه يختلف عن نهجي وعذره ان المصادر كانت غير موفورة لديه ولا سيما كتب ومؤلفات اسامة مثل المنازل والديار ، والبديع ، والديوان ، وكتاب العصا ، ومن المصادر : مثل الرضتين لابي شامة ، والخريدة للعماد الكاتب .

ملاحظاتي على الدكتور حسين مؤنس :

١٢ ـ في ص ٩٩ من كتاب نور الدين محمود :

(١) اتهم الدكتور حسين مؤنس صراحة بني منقذ بالعمالة للافرنج وقال : « انهم فرحوا بانخذال السلجوقيين » وقال : « فلم تنهض بهم الهمة الا الى الاتصال بالصليبيين وعرض المعونة عليهم وتقديم الادلاء اليهم اذا هم تركوهم بسلام » . ويقول : « ولقد لقي بنو شيزر من الهوان على أيدي الصليبيين وقبلوه على ذلة » .

(٢) وتجنى على اسامة في صفحة ١٦٩ ونفى عن اسامة كل نصرة لقضية الاسلام بل كان من المتعاونين مع الاعداء العاملين على تأييد سلطانهم .

(٣) وجعل من اعجاب المستشرقين لكتاب الاعتبار مدعاة للتهجم عليهم ومنفذاً لاتهاماته وحملاته على اسامة والحط من اسلوبه ومن شعره .

(٤) تشفى من اسامة حين انتهب الافرنج في عكا امواله وكان من بينها أربعة آلاف كتاب كان قد انتقى انتخابها وجود تجليدها .

وفي الكتاب ردد اتهامات لا اثاره له فيها من علم أو مستند . أقول : ان اتهاماته لم يقم عليها دليل من فعل أو قول ولم أجد مؤرخا من المؤرخين سواء ممن عاصره أو ممن جاء بعد عصره من ذكر هذه الاسرة بأنها والت الافرنج أو عملت لهم ، وقد أطرى المؤرخون والشعراء والكتاب بطولات هذه الاسرة وصمودها أمام الاعصار الغربي وقفوا يدافعون زحفهم ويهاجمون قلاعهم ، والثابت ان الافرنج لم يتمكنوا من احتلال شيزر واقامة حكومة افرنجية كما اقاموا في كثير من الاصقاع .

لم يتخاذل بنو منقذ أمام هجمات الافرنج والروم معا ووقفوا كالطود الشامخ يدافعون زحوف الروم سنة ٥٣٢ وعاد ملك الروم الى انطاكية خائباً ، ان البطولات التي قام بها مرشد واخوه أبو العساكر الامير سلطان وما كان يقوم به اسامة من خوض المعامع ومهاجمة القلاع وما كان يحتمله من الجلاد والساعات الطوال في

ميادين القتال مما كان يثير اعجاب الفرسان وكان مدعاة لحضور قائد من قواد الفرنجة ليهنىء اسامة على شجاعته وفروسيته بحضور عمه حاكم شيزر .

اما اتهام الدكتور مؤنس اسامة بالعمالة والخيانة لمجرد صداقته مع رجال (الداوية) فاسامة يذكرها في كتابه الاعتبار وهي لا تعدو اعجاب الشجاع بشجاعة خصمه واسامة كان يردد اطراءه في غير موضع من كتابه (الاعتبار) بشجاعة الافرنج وما عدا الشجاعة فهم كالبهائم ، ويظهر لي ان الدكتور غفل تلك الصلات التي كانت سائدة بين المتحاربين ولا سيما ايام تقع بينهم وبين المسلمين الهدنة ، وذم اسلوب كتاب الاعتبار . واسامة لم يرد الا اعطاء فكرة عن الحروب الصليبية باسلوب القصاص على طريقة المذكرات كتبها أو الاصح أملاها وقد تجاوز التسعين عاما فجاء كتابه خير وثيقة تأريخية لتلك الحقبة وصورة واضحة القسمات للحياة الاجتماعية التي كان يحياها امراء الشام من جهة وما كان يقع بينهم من المنافسات والانقسامات بدافع التسلط وحب التملك ، وما يقع بينهم وبين الافرنج من جهة اخرى ، كانوا يتزاورون ويتبادلون البضائع والصنائع ويستفيدون من حضارة المسلمين .

فانبهم على الدكتور أمر هذه العلاقات فراح يتهم اسامة ومعين الدين أُنر وغيرهما من الأبطال المجاهدين بالخيانة والعمالة والذلة ، وطمس على جهادهم ونسي ما لقيه اسامة في الحروب التي خاضها مع عماد الدين زنكي ، ومعين الدين ونور الدين وابن السلار .

في الواقع ان الصواب قد جانف بحث الدكتور مؤنس في كتابه نور الدين محمود عن آل منقذ وعن اسامة بالذات .

فهرس الاعلام

(أ)

(ع)

(ف)

(ق)

مراجع الكتـاب

١ ـ الاعتبار ـ اسامة بن منقذ ـ تحقيق ، فيليب حتي ـ برنستون ـ ١٩٣٠ م •
٢ ـ لباب الاداب ـ اسامة بن منقذ ـ تحقيق ، أحمد محمد شاكر ـ مطبعة سركيس ـ ١٩٣٦ م •
٣ ـ ديوان اسامة بن منقذ ، تحقيق ، الدكتور أحمد أحمـد بدوي ـ وحامد عبدالمجيد ـ القاهرة ١٩٥٢ م •
٤ ـ المنازل والديار ـ تحقيق ونشر المكتب الاسلامي ـ دمشق ـ ١٩٦٥ م •
٥ ـ العصا ـ تجقيق المستشرق درنبرغ ـ باريس ـ ١٨٩٣ م •
٦ ـ العصا ـ تحقيق عبدالسلام هـارون ـ القاهرة ـ ضمن سلسـلة ـ نوادر المخطوطات •
٧ ـ البديع ـ اسامة بن منقذ ـ تحقيق ـ الدكتور أحمـد أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد القاهرة ١٩٦٠ •
٨ ـ النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ـ الجزء السادس ـ لابن تغري بردي دلاتابكي ـ دار الكتب ـ •
٩ ـ الكامل ـ ابن الاثير ـ الجزء الحادي عشر ـ الطبعة الاولى ـ •
١٠ ـ السلوك في معرفة دول الملوك ـ المقريزي ـ الجزء الاول ـ تحقيق ، الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة •
١١ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ الجزء الثاني عشر ـ الصحيفة ٣٣١ •
١٢ ـ أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشـهباء ـ راغب الطباخ ـ الجزء الثـاني ـ الصحيفة ١٨٦ ـ •
١٣ ـ تاريخ ابن خلدون ـ بيروت ـ الجزء الرابع •
١٤ ـ معجم الادباء ـ ياقوت الحموي ـ طبعة اوربا ـ الجزء الثاني ـ صحيفة ١٧٦ ـ ١٩٦ •
١٥ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ بيروت ـ (مادة ـ شيزر) •
١٦ ـ وفيات الاعيان ـ ابن خلكان ـ الجزء الاول ـ (صحيفة ٧٨ ـ ٨٠) ـ الطبعة الاولى ـ بولاق ـ •

١٧ ـ العبر في من غبر ـ للذهبي ـ الجزء الرابع ـ الكويت (الصحيفة ٢٩٢) ٠
١٨ ـ الخريدة ـ للعماد الكاتب ـ الجزء الاول من قسم الشام ـ (الصحيفة ٤٩٨ ٥٤٧) ـ دمشق ـ ٠
١٩ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لابي شامة في مواضع عدة ٠
٢٠ ـ مرآة الجنان ج ٦ : ٤٢٧ ـ ٤٢٨ لليافعي طبع الهند ٠
٢١ ـ الحياة الادبية عصر الحروب الصليبية ، الدكتور أحمد أحمد بدوي ٠
٢٢ ـ الحياة الادبية في العصر العباسي ، الدكتور أحمد أحمد بدوي ٠
٢٣ ـ أعيان الشيعة ج ١١ : ٣ ـ ٢٦ السيد محسن الامين العاملي ٠
٢٤ ـ سيرة صلاح الدين لابن شداد ٠
٢٥ ـ مفرج الكروب لابن واصل الاجزاء الثلاثة في مواضع عدة ٠
٢٦ ـ الحركة الصليبية الدكتور سعيد عبدالفتاح الاول والثاني ٠
٢٧ ـ زهر الآداب لابي اسحق الحصري ، تحقيق زكي مبارك ٠
٢٨ ـ أدب الحروب الصليبية للدكتور عبدالمطيف حمزة ٠
٢٩ ـ تأريخ ابن الفرات الجزء الاول من المجلد الرابع تحقيق الدكتور حسن محمد الشماع ٠
٣٠ ـ الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول ٠
٣١ ـ الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري ، حيدرآباد ١٩٦٤ ٠
٣٢ ـ خطط الشام للاستاذ محمد كردعلي ٠
٣٣ ـ تأريخ لبنان وسوريا للدكتور فليب حتي ٠
٣٤ ـ الفاطميون في مصر للدكتور حسن ابراهيم حسن ٠
٣٥ ـ كشف الظنون حاج خليفة ٧٢ ، ٢٣٥ ، ٧٧٥ ، ١٣٩٣ ، ١٤٠١ ٠
٣٦ ـ الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الاصفهاني الكاتب القاهرة ٠
٣٧ ـ معجم ما استعجم للبكري طبعة القاهرة ٠
٣٨ ـ نكت الهميان في نكت العميان تحقيق أحمد زكي ، القاهرة ٠
٣٩ ـ نهاية الارب في فنون الادب ، النويري ٠
٤٠ ـ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ج ٢ : ٢٢٥ ٠

٤١ ـ الاعلام لخير الدين الزركلي جـ ١ : ٢٨٢ • الطبعة الثانية •
٤٢ ـ رحلة ابن جبير في مواضع عدة • طبعة بيروت •
٤٣ ـ تأريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم حسن جـ : ٣ •
٤٤ ـ المنتظم في تأريخ الملوك والامم لابن الجوزي طبعة الهند ١٣٥٩ •
٤٥ ـ الحروب الصليبية حسن حبشي القاهرة ١٩٤٧ •
٤٦ ـ نور الدين والصليبيون حسن حبشي ١٩٤٨ •
٤٧ ـ زمباور : الاسر الحاكمة في التاريخ الاسلامي ١٩٥١ •
٤٨ ـ المجلات الرسالة أحمد بدوي ١٨ : ٦٦٤ ـ ٦٦٦ ، ٦٩٢ ، ٦٩٦ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ •
٤٩ ـ محمد كردعلي م ٣ •
٥٠ ـ عبداللطيف حمزة الثقافة جـ ٨ : ٦٩١ ـ ٦٩٣ •
٥١ ـ مصطفى الماجي العرفان ٤٠ : ٩٧٩ ـ ٩٨٣ ، ١١٢٠ الى ١١٢٣ •
٥٢ ـ أحمد محمد شاكر الكتاب ١ : ٧٧٣ ـ ٧٧٨ •
٥٣ ـ فليب حتي مجلة الكشاف ٤ : ٤٧٣ ـ ٥٠٢ •
٥٤ ـ فيض الخاطر جـ ٤ : ١٣٣ ـ ١٤٧ •
٥٥ ـ اسامة بن منقذ محمد أحمد حسين ١٩٤٧ •
٥٦ ـ الكاتب المصري م ٣/ جزء ١٠ نقد وتعريف •
٥٧ ـ المقتطف في عدد نيسان ١٩٠٨ مجلد ٣ : ٣٠٨ ـ ٣١٣ •
٥٨ ـ خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر نشره الدكاترة أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس جـ ٢٢١ والقاهرة ١٩٥١ •
٥٩ ـ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب للاستاذ محمد العروسي المطوي ، تونس ١٩٥٤ •
٦٠ ـ نور الدين محمود للدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٩ •
٦١ ـ لسان العرب طبعة بيروت •
٦٢ ـ القاموس المحيط الفيروزآبادي •

جدول الخطأ والصواب

ص	س	الخطأ	الصواب
٦	١١	أهاجها	هاجها
٩	١٦	يجاددون	يحادُّون
١٩	٦	تنافس على	تنافس في
٢٧	١٠	لا ترضَ	لا ترضى
٣٤	٦	العدا	العـدى
	١٩	القبر	القفر
٣٦	١٠	الشطر	لكنْ ودُّه أمم
٣٧	١٧	واذا	والنفس الابية اذ
٣٧	٣	واذا	اذا الواو زائدة
٤١	١٩	الخيفة	الخليفة
٤٣	٢٣	مائة	ثمان مئة
٤٦	٧	عظاة	عظات
٤٩	٢٠	فوصولها	فوصلوها
٤٩	١٣	الشطر	نلت في مصر كل ما يرتجي
٥١	٨	الشطر	ولا في الضراب يوما ضريب
٥١	١٣	الافرنج	للافرنج
٥٤	٢١	وأجلٍ	وأحلّ
٦١	٥	شغب	سقب
٦٤	١٠	غيضا	غيظاً
٦٧	٢١	يؤدي	يُودي
٧١	١٤	تعش	تعش به
٧٣	١٣	احدى عشر	احدى عشرة
٧٤	٢٣	أهنى	اهنأ
٧٦	١٠	ويقضي	ويقضِ
٨١	١١	وآسى	وأسيَ
٩٠	٢١	واحد بحجر	بحجرٍ واحد
١٠٤	١٩	الردا	الردى
١١٤	١٢	واشتطوا	أو اشتطوا
١١٦	١٢	الشطر	يوما ضريب

ص	س	الخطأ	الصواب
١١٦	١٨	الرهيب	الرحيب
١٢٠	٥	مقهورا	مقهور"
١٢٣	٧	الشطر	طلق وقلبي كئيب" مكمد باكِ
١٢٨	٢٣	وتشنيبها	وتشذيبها
١٣٩	١١	وذو العلق	وذا
١٥٤	١٢	بأمري	بأمرىء
١٥٧	١٣	بط	بخط
١٦١	٢	ربي	ربا
١٦٢	٤		يا منزلا كان فيه العزّ مقترناً
١٦٣	١	أأحمـّل	أوحمل
١٦٤	الهامش	دامية	اهية
١٧٦	٨	اثنين	اثنتين
١٧٧	٤	ومسوداه	ومسوّداته
١٧٨	٢		يضيق بالنفس فيه صدر ذي الباس
١٨٢	٤	او ساء	أو ما ساء
١٨٢	٢٠	يخلوا	بخلو
١٨٣	٥	احذر	اختار
١٨٥	١٢	فاِ مناً	فا ما مناً بعد واماّ
١٨٦	٢٤	ف قتل	مأقتل
١٨٩	١٠	جنى	جنبي
١٩٠	١٢	المثك	المشرك
١٩٢	١٩	ابن الصـّمة	بن
١٩٢	٢٠	مكدّم	مُكدّم
١٩٣	٢٢	لا يكرنه	لا يكرثه
١٩٦	١٤	يتقيك	يتفك
١٩٧	١٧	ذي العلم	ذوي العلم
١٩٨	٨	ووزاروه	ووزراؤه
٢١٣	٥	هو	وهو
٢١٤	١٣	ضوءِ نهاريا	ضوءِ نهاري
٢٢٤	٢	البديعين والبلاغين	البديعيين والبلاغيين
٢٤٣	٢٠	استعادت	استعارت
٢٤٩	١٩	الاولى	الألى

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٥٢	٤	والسلوان	أو السلوان
٢٥٢	١٣	قد رانت	وقد رانت
٢٥٢	٢٢	درئية	دريئة
٢٥٨	الهامش	قبل	قيل
٢٥٨	١٤	كشذى	كشذا
٢٦٠	٦	يؤدني	يؤودني
٢٦٢	٩	عيّ	عيّي
٢٦٥	١٥	الرضا	الرضى
٢٦٩	٢	والعيش	والعيس
٢٦٩	٥	نارح	نازح
٢٧١	١٩	الشطر	بك زاد الاسلام يا سيفه
٢٧٤	٤	الشطر	أيها المنقذي
٢٧٦	٧	من سطواك	من سطاك
٢٧٦	الهامش ٢	يظلّهم	يظللهم (١)
٢٨٩	١٩	لأحضى	لأحظى
٢٩٣	١٤	الشطر	وسيرة هي عدل
٢٩٤	١	ثري	ذرا
٢٩٦	١٤	مبعدةٌ	مبعدةً
٢٩٦	١٦	مط لعاته	مطالعاته
٢٩٨	١١	سرفوا	سرف
٣٠٢	١٧		من نشببي
٣٠٧	٢١	ليال	ليالي
٣١٠	٩	تنقضي	تتقضى
٣١٩	٥	بينهم	بينهم
٣٢٢	١٥	المتصل	المُنصل
٢٢٥	٥	براحتم	براحتهم
٣٢٧	٩	اذا ما روضه	اذا روضته

ص	س	الخطأ	الصواب
٣٣٢	١	السطر مكرر	طبعه
٣٣٢	٩	المعانات	المعانات
٣٣٥	٥	والشائنين	والشانئين
٣٣٥	٧	ولا مهربا	ولا مهرب
٣٣٨	١	اللذان	اللذين
٣٣٨	٦،٥	صوابهما كما يلي	

ودع ذنبها فالحبُّ مُبْدٍ لعذرها
فما زلت في عالي وفائي وغدرها

ص	س	الخطأ	الصواب
٣٤٢	٦	وانتفاض	وانتقاض
٣٤٦	٢١	الصلاة	الصِلاة

شكر وامتنان

من الاعتراف بالجميل والفضل ان أتقدم بالشكر الجزيل للسادة الافاضل الذين أسدوا الي المعاونة في انجاز الكتاب وفي مقدمتهم أخي وصديقي الاستاذ مصطفى علي والاستاذ عبدالله الجبوري وعبدالحميد العلوجي فلهم مني كل تقدير وامتنان ولا أنس معاونة أبي أسعد صاحب مطبعة أسعد والمرتبين ..... فلهم مني الحمد لحسن معاملتهم وجميل صبرهم .

رجاء واعتـذار

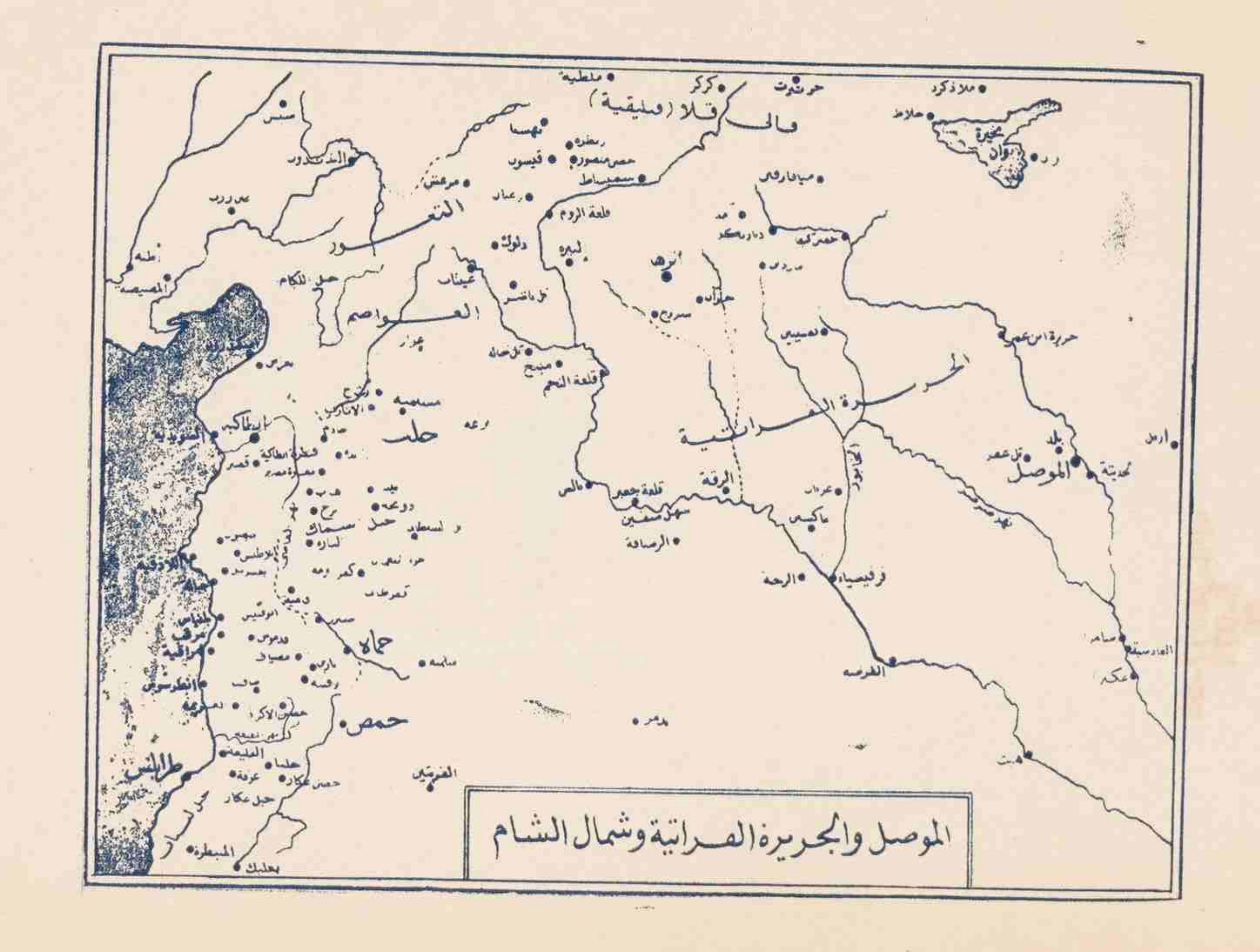
رجائي الى القراء الكرام أن يلتفتوا الى جدول الاخطاء ويضعوا التصحيحات في مواضعها مع اعتذاري اليهم لوقوع الاخطاء مع حرصي ألا تقع ، ولكن هذه حال طباعتنا العربية وحروفنا وحركاتها .

المؤلف

جمال الدين الآلوسي

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضـــوع
١٣١	المنازل والديار
١٣٣	موضوع الكتاب
١٣٣	نسخة الكتاب
١٣٤	مقدمة الكتاب
١٣٦	فصول الكتاب
١٣٧	نموذج من فصول الكتاب
١٥٧	كلمة في الكتاب
١٧٣	لباب الآداب
١٧٥	تعريفه
١٧٦	منهج الكتاب
١٨٢	باب الجهاد أو الشجاعة
١٩٤	باب السياسة
٢٠٣	البديع في نقد الشعر
٢٠٥	مقدمتـــه
٢٠٨	مقدمة المؤلف
٢٠٨	نماذج من أبواب الكتاب
٢١٢	باب طبقات التطبيق
٢١٥	باب الظرافة والسهولة
٢١٦	باب التفريط
٢١٨	باب السابق واللاحق
٢٢١	باب الاستعارة
٢٢٤	كلمة أخيرة في الكتاب
٢٢٥	كتاب العصا
٢٢٩	عرض وتلخيص
٢٢٩	نماذج من شعر اسامة مما لم يرد في ديوانه


الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام
الموصل
بلد
تل عفر
ارىل
حديثة
الجزيرة الفراتية
الثغور
العواصم
قالي قلا (قاليقية)
كركر
ملطية
ملازكرد
بحيرة وان
حلب
حماه
حمص
طرابلس
اللاذقية
انطاكية
قلعة الروم
قلعة جعبر
قلعة النجم
منبج
الرقة
الرصافة
الرحبة
قرقيسياء
ماكسين
الخابور
الفرضة
عانة
سميساط
مرعش
عين زربة
المصيصة
الاسكندرونة
جبل اللكام
سرمين
بالس
دمشق
تدمر
حران
سروج
الرها
نصيبين
دارا
ميافارقين
جزيرة ابن عمر
تكريت
هيت
عكبرا
صامرا
القادسية
ملطية
بعلبك